الجامعـــــة الأردنيـــة
كليـــة الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها
الدراســـات العليـــا

أدب الجهاد في الأندلس في عصر المرابطيـــن

إعـــــداد الطالب

حامد كساب عيــــــاط

إشـــــراف

الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفـــة

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية
بكلية الآداب في الجامعة الاردنيـــة سنة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) .

الـــى روحـــــي أبـــــي وعمّـــــي ......

والـــى اخوتـــي وأمـــي : اخاء ووفـــــاء

شكـــــر وتقـــــديـــــر

يسرني أن أقدم جزيل شكرى وعظيم امتناني للأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة الذى رعى هذا البحث وتفضل بالاشراف عليه ، والذى منحني من علمه ووقته الشـــئ الكثير على الرغم من انشغاله وكثرة مسؤولياته .

كما لا يفوتني أن اشكر كل من قدم لي العون والمساعدة اثناء اعداد هـــذا البحث واخص بالذكر موظفي مركز الوثائق والمخطوطات وموظفي مكتبة الجامعـــــة الاردنية والأخوة صالح كساب وتركي أحمد ومهند دقمان .

المقدمـــــة :

دخل المرابطون الأندلس مجاهدين سنة (٤٧٩) هـ وواصلوا هذه المهمة حتى سقوط دولتهم سنة (٥٤٢) هـ ، وكان من آثار الصراع الذي خاضوه مع النصارى أن ازدهر أدب الجهاد شعره ونثره ، ومع ذلك فان هذه الفترة من تاريخنا الأدبي بشكل عام ـ وأدب الجهاد منها خاصة ـ فترة تكاد تكون مجهولة ولم تدرس دراسة علمية من وجهة النظر الاسلامية وانما اقتصرت معظم الدراسات فيها على عدد من المستشرقين ، وقد وصف بعضهم أدبها بأوصاف قاسية بعيدة عن الحقيقة [1] يحدوهم في ذلك الانسياق وراء الأهواء الشخصية والتعصب الشديد [2] على هذه الدولة لما قامت به من دفاع عن الاسلام والمسلمين في الأندلس .

ويرى الباحث أيضا اننا نواجه الآن ظروفا تاريخية مشابهة للظروف التي تعرض لها المسلمون في الأندلس آنذاك ، من احتلال للأوطان وتهجير للسكان وابتلاء بالأعداء من صهاينة وصليبيين ، وقد كانت هذه الأمور من أهم الأسباب التي دفعتنا الى اختيار هذا الموضوع للبحث والدراسة .

وعلى حد علم الباحث فانّ أحدا لم يتطرق لهذا الموضوع بالبحث والدراسة اللّهم الّا اشارات قليلة سريعة في بعض الدراسات ، ومن هذه الدراسات كتاب الدكتور احسان عباس" تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين " وعلى أهمية هذا الكتاب فانه قد أشار الى أدب النكبات فقط مستعرضا أهم الأحداث التي نزلت بالأندلس في فترتي الطوائف والمرابطين ، والكتاب يهتم بفترة

---

(١) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي / ١٩ ـ ٢٠ .
(٢) تاريخ الفكر الأندلسي / ١٩ .

امراء الطوائف وآدابها أكثر من اهتمامه بفترة المرابطين . ومن هذه الدراسات أيضا كتاب الدكتور محمد مجيد السعيد "الشعر في عهد المرابطين والموحدين " والكتاب دراسة عامة لشعر المرابطين والموحدين ، كما أنه يركز على فنون الشعر التقليدية من مدح وهجاء وزهد ورثاء ... الخ . ومن هذه الدراسات كذلك دراسة الدكتور حازم خضر " النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين " والكتاب على أهميته يهتم بالنثر عامة وبفترة طويلة تشمل عصري الطوائف والمرابطين .

وقد اتبعت في هذه الدراسة اكثر من منهج حسبما يناسب طبيعة الفصول : ففي الفصلين الاولين أخذت بالمنهج التاريخي ، فجمعت ما وجدته في المصادر عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في هذه الفترة ، وحاولت أن أتبيّن من خلال النصوص التاريخية والعلمية مفهوم الجهاد لدى هذه الدولة ، ولم أخل هذه النصوص من النقد والتحليل . أما الفصول الاخرى فقد تتبعت فيها النصوص الادبية مستخرجا منها الافكار والآراء مع مراعاة الظروف التي قيلت فيها هذه النصوص .

وقد واجهتني في هذا البحث صعوبات عدة ، فمن ذلك ضياع معظم مصادر هذه الفترة بشكل خاص وكثير من مصادر الاندلس بشكل عام ، ومن ذلك ايضا تعرض هذه الدولة لعداوات الكثيرين ، فاضافة الى كراهة أهل الاندلس السياسية والقومية للمرابطين هناك التعصب المذهبي من جانب الموحدين عليهم ، وليس بعيدا ان يكون هذا التعصب قد جنى على كثير من كتبهم خاصة وان أسماء عدة من هذه الكتب قد وصلتنا ولم تصلنا الكتب نفسها ومن هذه الكتب :

كتابان لأبي بكر يحيى بن الصيرفي ت (٥٥٧)هـ وهما كتاب " تقصي الأنباء وسياسة الرؤساء " وكتاب " الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية "[١] وقد ضمن المؤلف كتابه هذا " العجاب حتى ثلاثين وخمسماءة ثم وصله الى قرب وفاته " [٢]، ومن هذه الكتب أيضا " تاريخ المرابطين" للقاضي عياض ت(٥٤٤) هـ ، وقد انتهى فيه الى سنة (٥٤٠)هـ [٣]، وكتاب " البيان الواضح في الملم الفادح " لابن علقمة ت (٥٠٩) هـ تعرض فيه المؤلف لنكبة بلنسية سنة (٤٨٧) هـ ،وقد وصلنا جزء من هذا الكتاب ضمنا في كتاب البيان المغرب [٤]. واضافة الى تعصب القدماء على المرابطين فقد تعصب عليهم بعض المستشرقين وانتقصوا من مكانتهم ظلما وافتراء ، وقد كان هذا التعصب الشديد عقبة جديدا على الدراسة حتم علينا الشك في كثير من المصادر أو الأخذ بها على حذر . ومن هذه الصعوبات أيضا أن كثيرا من المصادر المتوافرة لدينا هي مصادر عامة تهتم بتاريخ الوجود الاسلامي في الاندلس بشكل عام .

أما مصادر الدراسة فقد كانت دواوين شعراء هذه الفترة مثل ديوان الأعمى التطيلي ت (٥٢٥)هـ وديوان ابن الزقاق البلنسي ت (٥٢٩) هـ وديوان ابن خفاجة ت (٥٣٣)هـ .

ومن المصادر المهمة أيضا كتاب مذكرات الأمير عبد الله المسمى كتاب " التبيان " ،وهو كتاب مذكرات كتبه أمير غرناطة عبد الله ابن بلقين ت (٤٨٣) هـ بعد ادالة المرابطين منه وارتهانهم بأغمات

---

(١) الاحاطة : ٤/٤٠٧.

(٢) المصدر نفسه

(٣) أزهار الرياض : ٥/٥ .

(٤) انظر : البيان المغرب : ٤/٣١-٤١.

مع غيره من امراء الطوائف المخلوعين ، والكتاب يوضح جوانب من الحياة السياسية في الاندلس زمن امارات الطوائف ويكشف عن طبيعة العلاقات بينها وبين النصارى .

ويعد كتاب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " لابن بسام الشنتريني ت (٥٤٢) هـ من أهم المصادر عن هذه الفترة ، فالكتاب ذو قيمة علمية وأدبية عالية ولا يستطيع أي باحث في هذه الفترة أن يستغني عنه ، كما أن المؤلف معاصر يكتب عن حياة أدبية يعيشها ويتفاعل معها ، الا أن توقفه عند سنة (٥٠٣) هـ يقلل من شموليته ، ولو أن الكاتب واصل الكتابة لفترة أطول لسد نقصا كبيرا في مصادر هذه الفترة .

ومن المصادر المهمة كذلك " خريدة القصر وجريدة العصر " للعماد الاصفهاني ت (٥٩٧) هـ ، والكاتب لم يعش في الاندلس ولم يزرها الا أنه عوّل على السماع ممن رحل الى المشرق من أهل الاندلس آنذاك ، ويشتمل الكتاب على كثير من القصائد المتعلقة بأدب الجهاد .

والجزء المتبقي من كتاب " نظم الجمان " لابن القطان ت (٦٢٨) هـ وهو يتناول ثلاثا وثلاثين سنة من فترة حكم المرابطين للاندلس (٥٠٠ — ٥٣٣) هـ ، ومادة الكتاب تاريخية مختصرة ، والكتاب تاريخ بلاطي خالص مذهبي الطابع من طراز الكتب التي ألفها مؤرخون منتفعون من الدولة التي يستظلون بها ، وهو كثير الحماس للموحدين الا انه في أحيان متعددة كان يسلّم ببعض ما سجلّه المرابطون من مآثر في خدمة الاسلام والمسلمين .

وكتاب " المعجب " لعبد الواحد المراكشي ت (٦٤٧) هـ ، وقد ألّف المراكشي كتابه في بغداد بعيدا عن تأثير السياسة وتعصب

الموحدين ، ويظهر عنصر الحياد فيه واضحا بشكل كبير ،وكان يمكن لهذا الكتاب ان يفيد كثيرا لو أعطى المؤلف فترة المرابطين ما تستحقه من العناية ، ولكن عذره انه لم يعش هذه الفترة وانه ألّف كتابه بعيدا عن مكتبته في المغرب .

والجزء الرابع من كتاب " البيان المغرب " لابن عذاري المراكشي ت (٦٩٥) هـ ، وتأتي أهميته من اعتماده على مصادر معاصرة لدولة المرابطين لم تصلنا ، الا أن الكتاب ناقص سقط منه أخبار سنوات عديدة .

وكتاب " الاحاطة في أخبار غرناطة " للسان الدين ابن الخطيب ت (٧٧٦)هـ وهو كتاب تراجم. ولكنه تعدى ذلك الى ذكر الأخبار والنثر والأشعار ، وقد انفرد هذا المصدر بذكر أخبار وقصائد لم ترد في مصدر غيره .

وكتاب " أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام " بقسميه (تاريخ اسبانيا الاسلامية) و (تاريخ المغرب العربي) للمؤلف نفسه ، فقدم لنا القسم الأول معلومات مهمة عن الحياة السياسية في امارات الطوائف وعن علاقاتها بالنصارى بينما تفرد القسم الثاني بايراد معلومات لا بأس بها عن دولة المرابطين ـ خاصة في بداية انشائها ـ لم تذكرها المصادر الاخرى .

و" الحلل الموشية في الأخبار المراكشية " لمؤلف مجهول والكتاب مهم لدراسة الحياة السياسية ـ خاصة علاقة المسلمين بالنصارى ـ والحياة الاجتماعية في الأندلس والمغرب في هذه الفترة .

ومن المصادر التي اعتمدتها في التعريف بالاعلام كتاب " الصلة" لابن بشكوال ت (٥٧٨) هـ ، وكتاب " التكملة لكتاب الصلة" لابن الأبّار ت (٦٥٨)هـ و " المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي " لابن الأبّار نفسه ، وهو مهم في توضيح بعض جوانب الحياة الفكرية اذ كانت

اكثر تراجمه لرجال العلم من شيوخ هذا الامام وتلاميذه . و " المغرب في حلى المغرب " لابن سعيد المغربي ت (٦٨٥) هـ . ويجب أن نلاحظ أن كتب التراجم هذه لاتقتصر على التعريف بالعلم بترجمة حياته وانما كانت تورد في كثير من الأحيان أشعارا ونثرا وأخبارا قد لانجدها في غيرها من المصادر .

ومن الكتب الجغرافية التي اعتمدتها في هذه الدراسة كتاب " معجم البلدان " لياقوت الحموي ت (٦٢٦) هـ و " الروض المعطار " للحميري ت (٧٢٧) هـ ، والكتابان مهمان في تحديد مواقع المدن وفي ذكر بعض الأحداث التي تعرضت لها ابان حكم المرابطين .

أما مادة الدراسة فتتكون من ستة فصول وخاتمة ، درست في الفصل الأول الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية وحاولت التركيز على الحياة الفكرية لابين زيف دعوى من يرمي هذه الفترة بالجمود والانحطاط . وحاولت في الفصل الثاني أن أتعرف على مفهوم الجهاد لدى دولة المرابطين مستعينا بالنصوص التاريخية والكتب الفقهية المؤلفة في هذه الفترة . وفي الفصل الثالث تتبعت أثر الجهاد في الادب شعره ونثره . وفي الفصل الرابع قمت بدراسة الاحداث التاريخية من خلال أدب الجهاد . أما الفصل الخامس فقد حاولت أن أرسم فيه ملامح صورة البطل المسلم من خلال أدب الجهاد وبالمقابل حاولت أن أرسم ملامح صورة النصارى بشكل عام ، وقصرت الفصل السادس على الدراسة الفنية للشعر والنثر كل على حدة . أما الخاتمة فقد ضمنتها النتائج التي توصلت اليها في هذه الدراسة ، أتبعتها بخارطة تبين حدود الأندلس ومدنها المشهورة في هذه الفترة وبفهارس فنية للأعلام والقبائل والأماكن والقوافي والمصادر والمراجع والموضوعات .

ولا أدعي لهذا البحث الكمال فتلك غاية لاتنال ولا يستطيع بلوغها انسان ، وكل ما أتمناه هو أن تكون هذه الدراسة ذات قيمة علمية تسد ثغرة غفل عنها الدارسون ولم تنل حقها من البحث والدراسة .

وفي الختام لا يسعني الا أن أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة الذي منحني من وقته وعلمه وجهده وحلمه الشيء الكثير والذي رعى هذا البحث مذ كان فكرة على الرغم من ضيق وقته وكثرة مسؤولياته ، فله مني أطيب تحية وأعظم تقدير وأخيرا فانني أرجو أن يكون عذري في تقصيري انني بذلت غاية جهدي .

وما توفيقي الا بالله .

حامد كساب عيساط

الفصـــــــل الأوّل

الحيـاة السياسية والاجتماعيـــــة والفكريـــــة

الفصـــل الاول

الحياة السياسيـــة والاجتماعيـــة والفكريـــة

الحيـاة السياسيـة :

يرجع وجود قبائل المرابطين في الصحراء الى الثلث الاول مـن القرن الثاني الهجري [1] ، أما وجود الدولة كشكيان سياسي فيـــرجع الى القرن الخامس الهجري [2] على يد الامير يحيى بن ابراهيم الجدالي [3] : اذ استقدم الفقيـه عبد الله بن ياسين [4] من المغرب ليفقه قبائـــل الصحراء [5] ، فباشر هذا الفقيه بالتعاون مع أميره يحيى تأسيـــس

---

(١) تاريخ المغرب العربي / ٢٢٥ .

(٢) البيان المغرب ٤/ ٨ .

(٣) يحيى ابراهيم الجدالي ، مؤسس دولة المرابطين ، حج فـي بداية القرن الخامس الهجري ، وفي رجوعه سنة (٤٤٠) هـ قدم القيروان ولقي فيها أبا عمران الفاسي وأخبره أن قبائـــل الصحراء بحاجة الى من يعلمها أمور دينها ، فأرسلـــه أبو عمران الى وجاج بن زلوفي بلاد السوس في جنوب المغرب الاقصى ، فانتدب وجاج لهذه المهمة أحد تلامذتـــه وهو الفقيه عبد الله بن ياسين ليقوم بتعليم قبائل الصحراء ، ت (٤٤٨) هـ . البيان المغرب ٤/ ٧ .

(٤) عبد الله بن ياسين الجزولي ، فقيه عالم رحل الى الاندلـس طالبا للعلم أيام ملوك الطوائف ، ومكث فيها سبعة أعـوام ، ثم رجع الى المغرب وانتظم في مدرسة استاذه وجـــاج ابن زلو ومنها انتدبه ليفقه قبائل الصحراء ، وتوفـــي شهيدا سنة (٤٥٠) هـ . انظر : البيان المغرب ٤/ ١٠-١٢ تاريخ المغرب العربي / ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٥) المغـرب في ذكر بلاد افريقيـا والمغرب / ١٦٣ .

الدولة : فغزا قبيلة لمتونة بقبيلة جدالة - التي كانت أكثر انقيادا له في بداية الأمر - فطوّعها [١] ، ثم أن قبيلة جدالة انتقضت عليه وعزلته [٢] ، فالتجأ الى قبيلة لمتونة ، ثم ذهب الى استاذه وجاج بن زلو [٣] في - المغرب الاقصى - وأخبره بما حدث له مع جدالة [٤] ، وقيل انه لم يذهب اليه وانما بعث اليه بالخبر وارتحل الى احدى جزر البحر المحيط عند مصب نهر السنغال بقصد الانقطاع للعبادة يرافقه اميره يحيى بن ابراهيم ونفر قليل ممن حسن اسلامهم [٥] ، فكاتب وجاج بن زلو أمراء جدالة وعاتبهم على ما بدر منهم تجاه الفقيه عبد الله بن ياسين وأخبرهم أن من خالفه " قد فارق الجماعة " [٦] فاعتذروا اليه عما بدر منهم . [٧]

وفي رباط السنغال بدأ عبد الله بن ياسين باعداد الرجال الذين توافدوا عليه مجددين اسلامهم ، فتجمّع لديه ألف رجل

---

(١) البيان المغرب ٤ / ٨ .

(٢) البيان المغرب ٤ / ٩ .

(٣) وجّاج بن زلّو اللمطي الصنهاجي ، رحل الى القيروان ودرس على أبي عمران الفاسي ثم عاد الى السوس وأسس مدرسة لتعليم العلوم الدينية .
انظر : تاريخ المغرب العربي / ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٤) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب / ١٦٦ .

(٥) وانظر : تاريخ المغرب العربي / ٢٢٧ .

(٦) البيان المغرب ٤ / ٩ .

(٧) المصدر نفسه .

سماهم المرابطين [1] وأمرهم بالخروج الى قبائلهم يستتيبونهم ، ولما لم يرجعوا جاهدهم حتى أسلموا من جديد [2] وأقام فيهم أمر الدين والشريعة [3] ، ثم بدأ بالجهاد في بلاد السودان [4] ، فأسلم منهم خلق كثير [5] ، ثم رجع بحركة الجهاد الى المغرب فطهره من غلاة الشيعة [6] وبرغواطة [7] التي استمر في جهادها حتى استشهد سنة (٤٥٠) هـ [8] بعد أن فتح معظم بلاد المغرب [9] ، وواصل الامير أبو بكر بن عمر الجهاد بعده [10] حتى بلغه انتقاض أمر الصحراء سنة (٤٥٣) هـ ، فتوجه بقسم من الجيش اليها لاصلاح أمرها وترك ابن عمه يوسف بن تاشفين يكمل حركة الجهاد في المغرب [11] ، فافتتحه ووحدة بعد ان كان مقسما

---

(١) تاريخ المغرب العربي / ٢٢٨ .
(٢) المؤنس / ١٠٦
(٣) تاريخ المغرب العربي / ٢٢٨ .
(٤) المقصود بالسودان هنا السودان الغربي . الاستقصا ٢ / ١٤
(٥) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب / ١٦٦
(٦) المؤنس / ١٠٦
(٧) المؤنس / ١٠٧ ، انظر : الاستقصا ٢ / ١٨ - ١٩
(٨) انظر : البيان المغرب ٤ / ١٦ - ١٧
(٩) البيان المغرب ٤ / ١٢
(١٠) البيان المغرب ٤ / ١٥ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٢٩ .
(١١) البيان المغرب ٤ / ٢١

الى امارات وطوائف كثيرة [1] ، وبذلك نشأت في المغرب دولة قوية مبدؤها الجهاد . [2]

وقد امتدت حدود هذه الدولة قبيل دخولها الأندلس من البحر المتوسط الى بلاد القبلة [3] ومن البحر المحيط في المغرب حتى افريقيا التي استولوا عليها من يد خلفاء مصر الفاطميين سنة (٤٧٢) هـ [4] .

وقد كانت الحياة السياسية لدى دولة المرابطين متأثرة بالاحداث التي مرت بها الدولة ، فكان لها تداخلاتها مع غيرها من سياسات الأطراف الاخرى في الأندلس وفي المغرب وفي الصحراء وفي جميع انحاء العالم الاسلامي بشكل عام : فمن الملاحظ أن جميع دول العالم الاسلامي قد اصطدمت في أواخر القرن الخامس الهجرى بالنصارى الصليبيين في وقت متقارب : فاستولى النورمانديون على المهدية وزويلة من أيدي الصنهاجيين في افريقية سنة (٤٧٦)هـ [5] واستولى

---

(١) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٣ .

(٢) لمعرفة المزيد عن بداية دولة المرابطين انظر : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب / ١٦٤ — ١٧٣ ، المؤنس / ١٠٣ — ١٠٦ ، البيان المغرب ٤/٧ — ٢١ ، تاريخ المغرب العربي ٢٢٨/٢٢٥ — ٢٦٥ ، الأنيس المطرب / ١١٩ — ١٣٣ ، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٧٣ — ٣٧٧ ، الكامل ٩/ ٦١٨ — ٦٢٣ ، صبح الأعشى ٥/ ١٨٨ — ١٩٠ ، الحلل الموشية / ١٧ — ٢٣ .

(٣) بلاد القبلة هي المنطقة الواقعة بين سجلماسة ووادي الذهب من بلاد السودان . الأنيس المطرب / ١٥٧

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٨١

(٥) انظر : المؤنس / ٩٢ — ٩٣ .

الصليبيون كذلك على أنطاكيه سنه (٤٩١) هـ[1] وعلى بيت المقدس سنة (٤٩٢) هـ[2] وأجزاء كثيرة من بلاد الشام [3] ، واستولى الفونسو السادس [4] على طليطلة قبل ذلك سنة (٤٧٨) هـ [5] ، واحتل السيد الكمبيطور [6] بلنسية سنة (٤٨٥) هـ [7] ، وقد كان للمرابطين نصيب كبير في التصدي للنصارى الصليبيين آنذاك .

وقد كان العالم الاسلامي في تلك الفترة منقسما على نفسه سياسيا ومذهبيا : ففي مصر خلافة الفاطميين الشيعية على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنيّة [8] ، كما أن سلطنة السلاجقة هي الأخرى انقسمت الى دويلات يحكم كل منها أمير مستقل [9] ، ولقد كان هذا التفرق والانقسام سببا في نجاح الحملة الصليبية الأولى على المشرق الاسلامي آنذاك ، كما أن بعض الجهات لم تكن المتورع عن التحالف مع النصارى الصليبيين نظير الجزية [10] . كما تعرضت افريقيا لهجمات قبائل بني هلال وبني سليم اللتان عاثتا

---

(١) انظر : العبر في خبر من غبر ٣ / ٣٢٨ — ٣٣٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ٥ / ١٤٨ .
(٣) انظر : تاريخ ابن خلدون ٥ / ٤٣ — ٤٤ ، الكامل ١٠ / ٣٦٥ ، العبر في خبر من غبر ٣ / ٣٣٨ ، النجوم الزاهرة ٥ / ١٥٩
(٤) هو الفونسو بن فرذلند ، ملك قشتالة ، ت (٥٠١) هـ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٥٩ .
(٥) أنظر : الذخيرة ق ٤ م ١ / ١٦٣ — ١٦٩
(٦) هو " رودريجو دياز دى بيفار " ، دخل في خدمة الفونسو السادس ثم انفصل عنه واستولى على بلنسية سنة (٤٨٦) هـ . انظر : تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٠٣ — ٢٠٥ .
(٧) انظر : البيان المغرب ٣ / ٣٠٥ — ٣٠٧ ، ٤ / ٣١ .
(٨) انظر المؤنس / ٦٩ ، ٨٣ .
(٩) انظر الكامل ١٠ / ٣٢٩ — ٣٣٥ ، ٣٥٨
(١٠) البيان المغرب / ٢٢٨ .

فيها تخريبا وتدميرا بتحريض من المستنصر بالله الفاطمي جـزاء على قطع المعز بن باديس الصنهاجي أمير أفريقيا خطبة الفاطميين وخلعه طاعتهم وخطبته لبني العباس سنة (٤٤٤) هـ (١).

أما الأندلس فقد تفرقت الى امارات عديدة تسمى امارات الطوائف، وذلك لضعف السلطة المركزية في قرطبة وتلاشيها بعد ذلك (٢)، ولم تكن الحدود السياسية واضحة بين هذه الامارات من جهة والنصارى الصليبيين من جهة أخرى، لطمع الأخيرين في الاستيلاء عليها لضعفها وتفرقها . كما أن هذه الحدود لم تكن واضحة أيضا بين تلك الامارات نفسها لطمع كل أمير بامارة جاره (٣)، ورغم ضعف هؤلاء الملوك وخضوعهم لملوك النصارى فقد كانوا يتخذون ألقاب الخلافة ويخطب لهم على المنابر، ويصف ابن حزم حال الأندلس في هذه الفترة قائلا : انه قد " اجتمع بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد يخطب له بالخلافة .. وتلك فضيحة لم ير مثلها "(٤) وهم في الوقت ذاته " ما بين مجبوب وبربري مجلوب ومجند غير محبوب وغفل ليس في السراة بمحجوب" (٥)، ويقول ابن رشيق (٦) فيهم مزريا بهم :

---

(١) المؤنس / ٨٤
(٢) مذكرات الامير عبد الله / ١٨، الذخيرة ق ١ م ٢ / ١٤٢
(٣) رسائل ابن حزم ٣ / ١٧٣
(٤) انظر : نقط العروس / ٨٣ — ٨٤ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٤٣.
(٥) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٤٤.
(٦) هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، من افاضل البلغاء، له كتب منها "العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه" ت (٤٦٣) هـ . وفيات الاعيان ٢ / ٨٥

ممّا يزهّدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد(١)

وبذلك فقد كانت الاندلس من " الانشقاق .. والافتراق الى حيث لم يذهب كثير من الاقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعبّاد الصليب " (٢) بل ان الاختلاف لازم هؤلاء الامراء والملوك في أكثر الظروف تطلّباً للوحدة : فقد دب الخلاف بينهم وهم يحاصرون العدو في حصن لييط سنة (٤٨٢) هـ مع يوسف بن تاشفين مما تسبب في افشال فتحه ، في حين كانت جيوش النصارى في الأندلس متعاونة رغم انها من امارات متعددة ، فتغلبوا على المسلمين ، ونشطوا في استرجاع البلاد " واستضافة الممالك وافتتاح القلاع والاستيلاء على الثغور " (٤) .

ومن الغريب أن تساقط ثغور الأندلس لم يحرك ملوك الطوائف بل استغرقوا في ترفهم ولهوهم ، وغدت الحدود بين اماراتهم أكبر مشكلة تواجههم ، وبالغوا في مسايرة أعدائهم : يوادعونهم ويعاهدونهم على أداء الجزية ويتوددون اليهم ويتعطون اماناتهم (٥) ، كما بالغوا في الاستسلام والتواكل رغم خسارتهم كل شيء متعللين بقرب الفرج فـ " من هنا الى أن تتم الاموال (٦) وتهلك الرعايا يأتي الله

---

(١) الذخيرة ق ٤ م ١ / ١٧٢
(٢) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٤٤ .
(٣) الحلة السيراء ٢ / ٢٤٤
(٤) انظر : تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٧٨ ، ١٩٥ ، ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٥) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٥٢ ، وانظر : البيان المغرب ٣ / ٢٧٨ ، ٢٨٢
(٦) تتم الأموال : تنفذ الأموال

بالفرج وينصر المسلمين " [١]. ولقد كان النصارى الصليبيون يحطون على ادامة النزاع والتفرق بين ملوك الطوائف فكان الفونسو السادس "يكسّر رؤوس بعضهم ببعض" [٢]، زيادة على ما هم عليه من " التخاذل والتواكل واهمال الرعية والاخلاد الى الراحة " [٣] وعدم الشعور بالخطر الداهم لهم من قبل أعدائهم بل أن عبد الله بن بلقين [٤] يعترف في مذكراته بأنه قد أخبر قائد الفونسو السادس – وقد حضر لتحصيل الجزية – بعدم ارتباطه بغيره من جيرانه من ملوك الطوائف قائلا : " من له حاجة من سائر السلاطين يقابل أموركم حسب مقدرته ان شاء بغداء أو قتال لا نتكلم نحن في شيء من هذا . . فشأنكم وأنا بريء، لا أغمس في ذلك يدا ولا لسانا " [٥]، واذا كان ابن بلقين قد تنصّل من اعانة اخوانه من ملوك الطوائف فان أمراء آخرين قد اعانوا النصارى على اخوانهم كابن ذي النون وابن عمّار والمعتمد بن عباد . [٦]

ولقد تفنن النصارى في جباية الأموال من ملوك الطوائف [٧] وفي الوقت ذاته أمعن هؤلاء في جبايتها من رعاياهم حتى افتقروا [٨]، ولقد

---

(١) مذكرات الأمير عبدالله / ١٣
(٢) مذكرات الامير عبد الله / ٧٣
(٣) الحلل الموشّية / ٤٣
(٤) عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجي آخر ملوك بني زيرى في غرناطة أيام ملوك الطوائف ت (٤٨٣)هـ انظر : الاحاطة ٣ / ٣٧٩ – ٣٨١ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٤٤ .
(٥) انظر : مذكرات الامير عبد الله / ١٢٦ – ١٢٧
(٦) انظر : مذكرات الامير عبدالله / ٦٩ – ٧٠ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٨١ .
(٧) انظر : مذكرات الامير عبد الله / ١٢٣ – ١٢٩
(٨) رسائل ابن حزم ٣ / ١٧٣

رضي ملوك الطوائف أن يدفعوا الجزية وأن يبدوا الخضوع لملـــوك النصارى أول الأمر ، ولكن لما لم يعد الجزية والخضوع كافيين لإرضاء هؤلاء كان ملوك الطوائف قد فقدوا القدرة على الاتحاد والدفـاع عن انفسهم وإماراتهم ، فسقطت طليطلة سنة (٤٧٨) هـ بسهولـة[١] — وهي قلب الجزيرة [٢] ، فكان سقوطها خسارة مادية ومعنوية بثـت في نفوس أهل الجزيرة الخوف واليأس حتى دعا ابن العسّال [٣] الـى تركها والرحيل عنها قائلا :

يا أهلَ أندلس حثّوا رحالكمُ	فما المقام فيها إلّا مِنَ الغلـط
الثوب ينسلُ مِنْ أطرافه وأرى	ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوسـط
مَنْ جاورَ الشرَّ لم يأمن عواقبَه	كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سفـطِ[٤]

ولما لم يجد الفونسو السادس عناء في احتلال طليطلة فقـد حاول أن يقتطع أجزاء من مملكة ابن عباد فمال عليه " يخضـل شوكتـه ويخطب مملكته ويطرق حماه[٥] ، فتنبّه شعور ملوك الطوائف نحو المرابطين من التخوّف منهم على ملكهم الى فكرة الاستنجاد بهم لدفع النصـارى الصليبيين عن الجزيرة ، وشعر المعتمد بالخطأ الذي ارتكبـه بمصانعته للفونسو وقال : " ونسأل الله .. المغفرة فيما أتيناه فـي أنفسنا (وفي المسلمين) من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهـم "[٦] ،

---

(١) انظر : الذخيرة ق ٤ م ١ / ١٦٣ — ١٦٩

(٢) نفح الطيب ١ / ١٩٠

(٣) أبو محمد عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي يعرف بابن العسال من أهل طليطلة ، كان له مجلس حفيل يقرأ عليه فيه التفسيـر. ت (٤٨٧) هـ . الصلة ٢ / ٢٧٦ .

(٤) ازدهار الرياض ١ / ٤٦

(٥) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٢٤ .

(٦) الحلل الموشيّة / ٤١

أرسل الرسل الى المغرب مستصرخا يوسف بن تاشفين [١] ، فأجاب ابن تاشفين صريخ المسلمين واشترط على المعتمد أن ينزل له عن الجزيرة الخضراء لتكون منزل جيوشه ومستودع عتاده ، فقبل المعتمد ذلك ، الا انه تباطأ باخلائها ، ويعلل ابن بلقين ذلك برغبة المعتمد في ارهاب الفونسو بقدوم المرابطين فان أجاب ورجع صالحه على الجزية ومنع المرابطين من القدوم الى الاندلس [٢] . الا أن جيوش المرابطين دخلت الاندلس ، فكانت معركة الزلاقة التي انتصر فيها المسلمون بفضل ثبات جيوش المرابطين اذ " لم يكن لرؤساء الاندلس الذين شهدوا الزلاقة .. أمر يشكر فيفيد عنهم ويؤثر الا ابن عباد وطائفة من جيشه " [٣] . وتأتي أهمية هذه المعركة في انها رفعت معنويات أهل الاندلس وبعثت هممهم بعد سقوط طليطلة (٤٧٨) هـ بسنة واحدة ، الا ان المرابطين لم يستغلوا هذا النصر الذي أحرزته جيوشهم ، فقد رجع يوسف بن تاشفين الى المغرب بعد المعركة مباشرة [٤] لوفاة خليفته في مراكش ، وترك سير بن أبي بكر [٥] قائدا لجيوش المرابطين في الاندلس [٦] ، مما يدل على نيته على مواصلة الجهاد وحماية الاندلس .

---

(١) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٥ .
(٢) انظر : مذكرات الأمير عبد الله / ١٠٢ — ١٠٣ .
(٣) الانيس المطرب / ١٥١ .
(٤) البيان المغرب ٤ / ١٤٠ .
(٥) سير بن أبي بكر ، قائد جيوش المرابطين في الاندلس بعد الزلاقة وظل على ذلك حتى أيام علي بن يوسف اذ اصبح واليا لاشبيلية ت (٥٠٧) هـ . الانيس المطرب / ١٦٢ .
(٦) تاريخ المغرب العربي / ٢٢٤ .

وبسبب عدم استغلال نصر الزلاقة فقد أتيحت الفرصة للنصارى الصليبيين لتجميع قواتهم ، فاستقبل الفونسو جموع الفرسان والمحاربين القادمين من مختلف أنحاء أوروبا بالمساعدة على المسلمين [١] ، فبدأ يشدد على حصن اسلامي آخر هو حصن لييط [٢] المقابل لامارة ابن عباد ، فشحنه بالرجال والخيل وأمرهم أن يدخلوا في أرض ابن عباد : فكانوا يقتلون ويأسرون " جعلوا ذلك وظيفة عليهم " [٣] ، فجاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس وحاصر الحصن سنة (٤٨١) هـ ، الا أن ملوك الطوائف لم يتعاونوا معه [٤] ، بل دب الخلاف بينهم : فكل يشكو من جاره ويكيد له [٥] ، فرفع يوسف بن تاشفين الحصار عن الحصن ، ونصح أمراء الطوائف قائلا : " أصلحوا نياتكم تكفوا عدوّكم " [٦] ، ثم رجع الى المغرب وقد اطلع عيانا على اختلاف كلمة أولئك الأمراء ، ويصف ابن بلقين هذه الغزوة بأنها " سفرة أخرج الله بها أضغان سلاطين الأندلس " [٧] ، كما أدرك المرابطون منها أن الخطر على الأندلس لم يكن خطرا خارجيا فحسب وانما هناك خطر داخلي يمكن أن يضيع الاندلس نهائيا : اذ لم يكن أولئك الملوك يحسنون الدفاع عن الأندلس

---

(١) نظم الجمان / ٢٠ .
(٢) حصن لييط أحد حصون شرق الأندلس من اعمال لورقة ، بينه وبينها اثنا عشر ميلا . انظر : الحلة السيراء ٢ / ٨٥ — ٨٦ ، ١٧٥ .
(٣) الانيس المطرب / ١٥٢ .
(٤) الانيس المطرب / ١٥٣ .
(٥) انظر : مذكرات الامير عبد الله / ١١٢ — ١١٣ .
(٦) مذكرات الامير عبد الله / ١٢٢ .
(٧) مذكرات الامير عبد الله / ١٠٩ .

أمام النصارى الصليبيين ،لعدم تكافؤ القوى بين الطرفين [1] ولاشتداد التنازع فيما بينهم ،ولا ثقالهم على رعاياهم بالضرائب . ولقد كان هدف المرابطين هو استنقاذ أرض المسلمين من ايدي النصارى الصليبيين لاسيما وأن أجزاء منها قد ضاعت بسبب غفلة هؤلاء الملوك واهمالهم أمر الجهاد وايثارهم الراحة ،اذ لم يكن هم أحدهم – كما يقول يوسف ابن تاشفين : " الا كأس يشربها وقينة تسمعه ولهو يقطع به أيامه " [2] ، في حين كانت الاندلس بالنسبة للمرابطين ميدان جهاد وموطن رباط ، فرأى المرابطون أن من الضروري خلع ملوك الطوائف ،وذلك للتفرغ لمجاهدة الاعداء الخارجيين ،فاسقطتهم جيوشهم بادئة بصاحب غرناطة (٤٨٣) هـ الذي كان يعاقد الفونسو السادس [3] ،ثم بصاحب مالقة (٤٨٣)هـ [4] ، ثم توجهت جيوش المرابطين الى المرية [5] ،ثم فتحت قرطبة (٤٨٤) هـ [6] ، وحاصرت اشبيلية التي تحصنت وامتنعت عليها [7] الا أن جيش المرابطين دخل المدينة وألقي القبض على ابن عباد وسيق الى أغمات بعد ذلك [8] .
ثم توجه قسم كبير من جيوش المرابطين الى شرق الاندلس ، وكان ملوك

---

(١) الوثائق السياسية / ٦٥ .
(٢) المعجب / ٢٢٦ .
(٣) انظر : مذكرات الأمير عبد الله / ١٥٤ – ١٥٧ .
(٤) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٣٦ .
(٥) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٩١ .
(٦) مذكرات الأمير عبد الله / ١٧٠ .
(٧) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٦٤ .
(٨) مذكرات الأمير عبد الله / ١٧١ .

هذه الجهة قد اتحدوا بمعونة النصارى لمقاومة المرابطين [1]، إلا أن ذلك لم يغن عنهم شيئا ، فسقطت مدن شرق الأندلس تباعا ، وسقطت امارات الطوائف فيها ، كما توجه قسم آخر من جيوش المرابطين الى غرب الاندلس، فاستولى على بطليوس التي أبدت مقاومة شديدة للمرابطين كما استنجد أميرها ابن الافطس [2] بالنصارى [3] ، فمالت الرعية عنه واستصرخت المرابطين ، فدخلتها جيوشهم وقضت على ابن الافطس سنة (٤٨٧) هـ [4] كما استولت جيوش المرابطين على الجزائر الشرقية سنة (٤٨٧)هـ [5] . ولم يتعرض المرابطون ابني هود بل أقروهم على امارتهم بسرقسطة ، ليكونوا حاجزا بينهم وبين النصارى [6] .

وبسقوط امارات الطوائف خلص الامر للمرابطين في الاندلس، ووحدت العدوتان تحت امرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . ولقد كان التخلص من هؤلاء الامراء والملوك أمنية لغالبية أهل الاندلس، وإن كان الامر غير ذلك عند بعض المؤرخين والشعراء الذين أخذوا

---

(١) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٧ .

(٢) عمر بن محمد بن عبد الله بن مسلمة بن الافطس التجيبي ، أمير بطليوس . ت (٤٨٧) هـ . انظر : الحلة السيراء ٢ / ٩٦ — ١٠٧ .

(٣) مذكرات الامير عبد الله / ١٧٣ .

(٤) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٨٦ .

(٥) الجزائر الشرقية (جزر البليار) : وهي ميورقة ومنورقة ويابسة . الروض المعطار / ٥٦٧ .

(٦) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٧٣ .

على يوسف بن تاشفين خلعه لبعض هؤلاء الأمراء والملوك (المعتمد ابن عباد الذي خص دون غيره من زملائه المخلوعين بالعطف والتحسر مع انه لقي من يوسف بن تاشفين - الذي لم يكن يعاقب بأكثر من الاعتقال الطويل [1] - كل رعاية كغيره من ملوك الطوائف[2]

وفي هذه المرحلة الانتقالية زاد طمع بعض الفرسان الصليبيين بثغور المسلمين فحاصر السيد الكمبيطور مدينة بلنسية سنة (٤٨٥) هـ [3]، بعد أن أعد العدة لذلك ، فصمد أهل المدينة له واستنجدوا بجيوش المرابطين ، فاستبشر أهل بلنسية " واستنشقوا ريح الحياة" [4]، الا أن السيد استنجد بالفونسو السادس ، وشاع الخبر بين المسلمين ، فوجست النفوس واشرأبت خوفة القلوب " [5]، ثم ان جيوش السيد كرّت على المرابطين وهزمتها ، فأسقط في أيدي أهل بلنسية " ويئسوا من الحياة " [6] وضاقت النفوس وهلك أكثر الناس جوعا [7]، وبعث السيد بالهدايا من الغنائم التي حازها من جيش المرابطين الى الفونسو السادس الذي كان في طريقه اليه لاعانته ، ثم دخل المدينة بالمكر والخديعة " اذ عقد عليه قاضي المدينة ابن الجحاف [8] العقود

---

(١) البيان المغرب ٤/ ٤٦٠

(٢) مذكرات الأمير عبد الله / ١٦٠ .

(٣) انظر : البيان المغرب ٣/ ٣٠٥ ، ٤/ ٣٤ .

(٤) البيان المغرب ٤/ ٣٣ .

(٥) البيان المغرب ٤/ ٣٥ .

(٦) البيان المغرب ٤/ ٣٣ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) أبو احمد جعفر بن جحاف بن عبد الله بن جحّاف المعافري البلنسي . قاضي المدينة . قدّمه أهلها بعد مقتل ابن ذي النون ، وأحرقه الكمبيطور بعد احتلال بلنسية سنة (٤٨٨) هـ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٠٣ .

وأخذ عليه المواثيق ، وبلغ في ذلك الغاية التي ما بعدها غاية ولا وراءها لمجتهد نهاية "[1] ، كما وعد القاضي بتملك المدينة [2] الا انه نكث مواثيقه : فشق القاضي وأهله وقرابته ، واستصفى أموالهم ، ثم قتل القاضي حرقا [3] ، ومنع أهل المدينة من مغادرتها ، " فلم يقدم أحد على التحرك ولا حدث نفسه بالتحول "[4] ، وزاد في الانتقام من أهل المدينة ؛ فجعلهم " بالمحنة أسوة يأخذ الناس على طبقاتهم ، وجد في حرق من خرج من المدينة لئلا يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الاغنياء ، فهان على الناس الاحراق بالنار ، فبسط فيهم بالقتل ، وعلق جثثهم على صوامع الارباض وبواسق الاشجار " [5] ، وفي سنة (٤٩٥) هـ أعادت جيوش المرابطين الكرة على المدينة وذلك بعد وفاة السيد — وشددت عليها الحصار ، فاستنجدت خليفة السيد (وهي زوجته شيمانة) بالفونسو السادس ، وعاثت جيوشها في المدينة : فقتل كل من يملك السلاح ف" من وجد عنده شيء من آلات الحديد فماله ودمه حلال . . فبرئ الناس منه حتى من الابر والمسامير " [6] ، وثبت المرابطون لجيوش خليفة السيد ، فهزموها ، ولكنها لم تغادر المدينة الا وقد أحرقتها [7] ، وباستعادة بلنسية

---

(١) البيان المغرب ٤ / ٣٢ .
(٢) انظر : البيان المغرب ٤ / ٣١ — ٣٢ .
(٣) انظر : البيان المغرب ٤ / ٣٧ — ٣٨ .
(٤) البيان المغرب ٤ / ٣٣ .
(٥) انظر : البيان المغرب ٤ / ٣٧ — ٣٨ .
(٦) البيان المغرب ٤ / ٤٠ .
(٧) الذخيرة ق ١٢٣ / ٩٥ ، البيان المغرب ٤ / ٤٢ .

استمد ثغر اسلامي أصبح فيما بعد قاعدة لعمليات الجهاد في شرق الأندلس.

كما نشط الفونسو السادس في هجومه على أرض المسلمين عندما علم بمرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة (٤٩٨) هـ، فتوغل في اشبيلية (١) الا ان الامير علي بن يوسف جاز الى الاندلس سنة (٥٠٠)هـ (٢) فرد النصارى وولي الجهاد، وفي العام التالي (٥٠١)هـ تولى ابو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين أمور الأندلس، "فاطمأنت النفوس وهجدت العيون، فنظر في أسباب الغزو وأحسن الى الجند" (٣) ثم خرج الى جيان (٤) فافتتحها ومكث فيها حتى لحقت به جيوش المسلمين فقصد بها حصن اقليش (٥) فحاصره والتقى فيه بالنصارى بقيادة شانجة بن الفونسو السادس، فدارت الدائرة على النصارى وقتل قائدهم وكان ذلك سنة (٥٠١) هـ (٦).

---

(١) البيان المغرب ٤/٤٥.

(٢) البيان المغرب ٤/٤٨.

(٣) البيان المغرب ٤/٤٩.

(٤) جيان: احدى مدن شرق الأندلس، بينها وبين بياسة عشرون ميلا، وتشتهر بالحرير. الروض المعطار / ١٨٣.

(٥) أقليش: احدى ثغور الأندلس وحصونها، وهي قاعدة شنتمرية. بناها الفتح بن موسى بن ذي النون، وفيها كانت ثورته وظهوره سنة (١٦٠) هـ. الروض المعطار / ٥١.

(٦) البيان المغرب ٤/٤٩.

وفي سنة (٥٠٣) هـ جاز أمير المسلمين علي بن يوسف الى الاندلس مجاهدا ، ففتح مدينة طلبيرة [١]. وفي هذا العام أيضا ساءت سيرة بني هود أمراء سرقسطة بتولي عبد الملك بن المستعين [٢] الذي داخل النصارى واستدعاهم ، فاستدعى أهل سرقسطة المرابطين من بلنسية ، فوقعت بين المسلمين والنصارى معركة حامية قتل فيها قائد المرابطين ، الا أن ذلك لم يمنعهم من دخول المدينة ففر عبد الملك الى بلاد النصارى [٣] .

وفي سنة (٥٠٧) هـ استولى النصارى بمعونة البروفنسيين والبيزيين والجنويين على جزر البليار [٤] كما لحقت بالمسلمين هزائم أخرى ما بين سنتي (٥٠٧ — ٥١٠) هـ قتل فيها خلق كثير من قادة المرابطين وجيوشهم [٥] مما اضطر أمير المسلمين علي بن يوسف الى الجواز الى الاندلس بجيوش المرابطين ومحاصرة قلمرية [٦] سنة (٥١١) هـ [٧] ، كما أمر قائده على البحر [٨] بتعمير الاسطول وغزو النصارى الصليبيين .

---

(١) طلبيرة : احدى ثغور الاندلس الحصينة بينها وبين طليطلة سبعون ميلا . الروض المعطار / ٣٩٥ .

(٢) هو عبد الملك بن المستعين بن هود ، بايعه أهل سرقسطة بعد استشهاد أبيه لكنه داخل النصارى ، فاستدعى أهل المدينة المرابطين سنة (٥٠٣) هـ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٧٥ .

(٣) انظر : تاريخ اسبانيا الاسلامية / ١٧٤ — ١٧٥ .

(٤) نظم الجمان / ٢٠ .

(٥) التكملة ١ / ٢٩ ، البيان المغرب ٤ / ٦١ .

(٦) قلمرية : احدى بلاد البرتغال ، بينها وبين البحر اثنا عشر ميلا ، الروض المعطار / ٤٧١ .

(٧) البيان المغرب ٤ / ٦٤ .

(٨) قائد البحر هو محمد بن ميمون ، وقد كان شديد التمسك بدعوة المرابطين ، البيان المغرب ٤ / ٦٢ ؛ تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٥٦ .

وبعد موت الفونسو السادس سنة (٥٠٢) هـ ظهر في الجانب الصليبي قائد آخر أكثر تحمسا لتحطيم قوة المسلمين وطردهم من الاندلس وهو ابن رذمير الفونسو الأول الملقب بالمحارب[1]، فاحتل سرقسطة.[2] وهي الثغر الاسلامي الذى يرد العدو عن باقي ثغور الاندلس، وقد أكد قاضيها هذه المكانة التي تتمتع بها في رسالة بعث بها الى أبي الطاهر تميم والي الاندلس آنذاك يحضه على انجاد المدينة وفك الحصار عنها قائلا: "أتحسبون يامعشر المرابطين واخواننا في ذات الله المؤمنين، ان سبق على سرقسطة القدر.. انكم تبلعون بعدها ريقا وتجدون في سائر بلاد الاندلس.. مسلكا من النجاة وطريقا! كلا! والله ليسو منكم الكفار عنها جلاء وفرارا وليخرجنكم منها دارا فدارا! فسرقسطة.. هي السد.. والبلد الذى ان استبيح.. استبيحت له أقطار وبلاد"[3]

وقد حاول المرابطون استعادة بعض حصون سرقسطة: فحاصر أبو الطاهر تميم قلعة ايوب[4] بجيش كبير ونشبت بينه وبين النصارى معركة كتندة سنة (٥١٤) هـ فدارت الدائرة على المسلمين وقتل منهم خلق كثير[5].

وبسقوط سرقسطة وما جاورها فتحت الطريق للنصارى الى ثغر اسلامي

---

(١) الانيس المطرب /١٦٣.

(٢) الحلة السيراء ٢/٢٤٨.

(٣) الثغر الاعلى الاندلسي /١٢٥.

(٤) قلعة أيوب: مدينة حصينة بالقرب من مدينة سالم بينهما وبين سرقسطة ثمانية عشر ميلا، الروض المعطار /٤٦٩.

(٥) انظر: المعجم /٣ — ٦.

آخر هو الثغر الشرقي : بلنسية ومرسية الذي أصبح فيما بعد ميدانا للصراع .

وفي عام (٥١٥) هـ ثار أهل قرطبة على المرابطين واخرجوهم من المدينة ، وذلك لخلاف وقع بينهم وبين المرابطين بسبب تعدّي أحد عبيد المرابطين على امرأة من أهل قرطبة ، فأحرقت دور المرابطين ونهبت أموالهم[1] ، فأرسل علي بن يوسف اليهم خطابا يقرّعهم ويهددهم فيه ، ولما لم يرتدعوا جاء اليهم بنفسه وأصلح أمور المدينة[2] .

كما أن المعاهدين النصارى في منطقة غرناطه قد أطمعوا الفونسو المحارب بدخول المدينةوذلك سنة (٥١٩)هـ وأعلموه بعددهم وقوتهم ومناصرتهم له[3] ، فاخترق الاندلس حتى وصل البحر المتوسط مما حدى بابن رشد الى أن يجوز الى مراكش ليلتقي أمير المسلمين ويشرح له ما أصاب المسلمين من جرّاء اكتساح الفونسو المحارب للجزيرة وليطلب منه أن يسوّر مدن الأندلس ويحصنها[4] .

ولما تولى تاشفين بن علي ولاية الاندلس سنة (٥٢٣)هـ قوّى الحصون وسدّ الثغور " وقلّد الأسلحة .. واستكثر من الرماة وعني بالغزو ومباشرة الحرب فهزم الجيوش وتهيبه العدو "[5] وكانت له على النصارى وقائع كثيرة سنة (٥٢٦)هـ[6] وسنة (٥٢٧)هـ[7] .

---

(١) الكامل ١٠/ ٢١١.
(٢) البيان المغرب ٤/ ٦٦.
(٣) انظر : الاحاطة : ١/ ١١٢، ١١٩.
(٤) البيان المغرب ٤/ ٧.
(٥) البيان المغرب ٤/ ٨٠ .
(٦) البيان المغرب ٤/ ٨٥.
(٧) نظم الجمان / ٢٠١ ، الاحاطة ١/ ٤٥٩.

كما حاصر الفونسو المحارب حصن أفراغة[1] سنة (٥٢٨) هـ[2]، وضيّق على المسلمين فيه، فاستنجد المسلمون بالمرابطين وجيوشهم، فأمدهم يحيى بن غانية[3] بالميرة والجيوش وفك الحصار عن المدينة وهزم جيوش النصارى.[4]

ورغم هذه الانتصارات التي حققها المرابطون الاّ أنهم منوا بهزائم كثيرة، نتيجة لتزايد قوة النصارى في شمال الأندلس، وبسبب اشتداد ضغط الموحدين عليهم في المغرب، مما اضطرهم الى استدعاء كبار قاداتهم ومعظم جيوشهم في الأندلس، كما استدعى أمير المسلمين والي الاندلس الأمير تاشفين بن علي سنة (٥٣١) هـ ليدافع عن المغرب[5]، اذ كان الموحدون يقاتلون المرابطين على انهم كفرة[6]: فنعتوهم بالمجسمين والمشبهين[7] والزراجنة[8]، وصدموا المسلمين بعقيدتهم السنيّة التي تمسكوا بها والمتمثلة بمذهب الامام مالك في حين كان دعوة الموحدين تقوم على عصمة الامام.[9]

ولقد بدأت الوقائع تشتد بين المرابطين والموحدين منذ

---

(١) أفراغه : مدينة في شرق الأندلس بالقرب من لاردة وبينهما ثمانية عشر ميلا . الروض المعطار / ٤٨ .

(٢) انظر : البيان المغرب ٤ / ٩١ — ٩٣ .

(٣) ابو زكريا يحيى بن علي بن غانية من قبيلة مسوفة وغانية امه ، وجهه امير المسلمين علي بن يوسف وأخاه محمدا الى الاندلس فكان رجلا مدبرا صالحا شديد الخوف لله فارسا شجاعا ، انظر : المعجب / ٣٤٢ — ٣٤٣ .

(٤) انظر : نظم الجمان / ٢٢٠ — ٢٢٣ .

(٥) نظم الجمان / ٢٣٣ .

(٦) المصدر نفسه ، البيان المغرب ٤ / ٩٦ .

(٧) نظم الجمان / ٨٥ .

(٨) الحلل الموشية / ١١١ ، والزراجنة جمع زرجان والزرجان طائر أسود البطن أبيض الريش ، فالمرابطون بيض الثياب سود القلوب كما يرى الموحدون ، نظم الجمان / ٨٥ .

(٩) عن عقيدة الموحدين انظر : ترتيب المدارك / المقدمة ، نظم الجمان / ٢٨ — ٣٣ ، المعجب / ٢٥٥ — ٢٥٦ ، تاريخ المغرب العربي / ٢٢٦ ، ٢٦٩ — ٢٧٠ ، صبح الاعشى ٥ / ١٣٦ — ١٣٧ .

سنة (٥١٦ هـ)[1] اذ انهزم المرابطون أمام الموحدين ، فانحازت كثير من القبائل لجانب الموحدين[2] وبسبب اشتداد هجماتهم اضطر المرابطون الى تجنيد بعض العناصر النصرانية في جيوشهم في المغرب[3] ، ويبدو هذا الأمر غريبا بالنسبة لدولة اسلامية مجاهدة ، ولا يستبعد ان يكون المقصود بهذه العناصر بعض فئات الصقالبة التي كان يضمها المجتمع الأندلسي والتي كانت تستجلب من بلاد الروم ، ولكن هذا لا يمنع احتمال ان تكون هذه العناصر من نصارى الأندلس اشركوهم في جيوشهم عند اشتداد الخطر على دولتهم .

وبسبب هذه المصاعب التي واجهت دولة المرابطين فقد اتيحت الفرصة لانتقاض أهل الأندلس عليهم ، وذلك لازدياد الشعور بالروح القومية لدى الأندلسيين ورغبتهم في التخلص من تبعيتهم للمغرب[4] ولطمع هؤلاء الثوار بالملك والرياسة ، وبذلك عادت الاندلس امارات وطوائف مرة أخرى[5] : فثار ابن قسي[6] في غرب الأندلس سنة

---

(١) انظر : نظم الجمان / ٨١ — ٨٢ .

(٢) نظم الجمان / ١٢٤ ، البيان المغرب ٤ / ٨٥ .

(٣) البيان المغرب ٤ / ٩٨ .

(٤) نفح الطيب ٣ / ١٩١ .

(٥) الانيس المطرب / ١٧١ .

(٦) انظر : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢٤٨ — ٢٥٢ ، وابن قسّي هو ابو جعفر أحمد بن الحسين بن قسّي ، كان يتظاهر بالتصوف ، ولقب أتباعه بالمريدين ، وهو أول من ثار على المرابطين عند اختلال امرهم في الأندلس . أنظر : الحلة السيراء ٢ / ١٩٧ — ٢٠٢ .

(٥٣٩) هـ ، وفي العام ذاته ثار ابن حمدين [١] في قرطبة [٢] وامتدت الثورة الى مرسية [٣] اذ انتزى بها ابن الحاج اللورقي [٤] كما تلاحقت الهزائم على المرابطين سنة (٥٣٩) هـ فقتل تاشفين [٥] ودب الخلاف بين أمرائهم على السلطة [٦] ، فاستغل النصارى ما حل بالمرابطين من الهزيمة وما حل بالأندلس من التفرق ، فتغلبوا على البلاد وفرضوا الجزية على أهلها مرة أخرى [٧] .

(١) حمدين بن محمد بن أحمد بن حمدين القاضي بقرطبة ، ثار على المرابطين أواخر دولتهم وطردهم من المدينة ، بغية الملتمس / ٢٧٦ .

(٢) الانيس المطرب / ١٧١ .

(٣) انظر : تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٨ — ٢٥٢ .

(٤) ابو الحسن جعفر بن ابراهيم بن احمد المعافري المعروف بابن الحاج من لورقه ، وهو أديب كبير ، المعجم / ٧٠ .

(٥) تاريخ إسبانيا الاسلامية / ٢٦٤ .

(٦) انظر : الحلل الموشية / ١١٩ — ١٢٠ .

(٧) البيان المغرب ٤ / ١٠٣ .

الحيـــــاة الاجتماعيـــــة :

لقد سيطرت على الاندلس قبيل دخول المرابطين لها فئـــات رئيسية ثلاث : العرب والبربر والصقالبة ، فكوّن العرب بعض الامـــارات وكوّن البربر والصقالبة امارات اخرى[1] ، وكانت امارات العرب تتركز فـــي اشبيلية [2] وقرطبـــة[3] وسرقسطـة [4] والمريـة [5] ، بينما كانـــت امارات البربر في غرناطـــة [6] والجزيرة الخضراء[7] ومالقـــــة[8]

---

(١) قلائد العقيان / ٢١٨ .

(٢) اشبيلية : مدينة كبيرة في وسط الاندلس تسمى حمص ، بينهـــا وبين قرطبـة ثمانون ميلا ، معجم البلدان ١/ ١٩٥ ، الــروض المعطار / ٥٨ .

(٣) قرطبـــة : قاعدة الاندلس واحدى المدن الكبيرة فيهـــا ، طولها ثلاثة أميال وعرضها ميل واحد ، وفيها المسجد الجامــع المشهور ، معجم البلدان ٤ / ٣٢٤ ، الروض المعطار / ٤٥٧ .

(٤) سرقسطـة : من قواعد شرق الاندلس المشهورة ، تسمــى المدينة البيضاء لكثرة جصّهـــا والحجارة البيضاء فيهـــا ، سقطت بأيدي النصارى سنة (٥١٢) هـ ، الروض المعطار / ٣١٧ .

(٥) المريّـة : احدى موانئ الاندلس في الجنوب الشرقي ، بنيـــت أيام عبد الرحمن الناصر سنة (٣٤٤) هـ ، وكانت مقر الصناعـات أيام المرابطين ، أنظـر : الروض المعطار / ٥٣٧ – ٥٣٨ .

(٦) غرناطـة وتعرف بغرناطـة اليهود لكثرتهم فيها ، بينهـــا وبين وادي آش أربعون ميلا ، وهي من مدن ألبيـــرة ، الروض المعطار / ٤٥ .

(٧) الجزيرة الخضراء وتسمى جزيرة أم حكيم (وهي جارية طـــارق ابن زياد) وهي أقرب الاندلس الى المغرب ، الروض المعطـــار / ٢٢٣ .

(٨) مالقـة : احدى مدن الاندلس على شاطئ البحر المتوســط بين الجزيرة الخضراء والمريّـة ، معجم البلدان ٥ / ٤٣ ، الروض المعطـار / ٥١٧ .

وطليطلة[1] وبطليوس[2]، أما الصقالبة فكانت اماراتهم في بلنسية[3] ومرسية[4] ودانية[5] وطرطوشة[6] وقد كانت كل فئة في منطقة أو امارة[7]، ويرجع وجود أصول هذه الفئات في الاندلس الى فترات متقدمة عند فتح الأندلس وبعد فتحها، اذ سكن كثير من العرب القيسية واليمانية مختلف نواحي الأندلس[8]. كما وجدنا أن العرب كانوا يشكلون احدى الفئات الرئيسية في الجيش المجاهد، اضافة الى المرابطين والحشم وزناتة[9]، ولم يكن المقصود

---

(١) طليطلة : مركز الأندلس لتوسطها ولقربها من مدنها جميعا، فهي وسط الجزيرة واحد ثغورها التي سقطت مبكرا –(٤٧٨)هـ– في أيدي النصارى، الروض المعطار /٣٩٣.

(٢) بطليوس : من مدن غرب الأندلس الكبرى، تخرج منها علماء كبار كابن السيد البطليوسي، معجم البلدان ١/٤٤٧.

(٣) بلنسية : احدى قواعد شرق الاندلس، وهي مدينة سهلية بينها وبين البحر ثلاثة أميال، وقد كانت ميدانا مهما للجهاد في أيام المرابطين، الروض المعطار /٩٧.

(٤) مرسية : قاعدة تدمير بناها عبد الرحمن بن الحكم، وهي احدى مدن الثغر الشرقي، معجم البلدان ٥/١٠٧، الروض المعطار /٥٣٩.

(٥) دانية : من مدن شرق الاندلس، كانت احدى قواعد الاسطول الاسلامي لحصانتها، كما كانت السفن تبنى فيها ويعاد اصلاحها فيها أيضا، الروض المعطار /٢٣٢.

(٦) طرطوشة : من مدن شرق الأندلس أيضا، تقع الى الشرق من بلنسية، بينهما مائة وعشرة أميال، المغرب في حلى المغرب ٢/٤٢٣، الروض المعطار /٣٩١.

(٧) مذكرات الأمير عبد الله / ١٣٣.

(٨) نفح الطيب ١/٢٩٤.

(٩) نظم الجمان / ١٣، البيان المغرب ٤/٩٤، الحلل الموشية /١٢٣.

بالعرب عرب الأندلس فقط ، اذ أن كثيرا من المتطوعه العرب قد وفدوا من افريقيا بصحبة جيوش الجهاد [1] كما أن بعض العرب من بني هلال ممن تسربوا الى المغرب قد اشتركوا في الجهاد [2] ، فقد استشهد في موقعة اقليش سنة (٥٠١) هـ اعداد كبيرة من الاعيان والعربان " [3] .

وقد سكن البربر الجزيرة منذ الفتح ، وكانوا أكثر عددا من العرب منذ الفتوح الأولى ، وزاد عددهم بعد استقدام المنصور بن أبي عامر لأعداد كبيرة منهم ، لتقوية جيشه أمام النصارى [4] .

وكان الحشم [5] إحدى فئات المجتمع الأندلسي آنذاك ، وتشمل هذه الفئة جماعات عديدة منها : الصقالبة الذين اشتراهم المنصور ابن ابي عامر واستخدمهم في دولته ، وهم الذين خرجوا على السلطة عندما شعروا بضعفها وكونوا بعض الامارات خاصة في شرق الاندلس [6] ومن فئة الحشم كذلك السودان والعبيد حيث كان المرابطون يستعينون بهم في جيوشهم ، فقد وزّع علي بن يوسف سنة (٥٢٣) هـ أعدادا كبيرة منهم على نواحي الاندلس عندما سمع بعزم الفونسو المحارب على اجتياح الأندلس [7] .

---

(١) الأنيس المطرب / ١٦٤ .
(٢) [illegible] / ٦٥ .
(٣) نظم الجمان / ١٠ .
(٤) مذكرات الأمير عبد الله / ١٦ .
(٥) الحشم : هم جموع من قبائل جزولة ولمطة ومسوفة وزناتة استقدمهم يوسف بن تاشفين من الصحراء الى المغرب ثم الى الاندلس ، الحلل الموشية / ٣٣ .
(٦) مذكرات الأمير عبد الله / ١٣٢ .
(٧) نظم الجمان / ١٠٩ .

وكانت الاندلس في عهد المرابطين تضم الكثير من أهل الذمة الذين عاشوا بأمان بين المسلمين بفضل ما يوفره الاسلام لهم من التسامح . ومن أهل الذمة هؤلاء أعداد كبيرة من اليهود (١) واعداد اخرى من النصارى المعاهدين (٢) وقد تعاون هؤلاء مع أهل ملتهم ، خاصة بعد أن نشطت معنوياتهم اثر سقوط بعض الثغور الاسلامية في الاندلس في أيدي النصارى . كما كان لاهل الذمة هؤلاء تصرف في الامور المالية والادارية ، المتعلقة بالمسلمين أيام ملوك الطوائف (٣) فقد استعمل باديس بن حبوس أمير غرناطة — جد عبد الله بن بلقين — كاتبا ووزيرا يهوديا اسمه ابن نغرالة ، وكان هذا الوزير يتصرف في أمور المسلمين ويستبد بها وفي ذلك يقول أبو اسحاق الالبيرى :

ألا قلْ لصنهاجة أجمعين ... بدور الزمان وأسد العرين
لقد زلّ سيدكم زلّة ... تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ... ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الارذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى ... وقد جاز ذاك وما يشعرون
فكم مسلم راهب راغب ... لارذل قرد من المشركين (٤)

---

(١) انظر : تاريخ الاندلس /٧٧ — ٧٨ ، البيان المغرب ٤ / ٤١ .

(٢) انظر: تاريخ اسبانيا الاسلامية ١٥ — ١٨ والنصارى المعاهدون هم النصارى الذين ظلوا على دينهم وعاشوا بين المسلمين ، ومعظمهم في غرناطة وما جاورها .

(٣) رسائل ابن حزم ٣ / ١٧٢ .

(٤) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٣١ .

وقد عمل المرابطون على ابطال هذا الامر وأكّد أمراؤهم ذلك ، ففي رسالة لتاشفين بن علي بعث بها الى أهل بلنسية سنة (٥٣٨) هـ يؤكد عليهم فيها " أمر أهل الذمة الاّ يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين "(١).

ومن الملاحظ أن نفرة واضحة قد نشأت بين الاندلسيين والمغاربة(٢) ، فقام الاندلسيون بثورات أشهرها ثورة قرطبة سنة (٥١٥) هـ ، التي انتهبت فيها دور المرابطين وقتل فيها منهم خلق كثير(٣)، وقد يكون هذا النفور راجعا الى شعور الاندلسيين بسلطة المرابطين على الاندلس وتسييرهم لأمورها وتبعيتها لهم ، كما أن بعض الفئات التابعة للمرابطين كالحشم والعبيد كانت تتستر بلثام المرابطين وتقوم بغصب الناس حقوقهم موهمة انها من لمتونه(٤) وزادت هذه النفرة بين الجانبين حتى أن بعض العلماء الاندلسيين قد ألّفوا مفاضلين بين الاندلس والمغرب ، أو بالأصح متحاملين على المغرب ناسبين الفضل كلّه للأندلس وأهلها ، فمن ذلك أن الشقندى في رسالته في تفضيل أهل الاندلس تحامل فيها على المرابطين وعلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فذكر أن المعتمد أرسل اليه بعد رجوعه الى المغرب اثر معركة الزلاقة ببيتي ابن زيدون :

---

(١) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين / ١١٣ .
(٢) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٣١ .
(٣) انظر : الحلل الموشيّة / ٨٦ — ٨٧ .
(٤) نوازل ابن رشد / ٥٣ .

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنـا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينـا
حالت لفقدكم أيامنا فغـدت
سودا وكانت بكم بيضا ليالينـا

فقال يوسف بن تاشفين : يطلب جواري سودا وبيضا ؟ فقيل له لا يامولانا : ما أراد : أن ليله كان بقربكم نهارا لان ليالي السرور بيض فعاد نهاره ليلا ببعدكم . فقال : والله جيد . اكتبوا له : أن دموعنا تجرى عليه ورؤوسنا توجعنا من بعده . (١)

وهذه القصة لايمكن تصديقها بحال ، اذ الرد على الرسائل السلطانية من مسؤولية الكتّاب ، وهم من مشهوري أدباء الاندلس والمغرب آنذاك ، ثم انه لايعقل أن يكون يوسف جاهلا بالعربية وقد تلمذ لعبد الله بن ياسين وقرأ عليه ، كما أن الفترة التي نشأت فيها العلاقة بين يوسف والمعتمد فترة تتسم بالتوتر والتأزم بسبب ظروف الاندلس ولم تكن تسمح بتبادل مثل هذه العواطف ، زد على ذلك أن من يصدر عن موقف من هذا النوع يكون بعيدا عن الثقة والنزاهة لاسيما وانه يفاضل بين وطنه ووطن آخر ، ثم أن هذا النفور من قبل أهل الاندلس تطور الى موقف عدائي نحو المرابطين ، فكان ذلك سببا في اضعاف حركة الجهاد لديهم .

وقد كان للانغماس في الترف والملذات والابتعاد عن الجهاد خاصة في أيام ملوك الطوائف (٢) الاثر البارز في تراجع المسلمين ،

---

(١) نفح الطيب ٣ / ١٩١ .
(٢) انظر : رسائل ابن حزم ٣ / ٤١ ، ١٧٣ .

لقد أدرك النصارى الصليبيون ضعف هذا الجانب في المجتمع الاندلسي ، فزادوا في تشديدهم على المسلمين ، ويذكر الفونسو السادس انه ما خرّب الديار وهتك الاستار لولا تخاذل ملوك الطوائف وتواكلهم واهمالهم [1] ، وقد أكّد ابن حزم ذلك فأبدى شكواه من تشاغل أهل الاندلس "بدنياهم عن اقامة دينهم .. وبعمارة قصور .. وبجمع أموال .. حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمّة " [2] ويؤكد ابن عبدون ما ذهب اليه ابن حزم اذ يبدو متشائما في تصويره للمجتمع " وبالجملة فان الناس قد فسدت أديانهم .. ولا يصلح هذه الامور الا نبي " [3] . وكان هذا الضعف قد بدأ على أهل الاندلس منذ أواخر الدولة العامرية اذ أبدى الاندلسيون للمنصور بن أبي عامر شكواهم من مشقّة الجهاد ، فقاطعهم على أموال يدفعونها كل عام يقيم بها الأجناد التي استجلبها من صقالبة وسودان [4] ، وازدادت هذه الحالة سوءا أيام ملوك الطوائف كما يؤكد ذلك المعتمد في احدى رسائله ليوسف بن تاشفين مستنجدًا ،إذ لم يعد لأحد من أهل الاندلس" طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ، ولو شاءوا لفعلوا الّا أن الهوان منعهم عن ذلك وقد ساءت الأحوال " [5] ، فركنوا الى الراحة واكتفوا بدفع الجزية للنصارى الصليبيين مستغرقين في ملذاتهم وأهوائهم ، وفي ذلك يقول أبو الحسن بن الجد [6] :

---

(١) الذخيرة ق ٢م١ / ٢٥٤ ، البيان المغرب ٣ / ٢٨٢ ، الحلل الموشية / ٤٣ .

(٢) الرد على ابن النغرالة / ٤٥ .

(٣) ثلاث رسائل في الحسبة / ٦٠ .

(٤) مذكرات الأمير عبد الله / ١٧ .

(٥) الحلل الموشية / ٤٦ .

(٦) من مشاهير بني الجد ،استكتبه ابن عمار أيام خروجه بمرسية ، وقد كان كاتبا مشهورا وله رسائل عديدة . كتب بعد ذلك للمرابطين انظر : الذخيرة ق ٢ م٢ / ٥٥٦ — ٥٦٢ .

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدرٌ
هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح
يحدو به ملهيات الناي والوتر
تلقاه كالفحل محبوداً بمجلسه
له خوار لكن حشوه خور
وحوله كل مغتر وما علموا
أن الذي زخرفت دنياهم غرر (١)

ونتيجة لهذه الحال من التفرق والركون الى الأهواء والملذات فقد ضاعت كثير من المعاقل الاسلامية وكان الاستيلاء على هذه المعاقل مصحوبا باسكان اعداد كبيرة من النصارى(٢) وبتضييق على المسلمين من أجل اجلائهم عنها أو تحويلهم عن دينهم(٣) فعاش أهل الثغور في خوف دائم مما اضطرهم في أحيان كثيرة للصلاة في الحصون دون المساجد (٤) وفي أحيان أخرى الى ترك مواطنهم ، وقد أولى المرابطون هذا الأمر جل عنايتهم ، فطلب علي بن يوسف من والي جزيرة ميروقه سنة (٥١٠) هـ أن يعمل على اعادة السكان الى جزيرتهم — وكانوا قد تعرضوا لغزوات من جانب الامارات الإيطالية وامارات شمال اسبانيا وجنوب فرنسا — قائلا له : " واسع بحسن

---

(١) انظر : الذخيرة ق ٢ م ١/٢٥٦ — ٢٥٧.
(٢) البيان المغرب ٤/٢٨.
(٣) تاريخ الاندلس /١٠٣.
(٤) انظر : نوازل ابن رشد / ٣٢ — ٣٣.

سياستك في استرجاع من خرج .. واجتهد في صرفهم الى أوطانهم حتى يكثر بفضل الله عددهم وينجبر بلدهم "(١).

وقد عمل المرابطون على توفير الظروف الملائمة لأهل الاندلس لمساعدتهم على الثبات في أوطانهم والصمود فيها ، كما عطوا على تكييفهم مع سياستهم الجادة ، فحل الجد محلّ اللهو والترف والجهاد محل التناحر والتسابق على الملذات والأهواء ، فعمّ الأمن أرجاء الاندلس وأصبحت " أيامهم أيام دعة .. ورخاء متصل". (٢)

والملاحظ أن اللهو والترف في الاندلس أيام ملوك الطوائف كانا مقصورين على فئات محدودة هي فئة الأمراء وحاشيتهم من الشعراء والوزراء وفئة الاغنياء ، وبذلك فقد رحبت الرعيّة بقدوم المرابطين الذين خلصوهم من ملوك الطوائف ولم تنجدهم عندما بدأ المرابطون باستنزالهم عن عروشهم ، وبذلك سهل القضاء عليهم ، ويؤكد موقف العامة هذا ماقاله ابن بلقين : " أما الرعيّة .. فبخ بخ ، ذلك ما كانت تبغي ". (٣)

كما كان المجتمع في أحيان كثيرة رقيبا على هؤلاء الأمراء يمنعهم من مداخلة النصارى والتعاون معهم ، وقد عبر بعض الشعراء عن سخطهم على ملوك الطوائف(٤) ، فدعوا الى التصدى لهم والثورة عليهم بسبب سوء تصرفهم في امور الرعية وفي

---

(١) وثائق تاريخية /١٨٥.
(٢) الانيس المطرب /١٦٧ .
(٣) انظر : مذكرات الأمير عبد الله /١٥٠ — ١٥١.
(٤) الحلة السيراء ٢ /٢٤٨.

ذلك يقول السميسر (١) :

لاتنكروا شقّ العصا فعصا النبي شققتم
وجبَ القيام عليكم اذ بالنصارى قمتم (٢)

واذا كانت هذه الفئة من الشعراء قد عبرت عن عدم رضاها عن ملوك الطوائف والسخط عليهم فان فئة أخرى منهم قد عبرت عن سرورها بقدوم المرابطين الى الأندلس ، يقول أبو الحسن بن الجد متهكما بملوك الطوائف ومهددا لهم بيوسف ابن تاشفين (ابو يعقوب) :

ألا قل للذي يرجو مناما بعيدَ بين جنبك والفراش
أبو يعقوب من حدثت عنه فرش سهم المداوة او فراش
اذا نفش القضاء جبال رضوى فكيف تراه يصنع بالفراش (٣)

ان قسما كبيرا من هذه الفئة الاجتماعية قد رحب بالمرابطين في حين كان قسم آخر منها قد أكثر من التأسف والتحسّر على ملوك الطوائف ، وهم بذلك يتحسرون على أنفسهم اذ أصبحوا بلا معيل أو مورد رزق ، فانتابهم الشعور بالقلق والضياع لاسيما وانهم لم يجدوا ما عهدوا لدى ملوك الطوائف عند المرابطين ، وذلك لانشغال هؤلاء عنهم بالجهاد واصلاح أمر الأندلس ، كما أن هؤلاء الشعراء لم يتكيفوا مع الوضع الاجتماعي والسياسي الجديد ، فأكثر هؤلاء الشعراء من الهجاء للمرابطين والحط منهم تصريحا او تلميحا كابن بقي اذ يقول :

---

(١) ابو القاسم خلف بن فرج الإلبيرى ، هجاء مقذع ، وهو من اعلام البيرة . انظر:الذخيرة ق ١ م٢ / ٨٨٢ — ٨٩٦ ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ١٠٠ .

(٢) الذخيرة ق ١ م٢ / ٨٨٥ .

(٣) الذخيرة ق ٣ م١ / ٩٤ .

أقمت فيكم على الإقتار والعدم لو كنت حراً أبي النفس لم أقم
فلا حديقتكم يجنى بها ثمر ولا سحائبكم تنهل بالديم
لا رزق لي عندكم لكن سأطلبه في الأرض إن كانت الارزاق بالقسم (١)

ومن الغريب أن هذه الفئة من الشعراء التي تحاملت على المرابطين لعدم نيلها ما تريد من الرغائب والعطايا هي الفئة ذاتها التي كانت فيما سبق تتهالك على ملوك الطوائف ومجالسهم وتغرق في ملذات قصورهم وتتزلف اليهم وتزين لهم البطالة ، حتى أن أبا بكر الداني شاعر المعتمد بن عباد ذهب الى تبرير ما يدفعه سيده من جزية الى النصارى الصليبيين على انها خدمة للدين وخدعة لأعداء المسلمين قال :

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع
تنيلهم نعماً في طيها نقم سيستضر بها من كان ينتفع
لا يخبط الناس عشواً عند مشكلة فأنت أدرى بما تأتي وما تدع (٢)

ويستدرك ابن بسام على أبيات أبي بكر الداني قائلا : "هذا مدح غرور وشاهد زور وملق سائل" (٣) ، وقد أخذ المرابطون على الشعراء مثل هذه المواقف لتهالكهم على العطايا والأرزاق وابتعادهم عن مبدأ الجهاد الذي حرص المرابطون على الاخذ به .

واذا كانت هذه الفئة من الشعراء لم تنل المكانة التي ترجو فقد كانت فئة أخرى هي فئة الفقهاء إحدى المظاهر الاجتماعية

---

(١) قلائد العقيان / ٢٨٠.
(٢) ديوان ابن اللبانة / ٦٣.
(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٤٩.

البارزة في حياة دولة المرابطين ، وقد زاد دور هؤلاء الفقهاء في أيام هذه الدولة [1] ، صحيح أن للفقهاء دوراً قبل ذلك الآ انه نقص في زمن ملوك الطوائف ولم يعد لسابق عهده الا في أيام دولة المرابطين . [2].

ونتيجة لتعاظم دور الفقهاء ولما أنيط بهم من أمور الدولة فقد كثر حاسدوهم خاصة من الشعراء الذين فقدوا ما كانوا يحظون به زمن ملوك الطوائف ، فتحاملوا عليهم ورموهم بالرياء والمداهنة وغير الحميد من الصفات الاخرى ، وفي ذلك يقول أبو جعفر بن محمد المعروف بابن البني يهجوا الفقهاء :

أهلَ الرياء ابستموا ناموسَكم كالذئب أدلجَ في الظلام العاتم

فملكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموالَ بابن القاسم [3]

---

(١) الحلل الموشية ٢/٢٧٦ .

(٢) المغرب في حلى المغرب ١/٢٣٤ .

(٣) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري ويعرف بابن القاسم ، أحد كبار فقهاء المذهب المالكي ، عرف بالزهد والعلم ، روى عن مالك وعن ابن عيينة وروى عنه أصبغ وسحنون وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى الليثي وابن الماجشون والليث والحارث بن مسكين ، مولده بمصر سنة (١٣٢) هـ ووفاته بها سنة (١٩١) هـ ، له كتاب (المدونة في الفقه) .
انظر : وفيات الأعيان ٣/١٢٩ — ١٣٠ ، العبر في خبر من غبر ١/٣٢٩ ، الديباج المذهب /٤٦٥ .

وركبتموا شهب الدواب بأشهب[1] وبأصبغ[2] ضيفت لكم في العالم[3]

كما هاجمهم غيره من الشعراء[4] . واذا كان كثير من الشعراء قد هجموا الفقهاء لأمور في نفوسهم فإن آخرين قد مدحوهم ووصفوهم بالعدل والصدق وحسن الخلق[5] . وبسبب المكانة العالمية التي تمتنع

---

(١) أبو عمر مسكين بن عبد العزيز بن داوود بن ابراهيم القيسي ، لقبه ، ولد سنة (١٤٠)هـ وهو من أهل مصر ومن الطبقة الوسطى من اصحاب مالك ، وقد روى عنه وعن الليث ، وانتهت اليه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم ، وسئل سحنون عن ابن القاسم وأشهب ايهما أفقه ؟ فقال : " كانا كفرسي رهان " . توفي بمصر سنة (٢٠٤)هـ . الفهرست/١٩٩ ، وانظر : ترتيب المدارك ٣/٢٦٢ — ٢٦٥ ، وانظر : الديباج المذهب/٣٠٧ — ٣٠٨ ، وانظر : تهذيب التهذيب ١/٣٥٩ — ٣٦٠ ، شجرة النور الزكية ١/٥٩ .

(٢) أبو عبد الله أصبغ بن سعيد بن نافع مولى عبد العزيز بن مروان ، سكن الفسطاط ورحل الى المدينة فدخلها يوم وفاة مالك ولم يلقه ، صحب ابن القاسم وابن وهب وأشهب ، وروى عنه البخاري وأبو حاتم الرازي ، وقيل لأشهب : من لنا بعدك ؟ قال : أصبغ ، له تآليف منها : " تفسير غريب الموطأ " و " المزارعة " و " آداب القضاء " و " الرد على أهل الأهواء " ، ولد بعد سنة (١٥٠)هـ وتوفي سنة (٢٢٥)هـ ، ترتيب المدارك ٤/١٧ ، وانظر: الديباج المذهب /٢٢٩ — ٣٠١ ، وانظر : تهذيب التهذيب ١/٣٦١ — ٣٦٢ ، شجرة النور الزكية ١/٦٦ .

(٣) انظر : المعجب /٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٤) انظر : المغرب في حلى المغرب ٢/٢٢٣ ، ٢٢٦ .

(٥) انظر : الذخيرة ق٢ م١/٨٣ ، ق ٢ م ٢/٨١٧ ، وانظر : ديوان ابن خفاجة /٤٠ — ٤١ .

بها الفقهاء فقد أصبحوا ذوي نفوذ كبير في المجتمع ، فاستقل بعضهم بامارة أو مدينة عندما انتقض أمر المرابطين ، كابن حمدين الذي ثار بقرطبة سنة (٥٣٩)هـ [1] .

ولقد كانت للكتّاب منزلة كبيرة [2] فكانوا يرتفعون الى مرتبة الوزراء والفقهاء ، فالكاتب يكتب عن أمير المسلمين ، ويتصرف بالأمور ضمن نطاق السياسة العامة للدولة .

أما القضاء فقد كان موكولا الى اهل الاندلس يختارون قاضيهم من بينهم ، ولم يكن امير المسلمين يتدخل في ذلك ؛ يتضح هذا من رسالة وجهها علي بن يوسف الى احدى النواحي في الاندلس [3] يخبرهم فيها بوصول كتابهم بشأن توليه قاض عليهم " وصلت الينا مراجعتكم عما كنا خاطبناكم فيه من اختيار رجل منكم يصلح لولاية القضاء عندكم ، ووقفنا على اختلافكم في الرجلين المذكورين .. فرأينا التوقف في الأمر حتى يقع اتفاقكم " [4] .

أما المرأة فقد كانت تتمتع بالاحترام والتقدير وتشارك في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والفكرية والادبية . ولكنها كانت تتمتع بمكانة أكبر عند المرابطين ، وذلك طبقا لما يقتضيه المثل الأعلى لدى قبائل الصحراء التي خرج منها المرابطون والبربر بشكل عام [5] ، فقد كان كثير من المرابطين ينتسبون الى امهاتهم ، حتى

---

(١) الاستقصا ٢/ ٧٧.
(٢) نفح الطيب ١/ ٢١٦.
(٣) لم نستطع معرفة الجهة المرسلة اليها الرسالة ولا كاتبها .
(٤) وثائق تاريخية / ١٨٦.
(٥) المعجب /٢٥٣.

ان(ابراهيم بن تعيشت)وابن عائشة قد غلب على كل منهما اسم امه وهما ابنا امير المسلمين يوسف بن تاشفين[1] ، ولاشك أن ظهور القصائد الكثيرة في مدح النساء ورثائهن يدل دلالة واضحة على ما كانت تتمتع به المرأة من مكانة ونفوذ . واذا كان بعض الشعراء قد مدحوا النساء في عهد المرابطين ورثوهن فان بعض النساء كن يشاركن في المجالس الأدبية والعلمية ويتمتعن بحرية التعبير مع الشعراء[2] كالشاعرة المرابطية نزهون بنت الكلاعي[3] ، وأم الكرم بنت صادح[4] وأم العلاء بنت يوسف الحجارية[5] ، ومريم بنت ابراهيم زوجة الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف وممدوحة ابن خفاجة التي يقول فيها :

وكفى احتماءً مكانةٍ وصيانةٍ ... أنّي علقتُ بذمّةٍ من مريم[6]

---

(١) نظم الجمان / ٨٢ ، البيان المغرب ٤ / ٣١ .

(٢) البيان المغرب ٤ / ٥٧ .

(٣) نزهون بنت الكلاعي (القلاعي) شاعرة كثيرة الطرف والنوادر ، بينها وبين الأعمى المخزومي كثير من المهاجيات ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ١٢١ ، وانظر : نفح الطيب ٤ / ٢٩٥ — ٢٩٨ .

(٤) أم الكرم بنت المعتصم بن صادح ، من أهل القرن الخامس ، اعتنى بها والدها فأدبها وعلمها ، فبرعت في الشعر والموشحات . المغرب في حلى المغرب ٢ / ٢٠٢ ، نفح الطيب ٣ / ٣٧١ .

(٥) أم العلاء بنت يوسف الحجارية ، من أديبات القرن الخامس المشهورات ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ٣٨ .

(٦) ديوان ابن خفاجة / ٩٧ .

والحــــــرّة حواء بنت ابراهيم الرابطـي، ممدوحة الأعمى التطيلـــــي وتميمـــة بنت يوسف بن تاشفين [٢] ؛

ويُرجع المراكشي ما أصاب دولة المرابطين من اختلال الـــــى استبداد النساء بأمور الدولة [٣] وسيطرتهن على أولي الأمـــــر بتدبيرهن ودهائهن ، ومن الغريب أن أحدا لم يذكر هذا السبـــب عدا المراكشي بالاضافة الى اشارة سريعة لدى ابن القطّان . [٤]

أما فن الغناء فقد ازدهر في الأندلس في هذه الفترة ، وذلـــك لازدهار فن الموسيقى وظهور عدد من الموسيقيين كابن باجة [٥] الـــذي " أقام سوق الموسيقى " [٦] ، وتلميذه ابن الحمّارة [٧] ، كما كان لظهـــور فني الموشحات والزجل وازدهارهما أثر كبير في تقدم فن الغنــــــاء لأن الموشحات والزجل كانا يغنيان في مجالس خاصة .

---

(١) انظر : ديوان الأعمى التطيلي /١٩ ، ٤٣ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٢٣٢ .

(٢) أم طلحة تميمة بنت يوسف ، كاملة الحسن راجحة العقل مشهـــورة بالأدب ، جذوة الاقتباس /١٧٣ .

(٣) المعجــب /٢٥٣ .

(٤) نظـم الجمــان /٤٦ .

(٥) ابـن باجــة : هو أبو بكر محمد بن الحسين بن باجة بن الصائـــغ التجيبي السرقسطي الفيلسوف صاحب المؤلفـات الشهيـــرة ، ت (٥٣٣) هـ ، وفيات الاعيان ٢/١١٦ ، المغرب في حلـــى المغرب ٢/١١٩ .

(٦) قلائد العقيان /٣٩٨ .

(٧) طبقات الأمم /٦٨ ، وابن الحمّارة هو أبو عامر محمد بن الحمّارة الغرناطي ، برع في علم الألحـان واشتهر عنه انه كان ينظـم الشعـــر ويلحنه ويغني به ، المغرب في حلى المغرب ٢/١٢٠ ، بغيــــة الملتمــس /٥٣٢ .

أما الزراعة فقد كانت لها أهمية كبيرة في الأندلس كما يؤكد ابن عبدون " فالفلاحة هي العمران ، ومنها العيش كلّه والصلاح جلّه "(١)، وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية بشكل عام نتيجة لرفع الضرائب التي كان ملوك الطوائف قد فرضوها على العامة لدفعها جزية لملوك النصارى الصليبيين ، والتي كانت تدفعهم في أحيان كثيرة الى العزوف عن العمل أو تودي بهم الى الافتقار (٢)، ويذكر ابن بلقين أن الرعية قد رحّبت بالمرابطين الذين اكتفوا بما تفرضه الشريعة من الزكاة والعشر (٣).

وقد عرف أهل الأندلس الصناعة في عهد المرابطين فصنعوا الأسلحة، ولهم مصانع لهذا الغرض في اشبيلية والمريّة ، لتوفّر معدن الحديد فيهما ، كما استوردوا الأسلحة من أوروبا لاسيما من مدينة برديل (٤) التي اشتهرت بجودة سيوفها (٥) .

أما التجارة فقد نشطت نشاطا كبيرا ما بين الأندلس والمغرب بعد أن أصبحتا وحدة واحدة ، كما نشطت التجارة بين مدن الأندلس

---

(١) ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة / ٥ .
(٢) الحلل الموشيّة / ٤١ .
(٣) مذكرات الأمير عبد الله / ١٢٠ .
(٤) برديل = بوردو : مدينة كبيرة في بلاد جليقية اشتهرت بصناعة الأسلحة ، الروض المعطار / ٩٠ .
(٥) نفح الطيب ١ / ٢٠٢ .

ذاتها ، لغزارة الإنتاج الزراعي وانتشار الصناعة في الأندلس وحاجتها الى بعض المعادن من المغرب[1] فكان التجار يتجهزون من شاطبة[2] "بالامتعة الى فانه وبلاد السودان وجميع بلاد المغرب"[3]. وقد سلكت التجارة طريقين : طريق المحيط الاطلسي الذي ازدادت أهميته بعد أن أثار بنو هلال فزعا شديدا في الطريق الممتد من أفريقيا (تونس) نحو الجنوب مرورا بسجلماسة ، وقد فر المرابطون الحماية لطرق التجارة هذه ، كما حموا التجارة البحرية ضد غزوات أساطيل الجمهوريات الايطالية والاسطول النورماندي .[4]

ورغم هذا الازدهار الاقتصادي الذي عاشته الأندلس في عهد المرابطين الا انها كانت في أحيان كثيرة تعاني من مجاعات وقحط[5] ، كما كان لحروب المرابطين مع النصارى الصليبيين ومع الموحدين أثر كبير في الحياة الاقتصادية ، فانتقل الى المغرب كثير من أهل الأندلس[6] مما أحدث اختلالا في الأندلس ذاتها وتسبب في تراجع الحياة الاقتصادية فيها .

---

(١) البيان المغرب ٤/١١٨ ، وفيات الأعيان ٧/١١٩ .
(٢) شاطبة : إحدى مدن شرق الأندلس الحصينة ، تقع شرق قرطبة بالقرب من جزيرة شقر ، معجم البلدان ٣/٣٠٩ ، الروض المعطار /٣٣٧ .
(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٥/٥٥٦ .
(٤) انظر : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٣/٢٤٨ — ٢٥٠ .
(٥) انظر : نظم الجمان / ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ .
(٦) انظر : الحلل الموشية /١١٩ — ١٢٠ .

الحياة الفكرية :

يقول دوزي "لقد كان مجيء المرابطين الى الأندلس نذيرا بانقلاب بعيد المدى، إذ دالت دولة الحضارة وقامت الهمجية على انقاضها، أما حسن الادراك فقد قامت محله الخرافات، ذهب التسامح وسيطر التعصب وأصبحت البلاد ترزح تحت نير الفقهاء والقواد، وبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء في دور العلم ومناقشاتهم في الفلسفة ونشيد الشعراء وغناء أهل الموسيقى بدأنا لا نسمع إلا أصوات الفقهاء وصليل السيوف"(١)، لقد كان دوزي مخطأ حين اتهم المرابطين بالجمود والتعصب واعطاء السلطة المطلقة للفقهاء، ذلك أن المرابطين شغلتهم في أول أمرهم فكرة الجهاد، إلا أنهم بعد استقرار الأمن والنظام مالوا الى العلم والأدب والفن. وقد يكون اتهام المرابطين بتراجع الحياة الفكرية في عهدهم مستندا لدى كثير من المستشرقين على بعض المعلومات التي ذكرها مؤرخو دولة الموحدين المتعصبين لها، في حين لم تكن دولة المرابطين تعتمد على الدعاية في سياستها ولم تتخذ مؤرخين خاصين بها، وأمراؤهم أقرب ما يكونون الى الجد والاستقامة وأبعد ما يكونون عن العبث والتمويه والتعصب والشواهد على ذلك كثيرة.(٢)

ومن المستغرب أن يتهم هذا العصر بالجمود والافتقار للحركة الفكرية وهو العصر الذي حفل بكثير من الأعلام في مختلف العلوم والفنون والآداب، اذ كان للاستقرار والأمن أثر واضح في استعادة الحياة الفكرية لسابق عهدها ونشاطها، وهذا ما افتقر اليه عصر ملوك الطوائف،

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين / ٦١.
(٢) الاستقصا ٢/ ١٣٢.

فكان العلماء كثيري التجول لتحصيل معاشهم ولخوفهم في أحيان كثيرة على حياتهم ، مما يضطرهم الى الهجرة من بلد الى آخر طلبا للأمن والسلامة ، فابن السيد [1] مثلا ترك طليطلة الى السهلة ، ولكنه لم يجد فيها الاستقرار ففر الى سرقسطة ونجا بنفسه ، في حين مات أخوه أبو الحسن علي بن السيد في سجن ابن عكاشة صاحب قلعة رباح . [2]

وكان من نتائج اتحاد الاندلس والمغرب تحت إمرة المرابطين أن حصل تمازج حضاري وثقافي بينهما ، فكثر انتقال الأدباء والكتاب الاندلسيين الى المغرب باستدعاء من أمراء المرابطين منذ عهد يوسف ابن تاشفين وفي ذلك يقول المراكشي : " ولم يزل أمير المسلمين .. يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس .. حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك .. " [3] . وعلى الرغم من تبعية الأندلس للمغرب سياسيا وعسكريا الا انها كانت ترفد الدولة بالروافد العلمية والثقافية ، فكان للأندلسيين أثر كبير في تطور الحياة الفكرية في المغرب بعد أن استمادت طرق التجارة نشاطها بين الاندلس والمغرب من جهة والمناطق الجنوبية من جهة اخرى ، حتى أن الطريق الغربي كان يسمى الطريق اللمتوني ، وكان يسلكه – اضافة الى التجار- الراحلون من العلماء القادمون من الاندلس والمغرب لنشر العلم في غرب أفريقيا ، كما قام بالدور نفسه الطريق الاخر المار بسجلماسة . [4]

---

(١) ابن السيد : ابو محمد عبدالله بن السيد نحوي لغوي ، أديب فيلسوف ، كان أحد اقطاب الحركة الفكرية في الاندلس في عهد المرابطين ت (٥٢٠) هـ. المغرب في حلى المغرب ١/ ٣٨٥ ، بغية الوعاة ٢/ ٥٥ .

(٢) الحلة السيراء ٢/ ١٧٨ ، المعجب / ٢٣٧ .

(٣) المعجب / ٢٣٧ .

(٤) انظر : معاهد العلم / ٥٤ – ٥٥ .

ولقد كانت الرحلة العلمية مظهرا من مظاهر الحياة الفكرية في عهد المرابطين فكثر الراحلون الى المشرق الاسلامي من أجل لقاء المشاهير من العلماء ، وذلك لاكمال " دورة الدراسة " وتوثيقها ، فكان الراحلون يرتادون مراكز العلم في مصر والشام والعراق والحجاز ويتلمذون لعلمائها ، ويذكر ابن السيد أهمية لقاء الشيوخ والسماع عنهم ، اذ أن " كثيرا من الناس .. إنما يعوّل على إجازة الشيخ له دون لقائه والضبط عليه ثم يأخذ بعد ذلك علمه من الصحف المسوّدة والكتب التي لا يعلم صحتها من سقمها وربما كانت مخالفة لرواية شيخه فيصحّف الحروف ويبدل الألفاظ وينسب جميع ذلك الى شيخه ظالما له "(1) .

فكان من الراحلين الى المشرق القاضي الفقيه أبو بكر بن العربي (2) ، فلقي الغزالي ت (٥٠٥)هـ وأبا بكر الطرطوشي ت (٥٢٠)هـ — لقيه في بيت المقدس ، ثم لقيه في طريق عودته من الاسكندرية سنة (٤٩٢)هـ (3) ، وأبا عبد الله المازري ت (٥٣٦) (4) ، وأبا بكر الشاشي ت (٥٠٧)هـ ، والتبريزي ت (٥٠٢)هـ واجتمع لديه علماء الأندلس عند عودته الى إشبيلية وقعوده للتدريس فيها (5) ؛ كما ارتحل الى المشرق أبو علي الصدفي سنة (٤٨١)هـ ، فجال فيه ولقي شيوخه ولم يعد الا سنة (٤٩٠)هـ (6) . وكما كانت الرحلة الى خارج الأندلس

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف / ٢٠٢ .

(٢) ابو بكر بن العربي : هو أحمد بن عبدالله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي ت (٥٤٣)هـ ، الصلة ٢ / ٥٥٨ .

(٣) الجانب السياسي من رحلة ابن العربي / ٢٢٨ .

(٤) انظر : العواصم من القواصم / ١٠ — ١٥ .

(٥) انظر : العواصم من القواصم / ٢٣ — ٢٤ .

(٦) انظر : الصلة ١ / ١٤٣ — ١٤٤ .

فقد كان العلماء يرحلون اليها وينتقلون بين مراكزها العلمية ، طلبا للقاء الشيوخ والسماع عنهم ، فدخلها عبد الله بن ياسين طالبا للعلم وذلك قبل استقراره في مدرسة استاذه وجاج بن زلو في منطقة السوس[1] ورحل اليها القاضي عياض[2] سنة (٥٠٧)هـ ، لينهل من علومها وليلقى شيوخها[3] ، وقد كتب أبو الحسين بن الجد عن أمير المسلمين علي بن يوسف موصيا ابن حمدين بهذا القاضي ، " وفلان أعزه الله بتقواه وأعانه على ما انتواه ممن له في العلم حظ وافر ووجه سافر ، وعنده دواوين عقال ، لم تفتح لها على الشيوخ أقفال ، وقصد تلك الحضرة ، ليقيم أود متونها ويماني رمد عيونها "[4] ، وهذا يؤكد دون شك رعاية المرابطين للعلم ورجاله ، ولم تكن هذه التوصية توصية شخصية فحسب بل كانت كذلك توصية علمية . وبفضل اهتمام المرابطين بالحياة الفكرية فقد برز لدينا علماء أعلام لم تكن مهمتهم إلقاء الدروس فحسب بل كانت لهم نظرة في طرق التأليف ومناهج التعليم ، كابن العربي الذي يرى ضرورة تعليم اللغة والشعر أولا ثم الحساب والحديث النبوي وأخيرا القرآن الكريم ، وذلك لتيسير فهمه وإدراك معانيه من قبل الناشئة ، إلا أنه يستدرك قائلا : " وهو لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لاتساعد عليه " .[5]

كما ظهرت الصفة الموسوعية في مؤلفات علماء هذه الفترة وأدبائها[6] ،

---

(١) البيان المغرب ٤ / ١٠ ، الحلل الموشية / ١٩ ، تاريخ المغرب العربي / ٢٣٧ .

(٢) القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ، العالم الفقيه ، تلمذ لعلماء الأندلس وشيوخها ، ألف كتبا كثيرة أكثرها في العلوم الدينية ، ت سنة (٥٥٤)هـ ، المعجم / ٣٠٦ .

(٣) انظر : التعريف بالقاضي عياض / ٦ — ٧ .

(٤) التعريف بالقاضي عياض / ٦ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ١ / ١٠٤١ .

(٦) عارضة الأحوذي ١ / ٦ .

فنجد المقرئ محدثا ونحويا وعالما بالتاريخ والرجال والأخبار .. الـــخ ، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال استعراض مؤلفات هذه الفترة .

وبفضل ازدهار الحياة الفكرية فقد نشطت المعارضات العلميـــة والتي هي " سبيل العلماء المعروفة وطريقتهم المألوفة "(١) ، ويذكـــر ابن السيد أيضا ان " اتباع الناس على آرائهم ليس بواجب ولا فـــرض لاسيما بمن ينزّه نفسه عن أن يكون من أهل التقليد " (٢) ، فرد وآخـــذ ابن العربي على كتابه " شرح سقط الزند " والتي انصب معظمهـــا على الروايــة ، لاختلاف طريق الرواية لديهما : فأبن السيد أخـــذ شعر أبي العلاء عن أبي الفضل الدارمي (٣) في الأندلس ، فـــي حين أخذه ابن العربي في المشرق عن تلميذ آخر لأبي العـــلاء هو التبريزي (٤) ، كما تطرق الرد الى موضوعات أخرى فلسفيــــة وأدبية ولغوية ونحوية (٥) ، وقد شارك آخرون في هذه المعارضـــات فرد ابن خلصة النحوي على ابن السيد منتصرا لابن العربـــي (٦) كما كثرت المعارضات بين ابن السيد وابن باجة الفيلســـوف (٧) ، ورد

---

(١) الانتصــار / ١٠ .

(٢) الانتصــار / ٤٦ .

(٣) أبو الفضل الدرامي البغدادي : هو محمد بن عبد العزيز بـــن الحارث بن اسد بن الليث التميمي عاش بين سنتي (٣٣٨ــ ٤٥٤) هـ ، وهو من بيت علم وأدب ، قدم القيروان من المشرق أيـــام المعز بن باديس ، ثم تركها بسبب فتنة بني هلال فاستقـــر بطليطلـه ، وقعد فيها للتدريس ، الصلة ٢ / ٥٦٦ .

(٤) الانتصــار / ٢١ .

(٥) انظر : الانتصار / ٤٦ ــ ٤٧ ، الحلل في اصلاح الخلل / ٢٧ .

(٦) التكملة ١ / ٤٢٦ .

(٧) سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين / ٨١ .

عبد الله بن علي الرشاطي [1] على القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطيّة وانتصر لنفسه منه بكتاب سماه " إظهار فساد الاعتقاد ببيان سوء الانتقاد " وذلك لما أخذه عليه ابن عطية في كتابه في الأنساب الذي ألّفه [2] . وعارض آخرون كتب المشارقة ، فكتب أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي " الساجعة والغريب " معارضا أبي العلاء في الصاهل والشاحج " ، كما عارضه في " سقط الزند " بكتاب سماه " ثمرة الأدب " وان كان قد اعتذر عن تقصيره عن اللحاق بمرتبة أبي العلاء . [3]

وكانت المجالس الأدبية من مظاهر الحياة الفكرية في عهد المرابطين يجتمع فيها الأدباء والشعراء ، فمن ذلك أن بعض الوشاحين قد اجتمعوا في مجلس أدبي في إشبيليه ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة تأنق فيها ، فلما بدأ الأعمى التطيلي موشحته المشهورة :

ضاحكٌ عنْ جمانْ سافرٌ عنْ بدرِ

خرّق ابن بقي موشحته التي أعدها وتبعه الباقون [4] ، ويذكر ابن عذاري أن الحرّة حواء كانت تدير مجلسا أدبيا يجتمع فيه أكابر الأدباء والشعراء [5] ، وكما ظهرت المجالس الأدبية ظهرت كذلك المجالس العلمية [6] التي يتلقى الدارسون فيها العلم على

---

(١) أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي بن علي بن عبد الله بن علي ابن خلف اللخمي المعروف بالرشاطي ، عالم بالحديث والتاريخ والأدب ، من أهل المريّة ت(٥٤٠)هـ .انظر: الصلة ١/ ٢٨٥—٢٨٦.

(٢) المعجم / ٢٢٨ ، المغرب في حلى المغرب ١ / ٢٤٢.

(٣) التكملة ٢ / ٤٦٨.

(٤) نفح الطيب ٣ / ٤٠٤.

(٥) البيان المغرب ٤ /٥٧.

(٦) انظر : الصلة ١ /١٤١ — ١٤٢.

شيوخهم، وكان أكثرها يعقد في المساجد الجامعة في المدن الكبيرة كقرطبة والمرية واشبيلية وبلنسية .

وقد اهتم أمراء المرابطين بالأدب فاتخذوا وزراءهم وكتابهم من الأدباء حتى اجتمع ليوسف بن تاشفين "ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"(١)، كما اهتم ولاتهم في الأندلس بالأدب والشعر كالزبير بن عمر (٢) وابو اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف الفتح ابن خاقان كتاب القلائد باسمه (٣)، وقد تقرب الشعراء والأدباء اليهم، كما اهتمت كثير من نساء المرابطين بالأدب وكان بعضهن اديبات شاعرات (٤)، وبفضل هذا التشجيع فقد ظهر كثير من الأدباء، منهم : عبد الله بن منتيل الأنصاري وكان أديبا شاعرا خطيبا (٥) وعبد الجبار بن عبد الله المرواني الاديب الشاعر النحوي (٦) وعبد المجيد

---

(١) الصلة ٢ / ٥٣٩ ، المعجب / ٢٣٧ .

(٢) الزبير بن عمر من كبار قادة المرابطين في الأندلس، وأحد وزراء تاشفين بن علي ، وقد اشتهر بكرمه وشجاعته وصلاحه . ولي قرطبة ثم غرناطة ، استشهد في احدى غزواته للنصارى سنة (٥٣٧) هـ ، نظم الجمان / ٢٤٤ ، البيان المغرب ٤ / ٨٧ .
وانظر : المغرب في حلى المغرب ٢ / ١٢٧ – ١٢٨ ، الاحاطة ١ / ٤٥٨ .

(٣) قلائد العقيان / ٢ .

(٤) البيان المغرب ٤ / ٥٧ .

(٥) أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن منتيل الانصاري من أهل سرقسطة ، صهر أبي علي الصدفي ، وكان خطيب بلده ، ت (٥١٥) هـ ، الصلة ١ / ٣٣١ .

(٦) عبد الجبار بن عبد الرحمن بن أحمد .. بن الامير عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ت (٥١٦) هـ ، الصلة ١ / ٣٦١ .

ابن عبدون الأديب الكاتب(١)، كتب للأمير سير بن ابي بكر بن يوسف(٢)، كما ظهر كثير من الأدباء المؤلفين كالفتح بن خاقان (٣) الذي ألف كتابي " قلائد العقيان " و " مطمح الأنفس . . "، وألّف أميّة بن عبد العزيز الداني (٤) كتاب " الحديقة " ناسجا على اسلوب يتيمة الدهر للثعالبي ، وألّف ابن عبد الغفور الكلاعي (٥) " احكام صنعة الكلام" (٦)،

---

(١) أبو محمد عبد المجيد بن عبدون راشي دولة بني الأفطس، استدعاه يوسف بن تاشفين مع من استدعى من أدباء الأندلس، المغرب في حلى المغرب ١ / ٣٧٤ ، المعجب / ٢٢٨.

(٢) المعجب / ٢٢٧.

(٣) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الاشبيلي صاحب القلائد والمطمح ، كان كثير الأسفار والتنقل، توفي قتيلا سنة (٥٣٥) هـ بمدينة مراكش ، المعجم / ٢١٣، وفيات الاعيان ٤ / ٢٣.

(٤) أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز الداني الاشبيلي يعرف بالاديب الحكيم ، قضى آخر أيامه في مصر ، ت (٥٢٠) هـ وقيل (٥٢٨) هـ ، انظر : وفيات الاعيان ١ / ٢٤٣ — ٢٤٧، وانظر : نفح الطيب ٢ / ١٠٥ — ١٠٦.

(٥) أبو القاسم محمد بن عبد الغفور بن محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، من أهل غرب الاندلس أخذ الآداب عن أبيه واللغة عن ابن أبي العافية . وصحب ابن بسام الشنتريني ومن هم في طبقته من الأدباء . ت (٥٣٤) هـ . التكملة ٢ / ٤٦٨، المغرب في حلى المغرب ١ / ٢٤٢.

(٦) حققه محمد رضوان الداية ونشرته دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٦م.

و " الساجعة والغريب " [1] ، كما ألف ابن شرف القيرواني في الاخبار والامثال والآداب [2] وألف السرقسطي " المقامات اللزومية " [3] والف ابن ينق [4] كتاباً في الحماسة ، وكان يحيى بن بقي من مشاهير الادباء في عهد المرابطين ، فكان بارعا في الادب والشعر ، كما ألف بعض الخطب يعارض بها خطب ابن نباته [5] ، ومن كبار الادباء

---

(١) المغرب في حلى المغرب ١/٢٤٢.

(٢) جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني ولد في القيروان سنة (٤٤٤) هـ ورحل مع أهله سنة (٤٤٧) هـ قاصدا الاندلس وذلك بسبب اشتداد فتنة بني هلال ، فاستوطن برجة بناحية المرية . ت (٥٣٤) هـ ، انظر : الصلة ١/١٢٩ — ١٣٠ ، الذخيرة ق ٤ م ١/١٦٩ — ١٧١ ، عنوان الاريب ١/٥٦ .

(٣) أبو طاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي المازني السرقسطي . كان مقدما في اللغة والشعر ، ألف مقاماته الخمسين معارضا الحريري ، واعتمد فيها على شخصيته المكدي . ت (٥٣٨) هـ بقرطبة ، التكملة ٢/٥٥٦ ، وقد حقق مقاماته بدر أحمد ضيف ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب — فرع الاسكندرية سنة (١٩٨٢) .

(٤) أبو عامر محمد بن يحيى بن خليفة بن ينق ، أديب عالم بالعربية والعروض والبلاغة والشعر والطب الذى أخذه عن ابن زهر . ت (٥٤٧) ، التكملة ٢/٤٧٩ .

(٥) أبو بكر يحيى بن بقي أحد كبار الوشاحين والشعراء في عهد المرابطين ت (٥٤٠) هـ ، الإحاطة ٤/٤١٨.

الكتاب ابن أبي الخصال (١)، فقد كان كاتبا بليغا عالما بالاخبار والسير والاشعار، وصفه السيوطي بأنه استاذ الكتابه في وقته ، فقال عنه : " أما الكتابة والنظم فهو امامهما والمتفق عليه والمتحاكم فيهما اليه " (٢) ، وألف ابن بسام كتاب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " مدافعا فيه عن التراث الاندلسي أمام تراث أهل المشرق قائلا : وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري .. غيرة لهذا الأفق الغريب .. ويا ليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان وخص المشرق بالاحسان " (٣) ، وألّف كتبا أخرى في أدب تلك الفترة (٤) ولكنهما لم تصلنا . وألّف الحجاري (٥) كتاب " المسهب " الذي ابتدع فيه طريقة فريدة في التأليف معتمدا على تقسيم الاندلس الى أقاليم . (٦)

---

(١) أبو عبد الله محمد بن مسعود بن ابي الخصال من أهل سقورة سكن قرطبة ، وكان متفننا في الاشعار والعلوم متبحرا في الآداب كاتبا بليغا عالما بالاخبار ومعاني الحديث والسير ت (٥٤٠) هـ . الصلة ٢/٥٥٧ ، جذوة الاقتباس /٢٥٧ .

(٢) بغية الوعاة ٢/٤٣ .

(٣) الذخيرة ق (١م١)/١٢ .

(٤) تاريخ الفكر الاندلسي /٢٨٩ .

(٥) ابو محمد عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجاري ، مؤرخ أندلسي نسبته الى وادي الحجارة ، الف كتاب " المسهب في أخبار المغرب " و " الحديقة " في البديع ، عاش بين سنتي (٤٩٩ ـ ٥٤٩) هـ ، انظر : المغرب في حلى المغرب ٢/٣٥-٣٦ ، كشف الظنون ١/ ٦٤٦ ، ٢/ ١٦٨٥ ، هدية العارفين ١/٤٥٧ .

(٦) الاحاطة ٤/٤٣٥ .

ولقد كان التأثير المشرقي واضحا في مؤلفات هذه الفتـــــرة، فشرحت كثير من مؤلفات علماء المشرق[1]، وألّف آخرون محاكين لهـــــا أو شارحين .[2]

أما الشعر فقد رمي هو الآخر بتهمة الضعف حينا والتحجـــر حينا آخر، فيذكر دوزي "ان أشد ما يصدمنا في ذلك الشعر ما يســـوده من روح الاستسلام الديني مع ما كان عليه الشعر الاندلسي من القـــوة والحيويـــة قبل ذلك حينما كان دنيويا خالصا .. ولم تكن لتخالطـــه أفكار اخروية وكان الشعراء يتغنون بالخمر وألوان اللـــهو دون أن يحفلوا بالدين وأهله فكان شعرهم حيّا .. وكان الحال على العكس في حكـــم علي المرابطي : ففي ظل هذا الرجل التافه حلت النساء والفقهـــاء محل كبار الناس وأشرافهم وكان الشعر صورة صادقة للعصر، فانتقـــل من القوة وخلو البال واللهو الى الجبن والعفاف والحزن والتديـــن"[3]، بهذا التحامل يصف دوزي الشعر في عهد المرابطين، مع اننا نلاحـــظ أن الشعراء قد طرقوا مختلف الأغراض الشعرية . صحيح أن بعض الأغراض قد تراجعت أو تكيفت بسبب طبيعة الدولة الفكرية والسياسية واهتمامهـــا بأمر الجهاد، مما ساهم في تحويل الذوق الشعرى من ذوق لاه الـــى ذوق جاد[4]، الا ان بعض الشعراء أخذوا يعرضون بالمرابطين[5] وذلـــك لعدم قدرتهم على التكيف، فهـــم بعض الدارسين تراجع بعض الأغـــراض

---

(١) انظر : فهرسة، ما رواه عن شيوخه / ٤١١ — ٤١٢ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ / ١٢ .

(٣) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي / ١٩ — ٢٠ .

(٤) تاريخ الفكر الاندلسي / ١٢٣ . الشعر الأندلسي / ٥٦ — ٥٨ .

(٥) قلائد العقيان / ٢٨٠ ، وانظر : المعجب / ٢٣٥ — ٢٣٦ .

وتذمر بعض الشعراء من الوضع الجاد الذى لم يألفوه ــ عمموا ذلك على الأدب بشكل عام ووصفوه بالضعف والجمود .

وفي هذه الفترة ظهر شعراء كبار كابن اللبانة (١)، وابن وضّاح القيسي (٢)، والأعمى التطيلي (٣)، وابن بنقّ ، وابن سارة الشنتريني (٤)، وابن بقي ، والمخزومي الأعمى ، وابن ابي الصلت الداني ، وابن الزقاق البلنسي (٥) وابن خفاجة (٦).

---

(١) محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني من دانية ،ويعرف بابن اللبانة ،ت (٥٠٧)هـ ، التكملة ١/١٠٤٠.

(٢) أحمد بن مسلمة بن محمد بن وضاح القيسي ،له ديوان شعر صغير كتبه الناس عنه وتناقلوه ، ت (٥٣٠) هـ ،المعجم /٠٨.

(٣) أبو العباس احمد بن عبد الله بن هريرة القيسي ينسب الى تطيلة ، وهو شاعر بارع ووشاح مغلق ،ت (٥٢٥) هـ ، المغرب في حلى المغرب ١/٤٥١ ، حقق ديوانه احسان عباس .

(٤) أبو محمد عبد الله بن سارة الشنتريني الاشبيلي ،شاعر مجوّد ، سكن اشبيلية ، ومدح الولاة والرؤساء في الاندلس ،ت (٥١٧)هـ، المغرب في حلى المغرب ١/٤١٩ ، بغية الوعاة ٢/٥٧.

(٥) أبو الحسن علي بن ابراهيم بن عطية بن الزقاق البلنسي ابن اخت ابن خفاجة ت (٥٤٠)هـ ،المغرب في حلى المغرب ٢/٣٢٣ . حققت ديوانه عفيفه ديراني ونشرته دار الثقافة سنة (١٩٦٠).

(٦) أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة ،كان عالما بالشعر والآداب ، صدرا في البلغاء مقدما في الكتاب والشعراء مجيدا ناظما ناثرا ت (٥٣٣) هـ ، الصلة ١/١٠٠ ، التكملة ١/١٤٣ ، المغرب في حلى المغرب ٢/٣٦٧.

وقد شارك العلماء والفقهاء في قول الشعر كأبي عبد الله ابن حمدين [1]، وأبي الحسين بن سراج [2]، والقاضي عياض، وابن عطية، ومن الفلاسفة الشعراء ابن باجة، ومن النحويين الشعراء ابن السيد ومن الاطباء الشعراء ابن بنّق.

كما ازدهر فن الموشحات، وذلك لتطور فن التلحين، ولظهور عدد من الوشاحين الكبار كالأعمى التطيلي، وابن بقي وابن باجة والأبيض [3]، وقد شجع المرابطون هذا الفن فأقاموا له المجالس، فمن ذلك أن ابن باجة أنشد ممدوحه الأمير ابن تيفلويت [4] في أحد المجالس المخصصة لذلك:

جرِّر الذيلَ أيّما جرِّ ... وصِلِ الشكرَ منكَ بالشكرِ

فطرب ابن تيفلوت، فلما ختمها بقوله:

عقدَ اللهُ رايةَ النصرِ ... لأميرِ العلا أبي بكرِ

صاح الممدوح: واطرباه وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالأيمان لا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب.

---

(١) ابو عبد الله بن حمدين، قاضي الجماعة بالأندلس، ت (٥٠٨) هـ، الصلة ٢/٥٣٩.

(٢) ابو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله، من قرطبة ت (٥٠٨) هـ، المعجم / ٣٠-٣١.

(٣) ابو بكر محمد بن أحمد الانصاري من أهل قرطبة، شاعر وشاح حسن التصرف، كثير الهجاء، المغرب في حلى المغرب ٢/١٢٧.

(٤) أبو بكر بن ابراهيم بن تيفلويت، ولاه علي بن يوسف على بلنسية وسرقسطة وهو ممدوح ابن خفاجة وممدوح ابن باجة ت (٥٠١) هـ قلائد العقيان ٢٦٢ / ٣، انظر المعجم / ٥٤ — ٥٥، خريدة القصر ٢/٣٣٣.

فاحتال ابن باجة بأن جعل في نعله ذهبا ومشى عليه [1]. وازدهر كذلك فن الزجل، وكان ابن قزمان "إمام هذا الفن على الاطلاق" [2].

ونتيجة لعناية المرابطين بالعلوم الدينية فقد نشطت وازدهرت، فكان أمراء المرابطين يفضلون الفقهاء ويعظمون العلماء [3]، والدولة منذ بدايتها قامت على اساس من فقه وجهاد [4]، فظهر علماء كثيرون منهم : ابن مزاحم الانصاري، فقد كان نهاية في علم العربية، مهتما بعلم القراءات، الف فيها "الناهج للقراءات بأشهر الروايات" [5]، وأحمد ابن محمد بن محرز [6]، فقد كان حجته في القراءات كذلك وضع فيها كتاب "المقنع" [7]. وحسين بن محمد الصدفي الذي اشتهر

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/١٠٤١.
(٢) تاريخ ابن خلدون ١/١١٥٣.
(٣) الحلل الموشية /٨٢.
(٤) تاريخ المغرب العربي /١٨٦.
(٥) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن مزاحم الانصاري الخزرجي، من اشبونة وسكن طليطلة ثم رحل الى المشرق طالبا للعلم ثم عاد الى الاندلس، ت (٥٠٢) هـ، الصلة ٢/٥٢٢.
(٦) أحمد بن محمد بن خلف بن محرز بن محمد الانصاري، رحل الى المشرق وأقرأ القرآن بدمشق بعدة روايات، ، أما لقي فيها ابن عساكر وسمع مقامات الحريري منه ت (٥٠٥ — ٥٠٨) هـ، التكملة ١/٢٧.
(٧) التكملة ١/٢٧.

بعنايته بكتب الحديث ومصنفاته وأسانيده ومتونه ورواياته ،[1] واستدرك محمد بن خلف الاريولي[2] على " الاستيعاب " لابن عبد البر ، ومن علماء هذه الفترة أبو طاهر السلفي نزيل الاسكندرية وصاحب " معجم السفر " [3] وأبو بكر الطرطوشي [4] صاحب " سراج الملوك " و " الحوادث والبدع " [5] وابن عتاب [6] فقد كان " آخر الشيوخ .. الأكابر

---

(١) ابو علي حسين بن محمد بن فيرة بن حيون الصدفي المعروف بابن سكّرة ، عالم فاضل رحل الى المشرق وامضى فيه ، مايزيد على عشر سنين يتلقى العلم ثم عاد الى الاندلس واشتغل بالتعليم والتأليف ، استشهد سنة (٥١٤) هـ في موقعة كتندة . الصلة ١/١٤٤ .

(٢) ابو بكر محمد بن خلف الاريولي المعروف بابن فتحون ت (٥١٩ أو ٥٢٠) هـ ، الصلة ٢/٥٤٧ .

(٣) ابو طاهر احمد بن محمد بن احمد بن السلفي الاصبهاني الحافظ ، رحل الى المشرق طلبا للعلم ، فاستقر في الاسكندرية سنة (٥١١) هـ وظل فيها حتى وفاته سنة (٥٢٠) هـ ، انظر : المعجم /٤٧ - ٤٨ ، وفيات الاعيان ١/١٠٥ .

(٤) ابو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن ايوب الفهري الطرطوشي فقيه حافظ امام محدث ثقة زاهد فاضل ، رحل الى المشرق وتفقه على علمائه كما تفقه على علماء الاندلس ، وصحب علماءها الكبار كابن العربي وابي الوليد الباجي ، ت (٥٢٠) هـ في الاسكندرية ، الصلة ٢/٥٤٥ ، بغية الملتمس /١٢٥ .

(٥) حققه محمد الطالبي ونشره بتونس سنة ١٩٥٩م .

(٦) أبو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عتاب بن محسن ، من أهل قرطبة ، وهو فاضل من أهل العلم والتواضع ت (٥٢٠) هـ الصلة ١/٣٣٢ .

بالأندلس في علو الاسناد وسعة الرواية ، ألّف " شفاء الصدور " (١) ، وابن رشد الجد (٢) ، فقد كان عالما فقيها حافظا عارفا بالفتوى ، له تآليف كثيرة منها : " المقدمات لأوائل كتب المدونة " و " البيان والتحصيل " و " اختصار المبسوطة " ومسائل فقهية تسمى " نوازل ابن رشد " (٣) ، وعبد الله بن يربوع (٤) الذى الف " الإقليد في بيان الأسانيد " و " تاج الحلية وسراج البغية في معرفة اسانيد الموطأ " و " المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج " (٥) ، ومن هؤلاء العلماء ابن عيشون الجذامي المقرئ المعروف بالمجوّد لحسن قراءته وله تآليف في ناسخ القرآن ومنسوخه (٦) . وأحمد بن طاهر الانصاري ، له تصنيف على الموطأ سماه " الإيماء " وله مجموع في رجال

---

(١) الصلة ١/٣٣٣ .

(٢) أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد الجد قاضي الجماعة في الاندلس، وهو الذى أفتى بتغريب المعاهدين من نصارى الاندلس لنكثهم العهد ومساعدتهم للنصارى على المسلمين وطلب من امير المسلمين ان يسور المدن، ت (٥٢١) هـ ، الصلة ٢/٥٤٦ ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ١/١٦٢ .

(٣) الصلة ٢/٥٤٦ .

(٤) عبد الله بن احمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان عالم بالرواية والحديث، أصله من شنتمريّة الغرب ت (٥٢٢) هـ ، الصلة ١/٢٨٢ .

(٥) الصلة ١/٢٨٢ .

(٦) أحمد بن خلف بن عيشون الجذامي ، ت (٥٣١) هـ ، التكملة ١/٣٨ .

مسلم بن الحجاج (١) ، ومن هؤلاء العلماء ايضا علي بن موهب الجذامي ، ألف كتابا في تفسير القرآن ، وله معرفة بأصول الدين (٢) ، ومحمد ابن خلف الانصاري صاحب " النكت الأمالي في النقض على الغزالي " وله رسالة " الانتصار على مذهب الائمة الخيار " ورسالة " البيان عن حقيقة الايمان " و " شرح مشكل ما وقع في الموطأ وكتاب البخاري (٣) ، والرشاطي (٤) الذي تعاون مع ابن بشكوال في تأليف " الصلة " كما ألف كتابا سماه " اقتباس الانوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار " (٥) و " إظهار فساد الاعتقاد ببيان سوء الانتقاد " رد فيه على ابن عطية المفسّر ، و " الاعلام بما في كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطني من الأوهام " (٦) ، ومن مشهوري العلماء في العلوم الدينية في هذه الفترة ابن عطية (٧) صاحب " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " وبالرغم من ان الكتاب كتاب تفسير الا انه مشتمل على جوانب كثيرة من العلوم (٨) ، كما كان هذا

---

(١) احمد بن طاهر بن علي بن عيسى بن عبادة الانصاري الخزرجي ، وكان من شيوخ القاضي عياض ، وهو من مشهوري علماء القراءات . التكملة ١/٤٤ — ٤٥ .

(٢) أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن موهب الجذامي من المرية ، عالم مفسّر ، ت (٥٣٢) هـ ، الصلة ١/٤٠٥ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن خلف بن موسى الانصاري ت (٥٣٧) هـ ، التكملة ١/٤٣٩ .

(٤) المعجم /٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٥) الصلة ١/٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٦) المعجم /٢٢٢ .

(٧) ابو محمد عبد الحق بن عطيه المحاربي ، قاضي غرناطة بعد ابيه ت (٥٤١) هـ ، الصلة ١/٣٦٧ ، المغرب في حلى المغرب ٢/١١٧ .

(٨) المحرر الوجيز ١/٥ .

التفسير محل فخر اهل الاندلس ، لاتقانه ، اذ " أحسن فيه وأبدع وطار بحسن نيته كل مطار " (١) . ومن العلماء هؤلاء ابن عظيمة (٢) صاحب الارجوزة في القراءات السبع وأخرى في مخارج الحروف ، وأبو بكر بن العربي الذي وصفه تلميذه ابن بشكوال بأنه " متقدم في المعارف كلها متكلم في أنواعها نافذ في جميعها حريص على اداعتها ونشرها ، يجمع الى حدة الذهن والعلم الوافر حسن الخلق وكرم النفس وكثرة الاحتمال وحسن العهد وثبات الود " (٣) ، وقد ألف كتابا في شرح الحديث الشريف سماه " عارضة الأحوذي في شرح صحيح الترمذي " كما شرح صحيح البخاري ومسلم ، وله كتاب في التفسير اسمه " أحكام القرآن " (٤) وله كتب كثيرة أخرى (٥) ، كما كان له رأي في التأليف : فحدده بفرضين لاينبغي لحصيف أن يعدل عنهما : " إما أن يخترع معنى او يبتدع وصفا ومتنا وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق والتحلي بحلية السرق " (٦) . ومن مشهوري العلماء ابن الضحاك فقد كان استاذا في الفقه وله مدارك

(١) الاحاطة ٣/٥٤٠ .

(٢) أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن احمد بن الطفيل العبدي ، عالم باللغة العربية له رحلة الى المشرق ت (٥٤٣) التكملة ١/٤٤٥ - ٤٤٦ ، نفح الطيب ٢/١٥٦ .

(٣) الصلة ٢/٥٥٨ .

(٤) حققه محمد البجاوي وطبع سنة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ .

(٥) بغية الملتمس /٩٢ .

(٦) عارضة الأحوذي ١/٤ .

الحقائق " في أصول الفقه و " منهاج السداد في شرح الارشاد " و " زواجر الانوار وبوادر ذوي البصائر والاستبصار في شمائل النبي المختار[(1)]، وله كتب اخرى[(2)]، ومن هؤلاء العلماء القاضي عياض[(3)] وهو وان كان من عدوة المغرب الا أنه تلمذ لعلماء الاندلس وارتحل الى مراكز العلم فيها، وله عدة مؤلفات منها: " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " و " اكمال المعلم في شرح مسلم " أكمل فيه كتاب استاذه المازري[(4)] " المعلم بفوائد مسلم " وقد أكثر من التأليف في العلوم الدينية .[(5)]

وقد كانت كتب أهل المشرق تلاقي لدى أهل الاندلس عناية كبيرة: يدرسونها في رحلتهم الى المشرق ويتدارسونها في الاندلس، وقد يشرحونها أو يعارضونها وقد يرفضونها كما حدث لكتاب " احياء علوم الدين " للغزالي، إذ أفتى ابن حمدين - قاضي الجماعة بقرطبة - بإحراقه، وكان ممن أنكر على الغزالي كتابه وأفتى بإحراقه كذلك الفقيه ابن رشد[(6)] والقاضي عياض[(7)]، كما ألّف الطرطوشي

---

(1) أبو الحسن علي بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن الضحاك الفزاري الغرناطي، وكان فقيها مشاورا عالما، ت (٥٥٢)هـ، صلة الصلة/ ٩٥.

(2) الاحاطة ٤/ ١٧٥.

(3) التعريف بالقاضي عياض / ٦.

(4) أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، محدث مالكي، أصله من مازر بصقلية، ت سنة (٥٣٦)هـ بالمهدية، ازهار الرياض ٣/ ١٦٥.

(5) انظر: الاحاطة ٤/ ٢٢٨ - ٢٢٩.

(6) الطبقات الكبرى ١/ ١٥.

(7) شذرات الذهب ٤/ ١٢٩، الطبقات الكبرى ١/ ١٥.

كتابا كبيرا يعارض فيه كتاب الإحياء[1] ، واقترح آخرون اختصاره ؛ مما يدل على أن فيه مالم يقبله العلماء في عهد المرابطين فقد بدأ الغزالي كتابه بالهجوم على علماء عصره : فالعلماء " شغر منهم الزمان ولم يبق الآ المترسمون وقد استحوذ على اكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان واصبح كل واحد منهم بعاجل حظه مشغوفا .. حتى ظل علم الدين مندرسا ومنار الهدى .. منطمسا .. ولقد خيلوا الى الخلق أن لا علم الا فتوى حكومة تستعين بها القضاة على فصل الخصام .. أو جدل يتدرع به طالب المباهاة الى الغلبة والافحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ الى استدراج العوام "[2] ؛ فموت الدين كما يراه الغزالي راجع الى العلماء المترسمين والفقهاء الذين لا يبغون من فقههم الا حيازة المال والتقرب من ذوي السلطان ، كما نعت هؤلاء العلماء بالجهل ، فهم لا يعرفون الآ المسائل الخلافية والفرعية " ولو سئل فقيه عن قضيّة أو معنى من المعاني حتى عن الإخلاص مثلا .. لتوقف .. ولو سأله عن اللعان والظهار والسبق والرمي لرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج الى شيء منها "[3] ، وقد يكون وصف الغزالي منطبقا على معظم علماء العالم الاسلامي آنذاك عدا علماء دولة المرابطين الذين كانوا أبعد ما يكونون عن الترسم والتقليد والمسائل الخلافية لانشغالهم بتوجيه الدولة المرابطية التي نهضت إبّان الضعف الذي أصاب المسلمين ، وتصدت لجيوش النصارى الصليبيين في الأندلس ووحدت العدوتين تحت حكم واحد ، ومما

---

(١) بغية الملتمس / ١٣٨ .
(٢) احياء علوم الدين ١ / ٢ .
(٣) احياء علوم الدين ١ / ٢١ .

يؤكد عدم انطباق ما ذكره الغزالي عن العلماء والفقهاء امتداحه لابي بكر بن العربي ووالده عند قدومهما لبغداد وثنائه على علمهما واجتهادهما في الدفاع عن الاسلام والمسلمين (١) ، كما أن الغزالي قد عزم على الرحيل الى مراكش للقاء يوسف بن تاشفين لما سمعه عن دولته وعن جهاده للنصارى وانتصاره عليهم في الزلاقة (٢) . ولما لم يكن كتاب الإحياء منطبقا على علماء المرابطين وفقهائهم فقد خشي قاضي الجماعة في الاندلس وكثير من الفقهاء أن يثير هذا الكتاب الفوضى في المجتمع بأن يستغله الدعاة من أعداء المرابطين للنيل من سمعة الفقهاء والعلماء ومن ثم الدولة التي تستخدمهم وتشاورهم .

ثم ان هؤلاء الفقهاء وجدوا في الكتاب مالم يرضهم ، ويرى المازري أن دراسة الغزالي للفلسفة اكسبته " جرأة على المعاني وتسهيلا للهجوم على الحقائق لأن الفلاسفة تمر على خواطرها وليس لها حكم شرعي ترعاه " (٣) وقد ظهر الاثر الفلسفي في كتابه ، وأصحاب المذهب المالكي ينفرون من الفلسفة (٤) . كما أخذ الفقهاء على الغزالي مزجه الاسلام بالتصوف (٥) وهم بذلك يريدون اسلاما خالصا لا تشوبه شائبة يعتمدون فيه المذهب المالكي ويأخذون بالقرآن والسنة ويبتعدون فيه عن " المكاشفة " و " الإلهام " وغيرها من مصطلحات غلاة أهل التصوف (٦) ، كما أخذ العلماء عليه كثيرا

---

(١) انظر : مجموع أوله كتاب الانساب لوحة/ ١٣٠ — ١٣٣ .
(٢) وفيات الاعيان ٤/ ٢١٧ .
(٣) المازري / ٦٧ .
(٤) تاريخ الاسلام السياسي ٤/ ٤٥٦ .
(٥) احياء علوم الدين ١/ ٢ ، وانظر : المازري / ٧٨—٧٩ .
(٦) انظر : ترتيب المدارك / المقدمة .

من التفسيرات العقلية البعيدة لأمور بسيطة غير معتمد في ذلك على نص قرآني أو حديث نبوي أو رأي امام (١)، ويؤكد ما ذهب اليه فقهاء المرابطين وعلماؤهم ما أخذه ابن الجوزي على الإحياء اذ يقول : " فاعلم ان في كتاب الاحياء آفات لايعلمها الا العلماء وأقلها الأحاديث الباطلة والموضوعة .. وكيف تؤثر ان يطرق سمعك من كلام المتوصفة .. من الكلام في الفناء والبقاء والأمر بشدة الجوع والخروج الى السياحة في غير حاجة والدخول الى الفلاة بغير زاد ".(٢) ، ولذلك طلب أبو محمد بن منصور قاضي الجماعة بمراكش من القاضي عياض أن يختصر الكتاب مقتصرا على ما فيه من خالص العلم (٣)، الا أن بعض العلماء لم يفتوا باحراق الاحياء بل عارضوا ذلك كابن حرزهم (٤) وأبي الفضل يوسف النحوي (٥) الذي انتصر للغزالي وكتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بذلك، بل أفتى أن الأيمان التي أستحلف الناس بها على الكتاب لا تلزم ، وقال : " هذه الأسفار من كتاب الاحياء

---

(١) انظر : كيفية قص الأظافر في "احياء علوم الدين" ١/ ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) منهاج القاصدين / ٣ .

(٣) انظر : التعريف بالقاضي عياض / ١٠٦ — ١٠٧ .

(٤) أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ، من أهل فاس ، رحل الى المشرق وانقطع مدّة بالشام ، فلقي أبا حامد الغزالي ، ثم عاد الى فاس ومات بها ، التشوف /٧١ .

(٥) أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بالنحوي ، من قلعة حمّاد ، وأصله من توزر ، دخل سجلماسة وفاسا ثم عاد الى الاندلس ، وكان من أهل الفضل والعلم . ت (٥١٣)هـ ، التشوف / ٧٢ ، جذوة الاقتباس / ٥٥٢ .

تمنيت اني لم انظر في عمري سواها " (١) ، وهذا يدل دلالة واضحة على مدى الحرية التي كان يتمتع بها العلماء في دولة المرابطين ، ويرد كذلك على من يتهمهم بالتعصب والتضييق على الحياة الفكرية .

كما نشطت العلوم اللغوية ، لما لها من صلة بالعلوم الدينية والآداب ، فشرحت كثير من مؤلفات القدماء في اللغة ، كما شرحت بعض دواوين الشعراء ، ومن علماء اللغة في عهد المرابطين : جرّاح بن موسى الغافقي (٢) وابن القطّاع (٣) الذي أكمل كتاب "الأفعال" لابن القوطية (٤) وكانت له تعليقات على صحاح الجوهري ، كما كان أستاذ ابن برى (٥) وابن خلصة النحوي (٦) ، فقد كان

---

(١) التشوف /٧٣ .

(٢) أبو عبيدة جراح بن موسى بن عبدالرحمن الغافقي من أهل قرطبة ، أديب حافظ عالم باللغة ت (٥٠٧) هـ ، الصلة ١ /١٣٣ .

(٣) علي بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن القطاع الصقلي ، علّم العربية بمصر بعد ان ارتحل اليها من الاندلس ، وله عدة مؤلفات ، ت (٥١٥) هـ ، بغية الوعاة ٢ /١٥٣ — ١٥٤ .

(٤) ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم ، كان أعلم أهل زمانه باللغة والحديث والفقه والأخبار وكان أبو علي القالي معظما له ، وفيات الأعيان ٤ /٣٦٨ ، نفح الطيب ٣ /٧٣ .

(٥) ابن برى عبد الله بن ابي الوحش برى بن عبد الجبار المقدسي ثم المصري الشافعي اللغوي عاش بين سنتي (٤٩٩ — ٥٨٢) له مصنفات كثيرة منها : " الاختيار في اختلاف أئمة الامصار " و " الايضاح في حاشية الصحاح " ، بغية الوعاة ٢ /٣٤ ، هدية العارفين ١ /٤٥٧ .

(٦) ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة النحوي من أهل بلنسية ، ت (٥٢١) هـ ، المعجم /١١٣ ، التكملة ١ /٤٥٦ .

استاذا في علم اللسان مقدما في العربية ،رد على ابن السيد برسالة في النحو ذكر فيها ان كتاب " الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب " ليس لابن السيد وانما انتحله وادعاه وأن مؤلفه هو العالم اللغوي أبو العباس المرسي [1] ، كما كان ابن السيد من مشاهير لغويي الاندلس في عهد المرابطين فقد كان متبحرا في علوم اللغة والآداب وغيرهما من العلوم والفنون الأخرى ،قال عنه ابن خاقان : " وهو اليوم شيخ المعارف وامامها ، لديه تنشد ضوال الاعراب وتوجد شوارد اللغات .. وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة .. وتواليفه في الشروحات وغيرها صنوف "[2] . وقد كان رائدا ينفر من التقليد ، ألّف كتبا منها " الحلل في شرح ابيات الجمل " [3] و" اصلاح الخلل الواقع في الجمل " [4] و" الاقتضاب في شرح ادب الكتاب " و" التنبيه على الاسباب الموجبة للاختلاف بين المسلمين في آرائهم" [5] و" الانتصار ممن عدل عن الاستبصار " [6] وكتبا كثيرة اخرى [7] . ومن

---

(١) التكملة ١ /٤٢٦ .

(٢) كتاب الحلل في اصلاح الخلل /١٧ ، قلائد العقيان/٢٢٢ .

(٣) بغية الوعاة ٢ /٥٦ .

(٤) حققه سعيد عبد الكريم بعنوان " كتاب الحلل في اصلاح الخلل من كتاب الجمل " ونشرته وزارة الاعلام العراقية سنة ١٩٨٠ .

(٥) حققه محمد رضوان الداية ونشرته دار الفكر سنة ١٩٧٤ .

(٦) حققه حامد عبد المجيد ونشرته الادارة العامة للثقافة بمصر سنة ١٩٥٥ .

(٧) انظر : شرح المختار من شعر أبي العلاء /٢٧ — ٢٨ ، الصلة ١ /٢٨٢ ، بغية الوعاة ٢ /٥٦ .

علماء اللغة أيضا ابن الطراوة (١) ، وابن الباذش (٢) ويونس ابن مغيث(٣) والتميمي السرقسطي ، صاحب " المسلسل في غريب اللغة"(٤) ، ومحمد ابن عبد الرحمن الصبدي صاحب كتاب " الفريدة الحمصية في شرح القصيدة الحصرية"(٥) ، وابن خطاب القيسي (٦) الذى قعد لتعليم العربية ، وكان بينه وبين أبن خلصة مسائل في اعراب آيات القرآن الكريم (٧) والخشني (٨) وابن ينق ، وابن هشام الحضرمي (٩) شارح مقصورة ابن دريد ، وله " الافصاح في اختصار المصباح ". (١٠)

---

(١) أبو الحسين سليمان بن محمد بن عبد الله السبائي المالقي المعروف بابن الطراوة أديب نحوى عاش في عهد المرابطين وكتب لهم ، ت (٥٢٨) هـ المغرب في حلى المغرب ٢/٢٠٨ ، رايات المبرزين /١٢٨.

(٢) ابو الحسن علي بن احمد بن خلف الأنصاري المعروف بابن الباذش ، نحوى واديب مشهور ت (٥٢٨) هـ ،انظر: المعجم /٢٨٦ — ٢٨٨.

(٣) ابو الحسن يونس بن مغيث بن محمد بن يونس بن عبد الله من قرطبة ، عالم باللغة والغريب ، جامع للكتب راوية اخباري عارف بتاريخ الأندلس ورجاله ت (٥٣٢) والصلة ٢/٦٤٩ — ٦٥٠.

(٤) حققه محمد عبد الجواد باسم " المسلسل في غريب لغة العرب"، نشرته وزارة الثقافة بمصر دون تاريخ .

(٥) نفح الطيب ٢/١٥٦.

(٦) ابو عبدالله (ابو بكر) محمد بن يوسف بن سليمان بن محمد ابن خطاب القيسي يعرف بابن الجزار ت (٥٤٠) هـ ، التكملة ١/٤٤٧. (٧) المصدر نفسه .

(٨) ابو بكر محمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني ت (+٥٤٤)هـ التكملة ٢/٤٦٩.

(٩) أبو محمد (أبو مروان) عبيد الله بن هشام الحضرمي ت (٥٥٠)هـ التكملة ٢/٩٣٣.

(١٠) التكملة ٢/٩٣٤.

وفي الجغرافية ظهر جغرافيون كبار كالبكري[1] صاحب " المسالك والممالك " ومُعجم ما استعجم " ، وظهر كذلك الجغرافي الكبير الإدريسي[2] صاحب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " الذي ألفه بتكليف من ملك صقلية (روجار الثاني) كما صنع له كرة أرضية . فروجر بذلك يعترف بتفوق الحضارة الاسلامية في الاندلس آنذاك لاسيما وانه يعي حضارته والحضارة الاسلامية في الاندلس ويقف على حد فاصل بينهما في صقلية . كما ظهر من الجغرافيين الزهري[3] والحجاري .

وفي التاريخ ظهر ابن اللبّانة صاحب " مناقل الفتنة " و " نظم السلوك في وعظ الملوك " و " سقيط الدرر ولقيط الزهر "[4] وابن علقمة[5] الذي كتب تاريخا لتغلب النصارى على بلنسية سنة (٤٨٦) هـ وسماه " البيان الواضح في المسلم الفادح "[6] . وأبو

---

(١) ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، من أهل شلطيش ، سكن قرطبه . من اهل اللغة والآداب الواسعة والجغرافيا والأخبار والأشعار والأنساب وقد كان مؤلفا ضابطا . الصلة ١/٢٧٧ ، الحلة السيراء ٢/١٨٠ .

(٢) الادريسي ، محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس بن يحيى بن علي بن حمود بن ميمون يرجع نسبه الى علي بن ابي طالب . كان اديبا شاعرا عالما بالجغرافيا ، عاش بين سنتي (٤٨٧ — ٥٦٨) ، الوافي بالوفيات ١/١٦٣ .

(٣) الزهري : محمد بن أبي بكر الزهري ، عالم بتقويم البلدان ، وهو صاحب كتاب " الجغرافية " ، عاصر الشريف الادريسي ، كان حيا قبل (٥٤٥) هـ . Geschichte Der Arabischen Litteratur S, 1/ 876

(٤) التكملة ١/٤١١ .

(٥) محمد بن خلف بن اسماعيل الصدفي ، يعرف بابن علقمة ، من اهل بلنسية وصاحب تاريخها ت (٥٠٩) هـ . التكملة ١/٤١٢ .

(٦) البيان المغرب ٤/١٤٨ ، التكملة ١/٤١٢ .

طالب عبد الجبار المرواني صاحب " عيون الإمامة ونواظر السياسة "[١] . وألّف ابن رزين العبدري " أخبار مكة والمدينة وفضلهما "[٢] . كما ألّف ابو الحسن السالمي " أخبار الفتنة الثانية في الأندلس "[٣] بين المرابطين والموحدين ما بين سنتي (٥٣٩ ـ ٥٤٧)هـ . وألّف ابن ينق كتابا في ملوك الاندلس والاعيان والشعراء فيها[٤] ، وكتب ابن الصيرفي[٥] تاريخ دولة المرابطين سماه " الانوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطية "[٦] . وأكمل ابن سيد الّه[٧] كتاب " الصلة " بكتاب سماه " مجموع في رجال الأندلس "[٨] .

أما الفلسفة فلم يمتن بها أهل الاندلس وان كان لها حظ عظيم لدى " خواصهم ولا يُتظاهر بها خوف العامة[٩] ، فبذلك تكون

---

(١) الصلة ١ / ٣٦١ .
(٢) الصلة ١ / ١٨٤ .
(٣) تاريخ الفكر الاندلسي / ٢٤١ .
(٤) التكملة ٢ / ٤٧٩ .
(٥) ابو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الانصارى المعروف بابن الصيرفي ، [illegible]وز للامير أبي حامد بن تاشفين بين سنتي (٥١٩ ـ ٥٣٠) ت هـ (٥٥٧) هـ ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ١١٨ .
(٦) البيان المغرب ٤ / ١٤٨ ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ١١٨ .
(٧) ابو بكر محمد بن عبد الله بن سفيان بن سيد الّه التجيبي ت (٥٥٨) التكملة ٢ / ٤٩٣ .
(٨) التكملة ٢ / ٤٩٣ ، تاريخ الفكر الاندلسي / ٢٧٥ .
(٩) نفح الطيب ١ / ٢٢١ .

الفلسفة نشاطا فرديا خاصا . وقد ظهر من الفلاسفة مالك بن وهيب[1] ، ويذكر المراكشي أن له تعليقات على كتابي " الثمرة " و " المجسطي " لبطلموس[2] وابن وهيب هو الذي ناظر المهدي بن تومرت في حضرة أمير المسلمين علي بن يوسف[3] . كما كان لابن السيد معرفة في الفلسفة فألف كتبا منها : كتاب الدوائر[4] و " المطالب الفلسفية العالية العويصة " [5] ، ومن الفلاسفة كذلك ابن باجة الذي كان له تأثير فيمن جاء بعده من الفلاسفة[6] كابن رشد وابن طفيل . وقد أخذ على الغزالي قوله بتحصيل المعرفة بالتصوف والإلهام ، وقرر ان المعرفة لاتتحصل الا بالمثابرة على تحصيلها وبسيادة العقل الفعال[7] ولابن باجة عدة مؤلفات وشروح لكتب

---

(١) ابو عبد الله مالك بن يحيى بن وهيب بن احمد الازدي ، من اشبيلية عارف بعلم الكلام والفلسفة ت (٥٢٥) هـ بمراكش . الصلة ٢/٥٨٧ .

(٢) المعجب /٢٥٢ .

(٣) نفح الطيب ٣/٤٨٠ .

(٤) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١/٣٤٩ .

(٥) طبع بمصر سنة ١٩٤٦ .

(٦) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١/٣٤١ .

(٧) انظر : الفلسفة الاسلامية في المغرب /٣٦ — ٤٠ .

أرسطو (١) وله رسائل في المنطق والنفس واتصال العقل بالعقل الفعّال (٢)، كما ألّف رسالة كبيرة سماها " تدبير المتوحد " (٣) بيّن فيها كيفية توصل الانسان الى الخالق بالفطرة ، وقد يكون ابن طفيل استفاد من هذه الرسالة في تأليفه لـ " حي بن يقظان ".

وقد كان موقف العلماء من التصوف مقاربا من موقفهم من الفلسفة ، فأنكروه واعتبروه من المذاهب المنتحلة والبدع ، وذلك لما يأخذ به أهل التصوف من التأويل البعيد لآيات القرآن الكريم ولما يكتنف مذهبهم من الغموض ، بل ان بعض العلماء رماهم بالكفر والمروق (٤) ولذلك حارب المرابطون غلاة الصوفية وغرّبوا شيوخهم سنة (٥٣٦)هـ ، اذ أمر علي بن يوسف أن يرسل ابن العريف (٥) ،

(١) تاريخ الفلسفة الاسلامية ٣٤٢/١ .
(٢) حقق ماجد فخري رسائل ابن باجة ونشرتها دار النهار سنة ١٩٦٨ باسم " رسائل ابن باجة الإلهيه ".
(٣) نشرت في مدريد سنة ١٩٤٦ بعناية آسين بلاثيوس .
(٤) الانتصار / ٤٦ .
(٥) أحمد بن محمد بن موسى بن عطا الله الصنهاجي ، زاهد مشهور ، نفي من الاندلس الى المغرب سنة (٥٣٦) هـ بأمر من امير المسلمين علي بن يوسف ، وكانت وفاته في هذه السنة ، الصلة ٨٣/١ ، وفيات الاعيان ١٦٨/١ ، المعجب / ٢٣٧ ، التشوف / ٩٦ .

وابن برجان (١) وغيرهما من أئمة الصوفية الى المغرب (٢) ، كما ظهر المريدون (٣) في غرب الاندلس أو اخر دولة المرابطين واكثروا الخوض في كتب الصوفية ، وظهر من المتصوفة كذلك ابن وكيل التجيبي . (٤)

وفي الطب ظهر الزهراوي (٥) اشهر جراحي الاندلس في وقته ،كما ألّف بحثا صغيرا في الجراحة شرح فيه العمليات الجراحية وآلاتها الطبية (٦) ، وكان أميّة بن عبد العزيز الداني طبيبا ، ومثله الفيلسوف ابن باجة ، كما ظهرت عائلة متخصصة في الطب هي عائلة ابن زهر (٧) ، ومنهم أبو العلاء بن زهر طبيب يوسف بن تاشفين (٨) ،

---

(١) أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن برجان ،له تفسير للقرآن على طريقة أهل التصوف ،نفي سنة (٥٣٦)هـ ،من الاندلس الى المغرب بأمر من أمير المسلمين علي بن يوسف ، التشوف /١٤٨ ، الاستقصا ٢ /٧٦.

(٢) الاستقصا ٢ /٧٦.

(٣) تاريخ اسبانيا الاسلامية /٢٤٩.

(٤) أحمد بن معدّ بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد ،يعرف بالاقليشي ، عالم متصوف وشاعر مجود الف كتبا كثيرة في التصوف . انظر : نفح الطيب ٢ /٥٩٨— ٥٩٩ .

(٥) ابو القاسم الزهراوي ،طبيب مشهور ،خبير بالأدوية المفردة والمركبة ،له تصانيف عديدة . عيون الأنباء /٥٠١.

(٦) تاريخ الاسلام السياسي ٤ /٥٢١.

(٧) انظر : عيون الأنباء /٥١٧ — ٥٢١ .

(٨) ابو العلاء بن زهر بن عبد الملك ، من مشاهير الأطباء في عهد المرابطين ، وهو الذي داوى اعتماد الرميكية زوجة المعتمد في اغمات . ت (٥٢٥) هـ . التكملة ١ /٣٣٤ ، وانظر : البيان المغرب ٤ /٤٩ ، ٨٥.

وقد ألّف كتابا في الأدوية (١)، وكان ابن يسق طبيبا تلمذ لأبي العلاء بن زهر، كما كان ابو عامر البلوي طبيبا أيضا (٢)، وكذلك أبو مروان بن زهر صاحب "الاقتصاد في اصلاح الأنفس والأجساد" الذي وضعه لابراهيم بن يوسف (٣) .

وما يجدر ذكره في الحياة الفكرية أن كثيرا من العلماء ممن ظهروا في عصر الموحدين قد تلمذوا لعلماء المرابطين ؛ فكان المرابطون يمثلون مرحلة التمهيد المدور الذى قام به الموحدون بعد ذلك، اذ وفّر المرابطون عوامل الازدهار للحياة الفكرية بتوفيرهم الأمن والاستقرار وتوحيدهم البلاد وتشجيعهم للعلم والعلماء، وممن نشأ في دولة المرابطين وبرز نتاجه في دولة الموحدين ابن خير الاشبيلي (٤) وابن بشكوال . (٥)

---

(١) المعجب / ٢١٨.

(٢) ابو عامر محمد بن احمد بن عامر الطرطوشي من أهل طرطوشة، يعرف بالسالمي، وكان من اهل العلم والأدب والتاريخ ت (٥٥٩) هـ . التكملة ٢/ ٤٩٥.

(٣) Trois etudes d'histoire de La Medecine.arabe en Occident/ 94.

(٤) أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الاموى الاشبيلي (٥٠٢ — ٥٧٥) هـ نشأ في دولة المرابطين وتشقف في مجالس علمائهم، وبرز نتاجه العلمي في دولة الموحدين، ألف "فهرسة ما رواه عن شيوخه"، التكملة ٢/ ٥٢٣، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٢.

(٥) ابو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال عاش بين سنتي (٤٩٤—٥٧٨) هـ، من أهل قرطبة؛ وهو عالم اخباري محدث راوية مؤلف ثقة، وهو صاحب كتاب "الصلة". الذى وصل به تاريخ ابن الفرضي، انظر : التكملة ١/ ٣٠٤ — ٣٠٧.

ولقد كانت الاندلس في هذه الفترة احدى المعابر الرئيسية لحضارة المسلمين الى أوروبا ، وذلك لما تتمتع به من الازدهار الفكري والنشاط العلمي ، فنشطت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية [1] ، خاصة في طليطلة التي كانت من أكبر مراكز الحضارة الاسلامية اشعاعا على أوروبا لاسيما وان الفونسو السادس قد أنشأ فيها مدرسة للترجمة مهمتها ترجمة أمهات الكتب العربية الى اللاتينية. [2]

كما كان للحياة الفكرية في عهد المرابطين أثر في الحيوات الفكرية فيما تلا من العصور ، فوصل بعض العلماء العديد من مؤلفات علماء المرابطين ، ونسج آخرون على غرار مؤلفاتهم ، بل أن محقق كتاب " التعريف بالقاضي عياض " [3] يذهب الى ان هذا الكتاب كان الاساس الذي اعتمده المقري ت (١٠٤١) هـ في تأليف " ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض ".

ومن استعراض مختلف الاداب والفنون والعلوم وماطرأ عليها من ازدهار في عهد المرابطين وماظهر فيها من أعلام كبار يتبين لنا مدى خطأ الحكم الذي وصمت به الحياة الفكرية في عهدهم .

---

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام / ٤١٧ .

(٢) الفونس السادس ومدرسة المترجمين / ٦٦ .

(٣) محقق الكتاب محمد بن شريفة .

الفصــــــل الثانـــــــي

مفهـوم الجهــاد عند المرابطيـــن ودور الفقهاء فيـه

الفصـــل الثانـــي

مفهوم الجهـاد عند المرابطيـــن :

قدم الفقيه عبد الله بن ياسين الى الصحراء ليفقه أهلهـــا وليعلمهم أمور الشريعة في حين رفض تلامذة أبي عمران الفاسي ذلـــك [1]، ويعلل ابن عذاري رفضهم " بمشقة السفر البعيد والانقطاع فـــي الصحاري " [2]، وهذا هو المرجح اذ كان أبو عمران وتلامذته فـــي تونس بينما كان عبد الله بن ياسين في مدرسة استاذه وجاج بـــن زلو في السوس جنوب المغرب الاقصى [3]. وحال وصوله بدأ هـــذا الفقيه بتصحيح العادات والأخلاق والعقائد : فدعا الناس الـــى الاسلام الصحيح ونبذ الروح القبلية الضيقة [4]، ولكنّه وجـــد أن الوعظ لم يجد نفعا ،فاتجه الى رباط أنشأه على نهر السنغـــال [5] ليعدّ فيه خاصته اعدادا علميا وعمليا وليكونوا دعاة للقبائـــل ،

---

(١) البيان المغرب ٤/٨.

(٢) المصدر نفسه ، الحلل الموشية / ٢٠.

(٣) انظر : الروض المعطار / ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٤) البيان المغرب ٤/٩.

(٥) يرجح الباحث أن هذا الرباط في مهمته يشبه رباط أبـــي عمران الفاسي في تونس ورباط وجاج بن زلو في السوس اذ كـــان يُعدّ في هذه الربط الدعاة المدافعون عن الاسلام فكريـــا لمقاومة المذاهب المبتدعة التي انتشرت في المغرب آنـــذاك كبرغواطة وغلاة الشيعة والخوارج — وعسكريا للدفاع عـــن الاسلام ونشره بالجهاد .

فأعدّهم وأرسلهم الى الصحراء ينشرون الاسلام ، الا أن كثيرا من القبائل امتنعت عليه ، فأمر من اتبعه من هذه القبائل بجهاد القبائل الممتنعة فجاهدوهم حتى تابوا وأطاعوا [1] ، وبذلك يكون عبد الله ابن ياسين قد أعدّ نواة الدولة بتوحيده هذه القبائل ونشره الاسلام فيها . وبعد ذلك اتجه بجهاده الى الجنوب نحو بلاد السودان وقبائل الزنج ، ففتح كثيرا منها [2] ، ثم غيّر هذا الاتجاه الى المغرب ليطهره من غلاة الشيعة [3] ومن زناتة والبربر وبرغواطة [4] " لما هم عليه من الضلالة ، فرأى تقديم جهادهم " [5] على جهاد غيرهم وجعل " من برغواطة جهادا قريبا " [6]، وقد يكون هذا التحول في وجهة الجهاد راجعا الى ما عرفه عبد الله بن ياسين من أحوال المغرب أيام نشأته ودراسته فيه ولما رآه من الاختلال والتفرق الذي أصابه ، فآثر بذلك إصلاح أمره بتوجيه جيوشه اليه لاسيما وانه فتح كثيرا من المناطق الجنوبية [7] ، فدعا جيوشه الى التحول الى المغرب بعد أن أدت مهمتها في الجنوب وقال لهم : " إنكم صبرتم ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد فتحتم ما كان أمامكم وستفتحون ان شاء الله ما وراءكم " [8] .

---

(١) الحلل الموشية / ٢١ .

(٢) انظر : البيان المغرب ٤ / ٨ — ١٠ ، المؤنس / ١٠٧ .

(٣) المؤنس / ١٠٦ ، الاستقصا ٢ / ١٤ .

(٤) انظر : الاستقصا ٢ / ١٨ — ١٩ ، وبرغواطة قبائل مجوسية على مذهب صالح بن طريف المدعي النبوة زمن هشام بن عبد الملك .

(٥) الانيس المطرب / ١٣١ .

(٦) تاريخ المغرب العربي / ١٨٦ .

(٧) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب / ١٦٦ .

(٨) الحلل الموشية / ٢٢ .

وظل عبد الله بن ياسين يجاهد في المغرب حتى استشهد في جهاده لبرغواطة (١) وذلك بعد أن استولى على سجلماسة (٢) وأعمالها وأغمات (٣) وبلاد السوس (٤) وغيرها، وبسط الأمر لمن جاء بعده، وبذلك فقد كان عبد الله بن ياسين رجل فقه ودين من حيث تكوينه العلمي وهو في الوقت ذاته ومن الناحية العملية القوة الدافعة لدولة المرابطين — عند إنشائها — في الجانب السياسي وفي توجيه حركة الجهاد، وقد كان " في الحقيقة الأمير، وهو الذي يأمر وينهى ". (٥)

ويلاحظ أن جيوش المرابطين كانت تجمع في جهادها بين جهاد قبائل المغرب في الشمال وأهل البدع فيه وجهاد قبائل السودان والقبائل الزنجية في الجنوب : وذلك أن قبائل الصحراء قد اختل أمرها سنة (٤٥٣) هـ، فقسم أبو بكر بن عمر جيش المرابطين

---

(١) انظر : البيان المغرب ٤/١٦ — ١٧ ، وانظر كذلك : الأنيس المطرب / ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) سجلماسة : من أكبر مدن المغرب على طرف الصحراء وتقع على طريق بلاد السودان وأهلها أغنياء لكون مدينتهم على هذا الطريق التجاري، وقد كانت موطن دعوة العبيديين عند ابتدائها . معجم البلدان ٣/١٩٢ ، وانظر : الروض المعطار / ٣٠٥ — ٣٠٧ .

(٣) أغمات : بأرض المغرب بقرب وادي درعة ، وأهلها يتاجرون مع بلاد السودان بالمعادن والأغذية والعطور، وهي مدينتان : أغمات وريكة وأغمات هيلانة وبينهما نحو ثمانية أميال . انظر : الروض المعطار / ٤٦ — ٤٧ .

(٤) بلاد السوس : هي أقصى بلاد المغرب ويقال لها السوس الأقصى، وهي من مدن كثيرة وبلاد واسعة يشقها نهر يسمى وادي ماست ويصب في البحر المحيط . انظر : الروض المعطار / ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٥) الحلل الموشية / ٢١ .

الى قسمين : استمر القسم الاول يجاهد في المغرب بقيادة يوسف ابن تاشفين ورجع أبو بكر بن عمر بالقسم الآخر الى الصحراء يصلح ما فسد من أمرها (١) ، ذلك لانها موطن الدولة الاول الذي تجب المحافظة عليه ، ثم أن أبا بكر واصل في الصحراء ما كانت الدولة قد بدأته من جهاد القبائل السودان أول نشأتها (٢) . ومن المرجح أن أبا بكر بن عمر قد أعاد جانبا من حركة الجهاد الى الجنوب ليمنع توجيه قوة هذه القبائل بعضها ضد بعض وليستغل هذه القوة ضد القبائل المشركة ، ومن الصعب الاخذ برأي من يقول إن أبا بكر قد عاد ـ أو أعيد ـ الى الصحراء مجبرا (٣) من قبل ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وذلك لما عرف عن يوسف من التقوى والصلاح والمرجح عندي ان أبا بكر قد عاد الى الصحراء ليكمل ما تقوم به جيوش المرابطين من جهاد في المغرب (٤) . ومما يجدر ذكره أن أبا بكر بن عمر قد حقق انتصارات عظيمة في جهاده للسودان والزنج ، كما استقام له أمر الصحراء وما يليها جنوبا ، وأسلمت كثير من قبائلها (٥) . كما انه استمر في جهاده حتى استشهد سنة (٤٨٠)هـ (٦) ، ومما يدعم ما ذهبنا اليه أن المناطق التي فتحها ظلت تابعة للمغرب طوال حكم المرابطين . (٧)

وظلت جيوش المرابطين تجاهد في المغرب والصحراء

---

(١) الانيس المطرب / ١٣٤ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٦ / ٣٣٧ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ٢٥ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ٦ / ٣٣٧ .
(٥) ينظر: الانيس المطرب [illegible] أبي بكر بن عمر [illegible] البيان
(٦) المغرب [illegible] وفاه ابي بكر بن عمر سنة (٤٦٨)هـ ، البيان
المغرب [illegible] الانيس المطرب / ١٢٥ — ١٢٦ ، الاستقصا [illegible] .
(٧) البيان المغرب ٤ / ٦٨ ، الانيس المطرب / ١٥٨ .

حتى استدعيت من قبل أهل الاندلس لانقاذها من جيوش النصارى[1] ، وبذلك يتضح أن دخول المرابطين للاندلس لم يكن لمطمع سياسي او توسع جغرافي ، وانما كان جهادا [2] يهدف الى استنقاذ الاندلس واسترجاع ما ضاع منها [3] إبان حكم ملوك الطوائف ، لاسيما وان دولة المرابطين " مبنية على دين متين وتأسيس بفقه " [4] وهذه احدى الاشكال التي تبتنى عليها الدول كما يقول الماوردي[5] : فإذا أهملت أمور الدين وتولى الامر من ليس أهله وكثرت البدع وعطلت الشريعة " ونهض الى طلب الملك من يقوم بنصرة الدين ويدفع تبديل المبتدعين ويجري فيهم على السنن المستقيم أذعنت لطاعته النفوس واشتدت في مؤازرته ونصرته ، ورأوا أن بذلهما له من حقوق الله المفروضة " [6] ، وقد كان المغرب قبل دخول المرابطين له مفككا سياسيا وفكريا تكثر فيه البدع ولا تحكم فيه الشريعة[7] فعندما دخله المرابطون رحب بهم المسلمون وسهلوا لهم مهمتهم[8] ، وهذا ما حصل أيضا عندما دخلوا الاندلس اذ رحبت بهم عامة المسلمين[9]

---

(١) البيان المغرب ٣ / ٢٨٢ .

(٢) البيان المغرب ٤ / ١١٦ .

(٣) المعجب / ٢٦٦ .

(٤) تاريخ اسبانيا الاسلامية /٣٤٣، مقدمة ابن خلدون ١ / ٢٨٥ .

(٥) تسهيل النظر وتعجيل الظفر / ١٥٢ .

(٦) انظر : تسهيل النظر وتعجيل الظفر / ١٥٢ — ١٥٣ .

(٧) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٣ .

(٨) البيان المغرب ٤ / ١٣ .

(٩) انظر : مذكرات الامير عبد الله / ١٥٠ — ١٥١ .

لما رأوه من إخلاصهم في جهادهم ، والمرابطون من أهل السنة(١) وموقفهم من الجهاد معروف ، فاذا وطأ العدو أرض المسلمين فالجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، فيخرج الولد دون اذن أبويه وتخرج المرأة دون اذن زوجها (٢) وقد أكد يوسف بن تاشفين أن دفاعهم عن الاندلس هو دفاع عن الاسلام فقال لقومه عندما استنصره ابن عباد بعد احتلال طليطلة : " هذا الرجل استنصر بنا على عدو الدين ووجب علينا وعلى كل مسلم نصره "(٣) . وحتى في لقاء النصارى فقد كان المرابطون يطبقون مبادئ الجهاد : فقبل معركة الزلاقة كتب يوسف بن تاشفين كتابا على مقتضى السنة يعرض على الفونسو الدخول في الاسلام والا الحرب أو الجزية (٤) ، وهو بذلك يطبق الشرع اذ المجاهدون يجاهدون صنفين من المشركين : " صنف بلغتهم دعوة الاسلام فامتنعوا فأمير الجيش مخير في قتالهم بين أمرين .. بياتهم ليلا ونهارا بالقتال والتحريق ، أو ينذرهم بالحرب ويصافهم بالقتال .. والصنف الثاني لم تبلغهم دعوة الاسلام .. فيحرم .. الإقدام على قتالهم غرة وبياتا .. قبل اظهار دعوة الاسلام لهم " (٥)، وقد اختار يوسف بن تاشفين أن يدعو النصارى الى الاسلام رغم بلوغه اليهم وهو بذلك يطبق المفهوم الاسلامي في الجهاد ، قال تعالى : " أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " (٦) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١/٣/١٢ ٤ .
(٢) المحلى ١/٢٩١ ، انظر المقدمات الممهدات/٢٦٣ ، ٢٦٦ .
(٣) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٥ .
(٤) البيان المغرب ٤/١٣٦ .
(٥) الأحكام السلطانية / ٣٧ .
(٦) سورة النحل آية ١٢٥ .

وما تجدر ملاحظته أن المرابطين لم يعملوا — في بداية الامر — على الاستحواذ على الاندلس، اذ رجع يوسف بن تاشفين الى المغرب بعد انتصاره في معركة الزلاقة مباشرة تاركا الجزيرة لأمرائها [1]، كما جمعهم قبل مغادرته ونصحهم بضرورة الاتفاق والائتلاف وذكرهم بأن تفرقهم وتناحرهم هو سبب هوانهم على عدوهم،" فأجابه الكل ان وصيته مقبولة "[2] الا انهم عادوا الى سابق عهدهم من التنازع والتناحر [3]، فلم يرض أمير المسلمين بحليف ضعيف منقسم على نفسه يوادع الاعداء ويدفع لهم الجزى والاتاوات، فكانت الادالة من هؤلاء الملوك والامراء اذ كان المرابطون يقولون : " انه لا ينبغي لنا قتال الروم ونترك وراءنا الاعداء ممن (يؤازرهم) علينا " [4]، وبذلك يتضح ان هذه العملية هي جمع لكلمة المسلمين واعداد لمجاهدة النصارى ومما يثبت ذلك أن امير المسلمين لم يخلع أمراء سرقسطة لحسن سيرتهم وعدم مداخلتهم لاعداء المسلمين [5]، وهذا يدعم ما ذهبنا اليه من أن خلع هؤلاء الملوك والامراء لم يكن لمطمع مادي أو سياسي، ذلك أن الاندلس لم تكن مجرد ولاية تابعة للدولة بل كانت نقطة الارتكاز لسياسة المرابطين بعد توجيه معظم جهادهم اليها : فسوّروا مدنها وحصنوها [6] ليتمكن المسلمون من المدافعة عنها والمرابطة فيها، وجمعوا لها الجيوش المجاهدة، وأكثروا لها العدة، وفي

---

(١) مذكرات الامير عبد الله / ١٠٥.
(٢) مذكرات الامير عبد الله / ١٠٦.
(٣) عن حالة ملوك الطوائف، انظر : الفصل الاول / ٤ — ٧.
(٤) مذكرات الامير عبد الله / ١٧٥.
(٥) البيان المغرب ٤/ ١٤٥.
(٦) انظر : البيان المغرب ٤/ ٣٢ — ٣٣، نظم الجمان / ١٠٧، الاستقصا ٢/ ٢٥.

ذلك يذكر صاحب الحلل الموشية أن المرابطين " كانوا متى وصلتهم خيل من العدوة بعثوا بها الى أهل الثغور " (١) بل ان يوسف بن تاشفين أخذ على ابنه علي — عندما ولاه العهد سنة (٤٩٦)هـ — شروطا منها ترتيب سبعة عشر ألف فارس في مدن الاندلس وثغورها لكل ثغر عدد معلوم وذلك للدفاع عن الاندلس والمرابطة في الحصون المصاقبة للعدو . (٢)

ومن الملاحظ أن المرابطين قد استنفروا عناصر متعددة للجهاد في الاندلس فلم تقتصر جيوشهم على أهل الاندلس وحدها بل اشترك فيها كثير من أهل المغرب وقبائل افريقيا وكثير من الحشم والسودان كما كثر المتطوعة من القبائل العربية والبربرية (٣) وذلك بعد تلاشي الروح القبلية منها ، كما طلب المرابطون من أهل المغرب والاندلس بذل الاموال لمساعدة المجاهدين على مواصلة جهادهم (٤) وبالاضافة الى توحيد هذه العناصر واشراكها في الجهاد فقد أخذ المرابطون بنظام الخلافة الاسلامية وأبدوا طاعتهم للخليفة العباسي (٥) وذلك انسجاما مع سياستهم في جمع كلمة المسلمين ،اذ كان بمقدور يوسف بن تاشفين أن يتخذ لقب الخلافة مثل خليفتي بغداد والقاهرة آنذاك ، وذلك لما يتوفر له من أسباب القوة والسلطان .

---

(١) الحلل الموشية / ٨٢ .

(٢) الحلل الموشية / ٨٠ .

(٣) الانيس المطرب / ١٦٤ .

(٤) الاستقصا ٢ / ٥٩ .

(٥) انظر : صبح الأعشى ١٠ / ٣١ — ٤٥ ، مقدمة ابن خلدون ١ / ٤١٣ .

لقد أحسّ النصارى بعداء شديد نحو العالم الاسلامي في الأندلس وفي المشرق أيضا ، فعمدوا الى اذكاء نار الحروب الصليبية والى الربط بين احتلال ثغور الاندلس واحتلال مناطق واسعة في المشرق الاسلامي ، بل ان ابن الاثير يجعل سقوط طليطلة سنة (٤٧٨ هـ) بداية تنفيذ الحركة الصليبية في الاندلس وفي باقي ارجاء العالم الاسلامي آنذاك خاصة في بلاد الشام، (١) ، والجدير بالذكر انه بعد نجاح الحملة الصليبية الاولى على المشرق وبعد سقوط كثير من معاقل الاندلس وثغورها كثفت الكنيسة من دعوتها للحروب الصليبية في الاندلس (٣) فمنحت المحاربين اموالا كثيرة من اموال الكنائس كما اصدر البابا مرسوما حرم فيه على رجال الدين والفرسان الاسبان المشاركة في الحروب الصليبية في المشرق ، وذلك لان محاربة المسلمين في اسبانيا تفوق اهمية وقدرا محاربتهم في المشرق (٤) وترتب على هذا ان اعدادا كبيرة من صليبيي اوروبا تدا[illegible] هرعت

---

(١) انظر : الكامل ١٠/٢٧٢-٢٧٣.

(٢) البيان المغرب ٤/٥٨ ، الحلل الموشية /٤.

(٣) البيان المغرب ٤/٥٨.

(٤) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب /١٤٠.

الى اسبانيا لتساهم في حرب صليبية أقرب سبيلا وأقل مشقة [1] ، وكانت نداءات البابا الى نصارى اسبانيا بعدم الذهاب الى المشرق حافزا على زيادة حماسهم في قتال المسلمين وحافزا في تجمع أعداد كبيرة من المقاتلين من مختلف أنحاء أوروبا ومن جنوب فرنسا خاصة [2] حيث تولى دير كلوني [3] تشجيع هؤلاء على محاربة المسلمين وطردهم من الاندلس .

وبفضل اضطرام الحماس لدى النصارى لهذه الحرب فقد نشأت جماعات الفرسان الدينية في الاندلس ، وذلك على غرار جماعات الفرسان في المشرق ، بل ان بعض الجماعات في المشرق كان لها فروع في الاندلس كالاسبتارية والداوية ، وقد لقيت هذه الجماعات التشجيع من الكنيسة ورجال الدين والملوك ، حتى أن الفونسو المحارب أبدى رغبته في تقسيم مملكته الى عدة أقسام تتولى هذه الجماعات قسما منها [4] كما كان النصارى يقاتلون المسلمين يتقدم صفوفهم الرهبان والقديسون والاساقفة [5] وفي أحيان كثيرة كانوا يعمدون الى حمل رفات هؤلاء القديسين مع الجيوش الغازية امعانا في اذكاء الحرب [6] . وفي الجانب الاسلامي فقد كان الفقهاء والعلماء

---

(١) نظم الجمان / ٢٠ .

(٢) الانيس المطرب / ١٦٣ .

(٣) كلوني : مدينة في فرنسا أنشيء فيها دير كلوني للآباء البندكتيين ، ومن هذا الدير برزت حركة دينية وثقافية في القرن الحادي عشر لم تلبث أن عمّت أوروبا ، وأخذ هذا الدير على عاتقه تحريض النصرانية على خوض حرب صليبية ضد المسلمين ، في تاريخ المغرب والاندلس/ ٢٨٣ .

(٤) أوروبا العصور الوسطى / ١/ ٥١ .

(٥) البيان المغرب ٤/ ٩١ ، الثغر الأعلى الأندلسي / ١٢٩ .

(٦) انظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين / ١٦٤ - ١٦٥ .

يتقدمون صفوف المسلمين يحضونهم على الجهاد والبذل [1] ، مما يعني أن الحافز الديني كان يحدو بالفريقين الى مواصلة الصراع ، ولكن هذا لم يكن خالصا لدى الصليبيين [2] ، بل كان ستارا يخفون تحته اطماعهم في السلب واغتصاب أرض المسلمين حتى أن بعض الفئات كالرهبان وجماعات الفرسان كانوا يتنافسون في جمع الأموال واستحواذها [3] في حين كان المرابطون يدافعون جيوش النصارى ويحاولون ايقاف زحفهم على الاندلس [4] : الزحف الذي رعته البابوية وتوفرت له امدادات الممالك النصرانية [5] والذي كان يستهدف المسلمين في عقيدتهم وأوطانهم وحضارتهم : فملك قشتالة (الفونسو السادس) عندما انتزع طليطلة سنة (٤٧٨)هـ اتخذها عاصمة له ونصب بها مطرانا ورفع فيها الصلبان على مآذن المساجد [6] وعرضت عليه شيعته أن يلبس التاج فيها وان يعيد عادة من سلف من ملوكهم ، فأرجأ قبول ذلك الى حين استيلائه على قرطبة [7] ، كما نقل ملك أراغون (الفونسو المحارب) عاصمته الى سرقسطة بعد احتلاله لها سنة (٥١٢) هـ وحوّل مسجدها الى كنيسة [8] واذاق المسلمين فيها صنوف العذاب ، ومن رسالة قاضي المدينة — إبّان حصارها — الى والي الأندلس أبي الطاهر تميم يتبين لنا مدى الشدة التي واجهت المسلمين ، فقد كتب

---

(١) الصلة ١/ ١٤٤ ، المعجم / ٤ ، نظم الجمان / ١٤ .
(٢) نظم الجمان / ٢٠ .
(٣) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٥ .
(٤) المعجب / ٢٦٦ .
(٥) الحلل الموشية / ٣ .
(٦) انظر : الحلل الموشية / ٤٧ — ٤٨ .
(٧) الذخيرة ق ٢ م ١/ ٩٢ ، وانظر : الذخيرة ق ٤ م ١/ ١٦٨ — ١٦٩ ، تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٢ .
(٨) الاستقصا ٢/ ٦٧ .

ستخينا " يا الله ! ويا للاسلام ! لقد انتهك حمـــــاه وفضّت عراه ! وبلغ المأمول من بيضته عداه ، وياحسرتاه على حضــــرة قد أشفت على شفى الهلاك ! طالما عمرت بالإيمان وازدهرت بإقامــة الصلوات وتلاوة القرآن ترجع مراتع للصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثـان . ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرّم ! وقد كان مأنوسا بتلاوة القـــرآن المعظّم تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ويؤملون أن يدنســــوه بقبيح آثامها ويعمروه بعبادة أصنامها ويتخذوه معاطن لخنازيرهـــا ومواطن لخماراتها ومواخيرها .. ثم ياحسرتاه على صبية أطفــــال قد نشئّوا في حجور الايمان ، يصيرون في عبيد الاوثان أهل الكفــــر وأصحاب الشيطان "(1) ، كما أحرقت جيوش السيد الكمبيطور مدينـــة بلنسية وأحالتها الى أطلال دارسة(2) ويصور ذلك ابن خفاجة فـــي رثائه لها وتحسره عليها :

عاثتْ بساحتكِ العدى يادارُ ومحا محاسنَكِ البلى والنـــارُ
وإذا تردّدَ في جنبا بك ناظـرٌ طالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبـــارُ
أرض تقاذفتِ الخطوبُ بأهلِها وتمخضتْ بخرابِها الأقـــدارُ
كتبتْ يدُ الحدثانِ في عرصاتِها(3) "لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديـارُ" (4)

وقد مارس النصارى مثل هذا التدمير والتخريب في أقليش(5) وصورتـــة التي

---

(1) الثغر الأعلى الأندلسي : ١٣٢/ .
(2) البيان المغرب ٤١/٤ .
(3) ديوان ابن خفاجـة / ٣٥٤ .
(4) هذا الشطر لأبي تمام ، ديوان أبي تمام ١٦٦/٢ .
(5) الثغر الأعلى الأندلسي : ١٣٣/ .

أصابهـــــا منهم " الصادم الهادم . الذي أطفأ نور الحياة وأخبأه وأوجب أن ينادي كل مسلم وآخر قلباه ، فأمر ميورقة .. صدع الجزيــرة .. فيا لله من اعلان توحيدها عاد همسا ويوم ايمان آض أمسا .. وبارقة كفر طلعت شمسا وصباح شرع أظلم بداجي الشرك وأمسى .. ونجــوم أصبح حرمها منتهبا وفرّقتها يد الغلبة أيدي سبا " (١) بل ان النصــارى كانوا يعملون على تنصير المسلمين (٢) وفي ذلك يذكر الخزرجــي (٣) صاحب كتاب "مقامع الصلبان" أنه ألف كتابه هذا ردا على أحـد قساوسة طليطلة الذي بعث اليه برسالة يشكك فيها بعقيدة المسلميـن ويدعوه الى التنصر قائلا : " باسم الأب والابن والروح القدس إلـه واحد ، سلام عليك أيها الفتى الإسماعيلي المسلم المحمدي أما بعـد حمد الله الذي هدانا بدينه وأيدنا بيمينه وخصّنا بابنه .. والـذي فدانا بدمه المقدس ، ومن عذاب الجحيم وقانا ورفع عن أعناقنا الخطيئـة .. ألم تسمع ما في الكتاب الذي جاء به صاحب شريعتك أنه روح اللـه وكلمتـه ... (و) انه يحيي الموتى .. ومن تمام رحمته أنه رضـي

---

(١) قلائد العقيان / ٢١٢ .

(٢) نفح الطيب ٤/٤٤٧ .

(٣) أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن عبد الحق الخزرجـي من أهل قرطبة ، نزل بجاية وسكن غرناطة وقتا ، روى عن البخـاري وأبي بكر بن العربي وعبد الله بن أبي الخصال ، وكان مهتمـا بالحديث وروايته وله من الكتب " آفاق الشموس وأعلاق النفـوس" و " مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الايمان " . توفي بمدينـة فاس سنة (٥٨٢)هـ وكان مولده سنة (٥١٩)هـ . ومما يجعلنـا نرجح انه قد ألف كتابه في فترة حكم المرابطين نص من الكتـاب نفسه يصفه بالصبي ، فقد " ألحق بطليطلة صبي من آل عبد الحـق الخزرجي يوصف بالذكاء وكان بها قس نسبه من القوط يكثـر من الاعتراض في الدين على نفر من المسلمين .. فجعلوا يرفعون سؤالاتهم الى الصبي فيجاوبهم عليها فأنكر القس جوابهم لعلمه انهم ليسـوا من أهل الذكر" ، فهو بذلك صبي عندما أسر ، كما ان مولده كان سنة (٥١٩)هـ وبذلك يكون عمره عند زوال حكم المرابطين ثلاثة وعشرين سنة ، ولا يستبعد ان يكون وقع في الاسر في فترة انشغال المرابطين بالدفاع عن دولتهم في المغرب ضدّ هجمات الموحدين . انظر : مقامع الصلبان / ٢٩-٣٠ ، جذوة الاقتباس / ١٤١ ، الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٣ .

بهرق دمه على خشبة الصليب .. واليهود تقر انها صلبته وأنتم تنكرون ذلك منكم ،و(ان)انكار الصليبية عندنا كفر فكل من ينكرها فهو كافر ، ولكنكم تعظمون المسيح فمن أجل ذلك أرتجي لكم أن يهديكم الله الى الحق وما عقائدكم الا حسنة .. فلو آمنتم بالمسيح وقلتم انه هو الله خالق السموات والارض لكمل ايمانكم "(١) ، ثم يتهم الدين الاسلامي بالزيف والبطلان قائلا "وأما دينكم فقد ألف كثير من أساقفتنا كتبا في الطعن فيه والرد عليه .. فرأينا انكم لستم على الحق وانما الحق معنا ولا فائدة في شريعتكم " (٢) .

وبذلك فقد كان الغزو الصليبي للاندلس يستهدف تغيير صبغة الحضارة الاسلامية بتغيير المعالم الدالة عليها كإحراق المدن وابادة السكان (٣) وتغيير المساجد الى كنائس، وطرد المسلمين من ديارهم واسكان النصارى مكانهم (٤) ومحاولة تنصير من يستطيعون من المسلمين (٥) . في حين كان المرابطون يدافعون عن الاسلام والمسلمين في الاندلس ويحاولون استنقاذ ما ضاع منها إبّان حكم ملوك الطوائف(٦) وقد اجتهدوا في ذلك ، فعمّرت المدن المهدمة وأزيلت معالم الشرك عن أماكن الايمان ، فأصلح المرابطون مدينة أقليش بعد استرجاعها واعيدت الى سابق عهدها في الاسلام " حتى علا الشركَ الايمانُ وبدّل

---

(١) انظر : مقامع الصلبان / ٣٠ — ٣٣ .
(٢) انظر : مقامع الصلبان / ٣٤ — ٣٥ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ٤٠ .
(٤) البيان المغرب ٤ / ٣٨ .
(٥) الذخيرة ق ٤ م ١ / ١٦٧ .
(٦) مذكرات الامير عبد الله / ١٠٣ ، الحلل الموشية / ٨٠ ، الانيس المطرب / ١٥٧ .

الناقوس بالأذان وزحزحت الهياكل عن موضعها وطرحت النواقيس"(١) وانجاب كرب المسلمين " وعادت بعد البوار ومجاورة الكفار .. دار طتهم"(٢).

وقد لمس أهل الأندلس اجتهاد المرابطين واخلاصهم في جهادهم ، فأصبح أمير المسلمين لديهم راعيا للاسلام واهله وحاميا لأرض المسلمين و "رحمة يحيى، غيثها ربوع الشريعة "(٣) وقد شهد لهم بذلك كبار العلماء كأبي بكر بن العربي فقال عنهم : إنهم القائمون " بدعوة الحق ونصرة الدين وهم حماة المسلمين الذابون عنهم والمجاهدون دونهم " (٤).

وفي الأدب فقد كانت قصائد الجهاد تلح على الشعراء، تتجلى فيها المعارك بين المسلمين والنصارى بصورة جهاد ديني بين التوحيد والشرك وبين الايمان وأهله من جهه والكفر وعبدة الأوثان والصلبان من جهة اخرى ، وفي ذلك يقول ابن الزقاق :

وهدمتَ مِن بِيَعٍ لهمْ وكنائسٍ وكنزتَ من صُلُبٍ ومنْ أوثانِ
فالدينُ موقوفٌ عليكَ رجاؤهُ أنْ يستباحَ الشركُ بالايمانِ (٥)

ولقد كانت طبيعة الصراع واضحة لدى أدباء هذه الفترة فدعا ابن خفاجة الأمير أبا الطاهر تميم - عندما ولي مرسية - أن يشن الحرب على النصارى الصليبيين قائلا :

---

(١) الثغر الأعلى الأندلسي /١٢٥.
(٢) الثغر الأعلى الاندلسي /١٢٦.
(٣) الحلل الموشية /٤٧.
(٤) الحلل الموشية /١٤٠.
(٥) ديوان ابن الزقاق /٢١٦.

وبدّدْ شملَ آمالِ الأعادي وطأ تيجانَ أربابِ الصليبِ
وسمهُمُ أنْ يخضّوا أو يعضّوا بعقبِ الحربِ أنملةَ الحريبِ (١)

وقد تنبه الشعراء والكتاب الى صليبية هذه الحرب ، ولذلك كثر ذكر الصليب في شعرهم ونثرهم فهو شعار أعدائهم ورمز الحرب التي يشنونها عليهم ، قال ابن عبد الصمد (٢) :

والخيلُ قدْ نكصتْ على أعقابِها والرومُ زرعٌ والرؤوسُ حصيدُ
وكأنّما كانتْ هناكَ كنائسٌ قدْ حانَ فيها للصليبِ سجودُ (٣)

والانتصار الذي يحرزه المرابطون هو انتصار للاسلام واعزاز لاهله ، يفرح به المسلمون في المغرب والمشرق ، وفي ذلك يقول الفقيه المفسّر ابن عطية مادحا القائد عبد الله بن مزدلي (٤) :

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٩١ .

(٢) أبو بحر يوسف بن عبد الصمد ، كان شاعرا زمن ملوك الطوائف ، وقد أكثر من رثاء دولة بني عباد ، كما أدرك دولة المرابطين ، ويرجع نسبه الى السمح بن مالك بن خولان الشهيد في بلاط الشهداء سنة (١٠٢) هـ ، الذخيرة ق٣م ١ / ٢٥١ ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ٢٠٣ .

(٣) الذخيرة ق ٣ م ٢ / ٨١٥ .

(٤) عبد الله بن مزدلي بن سولنكان يرتبط بترجوت جد يوسف ابن تاشفين ، وكان من كبار قادة المرابطين ، تولى غرناطة سنة (٥٠٨) هـ ، البيان المغرب ٤ / ٦٠ .

ضاءتْ بنور إيابكَ الأيامُ فاعتزَّ تحتَ لوائِكَ الإسلامُ
أمّا الجميعُ ففي أعزِّ مسرّةٍ لمّا أنجلى بظهورِكَ الاظلامُ
كمْ صدمةٍ لكَ في المدى مشهورةٍ غضّ العراقُ بذكرِها والشامُ (١)

والأدباء عندما يضعون الصراع في إطاره الاسلامي الشامل فهم بذلك يخرجونه من الاطار الإقليمي الضيق ويستقطبون أكبر قدر من المسلمين للمشاركة فيه (٢) ويدعمون الاتجاه الذى تبناه المرابطون بجمع كلمة المسلمين .

وقد صور الشعراءُ المسلمين على انهم " حزب الله " وجنده ، وهم بذلك يستمدون هذا المفهوم من صورة المسلمين المجاهدين قال التطليلي :

رأيتَ حزبَ اللهِ كيف يمتلي
لآخر من الطرازِ الأول (٣)

واذا كان الشعراء قد صوروا المسلمين وجيشهم على انهم " حزب الله " فانهم قد صوروا القائد على انه " ولي الله " وحامي عقيدة المسلمين قال ابن الزقاق :

ندبتْهُ أبكارُ الحروبِ وعونُها وبكاهُ حزبُ اللهِ والإسلامُ
ردّوا وليّ اللهِ حتى يُشتفى من أروعٍ شُفيتْ بهِ الآلامُ (٤)

وقال التطيلي :

وأنتَ للدنيا وللدينِ ولي
نيطتْ بكَ الآمالُ فاقطعْ وصلِ (٥)

---

(١) قلائد العقيان /٢٠٩ .
(٢) صدى الغزو الصليبي /١٤٠ .
(٣) ديوان الأعمى التطيلي /١٤٧ .
(٤) ديوان ابن الزقاق /٢٦٠ .
(٥) ديوان الأعمى التطيلي /١٤٧ .

وهذا القائد يكرس وقته للدفاع عن المسلمين ودينهم فهو الرجاء في صعاب الأمور وشدائدها، قال أبو عامر بن أرقم (١) في عبد الله بن مزدلي وكان مثال القائد المجاهد الذي يقضي جل أيامه في ساحات الجهاد :

يا أيها الملكُ الموهوبُ صولتُهُ والمرتجى غوثُه في الحادثِ الجللِ
بقيتَ للدينِ والدنيا تحوطُهُما إذا خلا الغمضُ في الأجفانِ والمقلِ (٢)

وليس للقائد في جهاده مطمع سوى الأجر والمثوبة ورد الأعداء عن ثغور المسلمين :

بادرتَ أجركَ في الصيامِ مجاهداً ماضاعَ عندكَ للثغورِ ذمامُ
وصمدتَ معتزماً وسعدُكَ منهضٌ نحو العدى وذليلُكَ الإقدامُ (٣)

ونتيجة لتزايد الحماس الديني في جهاد المرابطين وحرصهم على رفع راية الجهاد فقد أكثر الشعراء من ايراد هذه الفكرة في شعرهم : فكانت انتصارات المرابطين فتوحا تبتهج لها البلاد وتشرق وهي في الوقت ذاته هزائم منكرة على أعدائهم تملأ قلوبهم خوفا وفزعا وتضطرهم الى الهزيمة والفرار :

---

(١) أبو عامر بن أرقم بن أبي الأصبغ عبد العزيز بن أرقم، كان أبوه وزيرا للمعتصم بن صمادح ومن كبار أهل العلم في وقته، وقد نشأ أبو عامر في كنف أبيه وتعلم عليه فنبغ في الأدب والشعر. قلائد العقيان / ١٣٢، الذخيرة ق ١ م ٢ / ٧٤٠، نفح الطيب ٣ / ٤٩٨.

(٢) قلائد العقيان / ١٣٣.

(٣) قلائد العقيان / ٢٠٩.

فتحٌ أنارت له البلادُ كما أشرقتِ المقرباتُ للنهــــل
هدّت له الرومُ هدةً مـــلأتْ قلوبَ أبطالهم من الوجـــل (١)

وفي هذا الشأن يورد ابن عذاري أبياتا قالها أحد الشعـــراء ـ ولم يذكر اسمه (٢) ـ بعد انتصار أحرزه تاشفين بن علي سنة (٥٢٨) هـ ، يبين فيه أن هذا الانتصار الذي حققه المسلمون هو فتح كبير قيّضــه الله لهم :

للهِ يا يومَ العَرُوبةِ (٣) إنــهُ يومٌ على الدين الذميم كريــمُ
فتحٌ عظيمُ القدر يمن بشوُه فتحٌ يقلُّ لقدره التعظيـــمُ (٤)

وقد أكثر الشعراء من استيحاء الأحداث الكبيرة التي ســـرت المسلمين فاستلهموها ورددوها في أشعارهم ، فقال المعتمد يمدح يوســف ابن تاشفين اثر معركة الزلاقة :

غـزوٌ عليكَ مـــباركٌ في طيّه الفتحُ القريـــبُ
للهِ سيفكَ إنّـــهُ سخطٌ على دين الصليبِ
لابدَّ من يومٍ يكـــو نَ لهُ أخٌ يوم القليـــب (٥)

وعندما رجع علي بن يوسف عن طليطلة سنة (٥٠٣) هـ (٦) وقد استعصت عليه قال التطيلي مستوحيا حادثة رجوع الرسول الكريم عليــــه الصلاة والسلام عن مكة دون فتح مكتفيا بصلح الحديبية :

---

(١) خريدة القصر ٣/٥٠٦ .
(٢) لم أستطع الاهتداء الى اسمه .
(٣) العروبة : الجمعة ، لسان العرب ١/٥٩٣ .
(٤) البيان المغرب ٤/٨٩ .
(٥) ديوان المعتمد /٥٣ ، ويوم القليب : معركة بدر ، صحيح مسلـــم ٢/٦٤٣ ، لسان العرب ١/٦٨٩ .
(٦) البيان المغرب ٤/٥٢ .

لأمر ماردت الخيل عنهم وقد جعلت محاينهم تعين
وأسوتك الرسول وإن يشكو فعند جهينة الخبر اليقين
وهادن أهل مكة عن حماها وقد تكفي من الحرب الهدون
فما برحوا بها حتى أتوها تثير النقع موعدها الحجون
فإن تحرز طليطلة الليالي فسيفك ياعلي بها ضمين (١)

كما كانت وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام من الحوادث التي استذكرها الشعراء وربطوها بأحداث عصرهم ، فرثى ابن الزقاق أرقم ابن لبون (٢) وقد استشهد في احدى المعارك ، قال :

ما راعنا موت العزيز فلم يزل حيّاً لمن يتأول التنزيلا
لكن جزعنا للفراق وقد نوى عنّا إلى دار القرار رحيلا (٣)

ولمّا كانت حروب المسلمين ضد النصارى الصليبيين جهاداً في سبيل الله كان قتلاهم شهداء في جنات الخلد ، يتضح ذلك من رثاء ابن الزقاق لأرقم بن لبون قال :

كذبت ظنونك ما العزاء جميلا أو ما رأيت دم العلا مطلولا
عظم المصاب وقد أصيب بمعرك أخذت به منه العداة ذحولا (٤)

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي /٢٠٠.
(٢) أبو شجاع أرقم بن لبون ، كان واليا على وبذة من أعمال شنتمرية وهو أخ الوزير الكاتب أبو عيسى بن لبون ، استشهد سنة (٤٨١)هـ ، فرثاه ابن السيد البطليوسي وابن الزقاق . الذخيرة ق ٤ م١/ ١١٣ ، خريدة القصر ٣/ ٤٨١ ، تاريخ الاندلس / ٨٢ ، الحلة السيراء ٢/ ١٦٩.
(٣) ديوان ابن الزقاق /٢٤٣.
(٤) الذحل : الثأر ، لسان العرب ١١/ ٢٥٠ ، تاج العروس ٧/ ٣٢٩.

لبسَ الشهادةَ حلّةً حمراءَ من ... علقٍ تنمُّ السابريَّ فصولا
الله أنزلَهُ الجنانَ ومدَّ من ... رضوانهِ ظلاً عليهِ ظليلا (١)

ومن رثائه له أيضا :

وأبى لهُ إلا الشهادةَ ربُّهُ ... ومضاؤهُ والبأسُ والإقدامُ
ندبتهُ أبكارُ الحروبِ وعونُها ... وبكاهُ حزبُ اللهِ والإسلامُ
ردّوا وليَّ اللهِ حتّى يشتفي ... من أروعٍ شفيتْ بهِ الآلامُ
فابشر فدارُ الخلدِ منكَ بموعدٍ ... واهنأ ففيها غبطةٌ ودوامُ (٢)

ولما كان الجهاد سمة الحياة في الاندلس في عصر المرابطين فقد تحسّر الشعراء على من مات حتف أنفه ولم يسقط في ساحات الوغى ، يقول ابن خفاجة في رثاء محمد بن ربيعة (٣) :

وممّا شجاني أنْ قضى حتفَ أنفِهِ ... وما اندقَ رمحٌ دونَهُ ونَـابُ (٤)

وقد أكثر الأدباء والشعراء من نعت النصارى بالمشركين ، قال ابن خفاجة :

فحمتْ حريمَ المسلمينَ مصارعٌ
تركتْ حريمَ المشركينَ مباحا (٥)

وهم شياطين وأهل ضلالة يوجهم المسلمون فيمحون ضلالهم وشركهم قال ابن الزقاق :

---

(١) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٤٢ — ٢٤٥ .
(٢) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٠ .
(٣) أبو عبد الله محمد بن ربيعة ، من أهل جزيرة شقر ، سكن بلنسية وكان فقيها لها مقدّما في الشورى والفقه ، ت سنة (٤٨٧) هـ ، الصلة ٢ / ٥٣٠ .
(٤) ديوان ابن خفاجة / ٢١٩ .
(٥) ديوان ابن خفاجة / ٢٥٣ .

وارجم شياطين الوغى بكواكب
تمحو الضلال إذا التقى الجمعان
راياته والنصر معقود بها
كقلوب أهل الشرك في الخفقان (١)

وهم كفار وأعداء ، قال ابن شرف في رسالة بعث بها الى مراكش يخبر فيها بنصر أقليس سنة (٥٠١) هـ الذي أحرزه الأمير أبو الطاهر تميم : " والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الاسلام وغاظ به الكفار وجعل عليهم الكرّة " (٢) ثم يضيف " ولحقنا بطرف بلاد العدو ـ أبادها الله ـ فوطأناها " (٣) .

وقائد النصارى كان يدعى لديهم " الطاغية " (٤) و " عدو الله " (٥) .

---

(١) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٦ .
(٢) الثغر الأعلى الأندلسي / ١٢٤ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الثغر الأعلى الأندلسي / ١٢٦ .
(٥) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٤٢ .

دور الفقهاء في الجهاد :

لقد كان للفقهاء دور بارز في حركة الجهاد ، لا سيما وانهم يتمتعون بنفوذ واسع في بلاد المغرب والاندلس(١) ؛ فكانوا أيام ملوك الطوائف يدعون الى الجهاد ويحضون عليه ، ولما لم يسعفهم هؤلاء الملوك أخذوا يقودون ضد سياستهم المهادنة حملات المعارضة حتى دفعوهم الى الاستنجاد بالمرابطين (٢)؛ فأرسل المتوكل بن الافطس احد الفقهاء (٣) الى يوسف بن تاشفين يستنجد به عندما طرق النصارى غرب الاندلس سنة (٤٧٤)هـ وبعث معه رسالة يقول فيها : " وفي كتابي هذا الذي يحمله إليكم الشيخ الفقيه .. مسائل مجملة يفصلها ويشرحها ، ومشتمل على نكت هو يبينها لكم ويوضحها ؛ فانه لما توجه نحوك احتسابا وتكلف المشقة إليك طالبا ثوابا عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانه " .(٤)

كما خاطب المعتمد بن عباد المتوكل بن الافطس وعبد الله ابن بلقين في أمر الاستنجاد بالمرابطين — وذلك بعد سقوط طليطلة — فأرسل كل واحد منهما إليه فقيها فاجتمعا بقاضي الجماعة بقرطبة ثم توجها معه الى مراكش يطلبون النجدة من أمير المسلمين (٥).

وقد زاد نفوذ الفقهاء في دولة المرابطين ، وذلك راجع

---

(١) الحسبة في الاسلام / ٨.
(٢) الحلة السيراء ٢ / ٩٨.
(٣) لم استطع الاهتداء الى اسمه .
(٤) الحلل الموشية / ٣٥.
(٥) الحلة السيراء ٢ / ٩٩.

الى عدم الفصل بين الامور الدينية والامور السياسية في هذه الدولة، ولقيام الدولة على أساس ديني [1] فكان الفقهاء يشكلون معظم مستشاري امير المسلمين لايتخذ أمرا دونهم [2]. ولم يكن أمراء المرابطين في انسجامهم مع الفقهاء وتعاونهم معهم يصدرون عن ضعف، ولكنها سياسة الدولة عليها نشأت واستمرت [3]، فيحيى بن ابراهيم الجدالي استعان بالفقيه عبد الله بن ياسين عندما بدأ بتأسيس الدولة [4] كما استعان به في تعليم المسلمين وتفقيههم، كما كان هذا الفقيه يوجه الجيوش ويسيّرها: فقد وجه الجيوش الى سجلماسة ودرعة [5] سنة (٤٤٧) هـ وبدعوة من فقهائها ومنهم أستاذه وجاج بن زلّو [6] وذلك بعد أن فتح الصحراء وبلاد السودان [7] وقد واصل جهاده لبرغواطة حتى استشهد [8]، فقدّم المرابطون مكانه فقيها آخر هو سليمان ابن عدّو [9] ليرجعوا اليه في امور دينهم وليواصل حركة الجهاد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١/ ٤١٣.

(٢) انظر: البيان المغرب ٤/ ٧٣ – ٧٤، نظم الجمان / ١٠٧، المعجب / ٢٣٥، الاحاطة ١/ ١١٩.

(٣) الحلل الموشية / ٩٠.

(٤) المؤنس / ١٠٦.

(٥) درعة: مدينة في جنوب المغرب الاقصى، وتقع في غرب سجلماسة وأكثر تجارها من اليهود. معجم البلدان ٢/ ٤٥١.

(٦) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٧٥.

(٧) الانيس المطرب / ١٢٧.

(٨) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٧٦.

(٩) سليمان بن عدّو: أحد فقهاء دولة المرابطين خلف عبد الله بن ياسين بعد استشهاده سنة (٤٥٠) هـ وواصل الجهاد في المغرب بعده حتى استشهد في حربه لبرغواطة سنة (٤٥١) هـ – أيام إمارة أبي بكر بن عمر – ومن الغريب أن المصادر التي وصلتنا لم تذكر شيئا عن هذا الفقيه اللّهم الّا هذه الاشارة المختصرة عند ابن خلدون. انظر: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٧٦ – ٣٧٧.

ويوجهها [1] وهذا يؤكد الدور الكبير الملقى على عواتق الفقهاء .

ومن الملاحظ أن التعاون بين الفقهاء وأمراء المسلمين قد استمر حتى سقوط الدولة ، فكان الأمراء يستعينون بالفقهاء ويستشيرونهم في كل شؤون الدولة [2] ، وكان هؤلاء الفقهاء يعلمون المسلمين ويفقهونهم ، وبذلك فقد كان هؤلاء الفقهاء رجال علم ودين وفي الوقت ذاته رجال دولة يخططون سياستها ويصلحون أمورها بالتعاون مع أمير المسلمين ووزرائه وكتابه [3] ، فكان مفهوم الجهاد لديهم يشمل العلم والعمل ، فمن ذلك أن أبا الوليد بن رشد -وهو المجاهد الذي يعيش الجهاد ويدعوا اليه - قد أفتى بسقوط فرض الحج عن مسلمي الأندلس عندما سأله أمير المسلمين علي بن يوسف عن فرض الحج وفرض الجهاد أيهما أفضل ؟ فأجاب " .. وفرض الحج ساقط عن أهل الاندلس في وقتنا ، لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطا في الوجوب ، لأن الاستطاعة القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال وذلك معدوم في هذا الزمان .. فبان .. أن الجهاد .. أفضل منه وأنّ ذلك أبين من أن يحتاج الى السؤال عنه " [4] ، وقد يكون ابن رشد في فتواه هذه يصدر عن قوله تعالى : " أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون " [5] وفي

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٧٦ .
(٢) نظم الجمان / ١٠٧ ، الحلل الموشية / ٩٠ .
(٣) قلائد العقيان / ١١٠ .
(٤) نوازل ابن رشد / ١٨ .
(٥) سورة التوبة آية ١٩ .

الصحيحين " انه صلى الله عليه وسلم سئل أي الاعمال أفضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله . قيل : ثم أي ؟ قال : ثم جهاد في سبيل الله . قيل : ثم أي ؟ قال حج مبرور " (١)، فابن رشد في تفضيله للجهاد يعتمد على نصوص من الكتاب والسنة ، ومثل هذه الفتوى أصدرها ابن تيمية في ظروف مشابهة للظروف التي أصدر فيها ابن رشد فتواه هذه (٢).

كما حدد ابن رشد مفهوم الجهاد والمرابطة : " ليس من سكن الثغر بأهله وولده مرابطا وانما الرباط من خرج من منزله معتقدا الرباط موضع الخوف " (٣)، ويظهر أن الجهاد مفهوم واسع لدى ابن رشد اذ الرباط لديه " شعبة من شعب الجهاد وهو ملازمة الثغور لحراسة المسلمين وهو مأخوذ من الربط لانه اذا لازم الثغر فكأنه قد ربط نفسه به .. والاجر فيه قدر الخوف من ذلك الثغر وحاجة أهله الى حراستهم من العدو " (٤)، ونلاحظ أن ابن رشد يشدد على ضرورة المرابطة في موضع الخوف من الثغور المصاقبة للعدو لما في ذلك من حماية المسلمين من النصارى ولما في ذلك من المثوبة، قال صلى الله عليه وسلم : " كل الميّت يختم على عمله ، الا المرابط فانه ينمو عمله الى يوم القيامة ويؤمّن من فتان القبر " (٥) . وقد ظل

---

(١) شرح صحيح البخاري ١/ ١٢٦.
(٢) انظر : الفتاوى الكبرى ٤/ ٦٠٨ — ٦٠٩.
(٣) انظر : المقدمات الممهدات/ ٢٥٨ ، ٢٧٦.
(٤) المقدمات الممهدات / ٢٧٥.
(٥) سنن أبي داود ٣/ ٢٠.

مفهوم المرابطة هذا موجودا في الأندلس حتى سقوطها وذلك لأنها دار حرب ، يقول ابن هذيل [١] : الرباط هو " الثبوت واللزوم .. والمندوب اليه شرعا ملازمة الثغور والثبوت بها على السار والمحذور " [٢] وتعريف ابن هذيل هذا على تأخره لايختلف عن تعريف ابن رشد .

ويدعو أبو بكر بن العربي الى الجهاد في الأندلس فيقول في تفسيره لقوله تعالى : " انفروا خفافا وثقالا " [٣] : ان العدو قد جاس في أرض المسلمين سنة (٥٢٧هـ) " فقال للوالي والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة فلتكن عندكم بركة ولتكن منكم الى نصرة الدين .. حركة فليخرج اليه جميع الناس .. فيحاط به فانه هالك لامحالة ان يسركم الله له ، فغلبت الذنوب ورجفت بالمعاصي القلوب وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي الى وجاره وان رأى المكيدة بجاره " [٤] .

---

(١) ابن هذيل : هو علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي ، أحد علماء الأندلس في القرن الثامن الهجري له كتاب " عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة " صدرت الطبعة الثانية منه سنة ١٩٣٨ ، وله " حلية الفرسان وشعار الشجعان " وقد حققه محمد عبد الغني حسن ونشرته دار المعارف سنة ١٩٤٩ ، وله " تحفة الأنفس وشعار سكان أهل الاندلس " مطبوع على الحجر سنة ١٩٣٣ في باريس ، ومن الغريب أننا لانجد في المصادر التي وصلتنا ترجمة خاصة لابن هذيل .

(٢) تحفة الأنفس وشعار سكان أهل الاندلس /٨٠ .

(٣) سورة التوبة آية ٤١ .

(٤) أحكام القرآن ٢/٩٤٣ .

ويذكر الغزالي في رسالته لابن تاشفين أن ابن العربي (الوالد) أبى الاقامة في بغداد بعد أن أخذ عهد الخليفة العباسي لامير المسلمين يوسف بن تاشفين " فقد دعي الشيخ الفقيه السمو المقام ببغداد على البر والكرامة والاتصال بأسباب يتشرف بها من حضرة الخلافة فأبى الا الرجوع الى ذلك الثغر يلازمه للجهاد "(١)، وبذلك فقد آمن هذا الفقيه بالجهاد على معناه الحقيقي غير مكتف به في ميادين العلم والسياسة .

ولا يرى الفقيه الطرطوشي ت (٥٢٠)هـ عملا أجدر بالاداء من واجب حماية بلاد المسلمين في الاندلس فقال في رسالة بعث بها الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : " فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الاندلس لانك أقرب الملوك اليها وعندك الكراع والسلاح ولامة الحرب وآلتها وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك .. ولقد كنا في الارض المقدسة - جبر الله مصابها -(٢) تترى علينا أخبارك وما قمت به من اداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه واعزاز دينه وكلمته وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحملة الدين والعبّاد والزهّاد والمنقطعين الى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يديك ، فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الارض فقد

---

(١) مجموع أوله كتاب الانساب لوحة ١٣٢/ .

(٢) يقصد بلاد الشام - والقدس خاصة - اذ كان يعيش فيها في هذه الفترة ، وقد كانت هذه المنطقة تتعرض لهجوم صليبي مشابه للهجوم الذى تعرضت له الاندلس ، العواصم من القواصم / ١٤ .

كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء " [1] ورسالة الطرطوشي هذه تدعم الفكرة القائلة بترابط الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي والأندلس معا [2] ، وذلك لتعرض الجهتين الاسلاميتين لهذه الحرب في وقت واحد ، ولاتسام هذه الحرب من جانب الصليبيين بالروح الصليبية نفسها سواء في المشرق أو في الأندلس ، فهم يرمون الى إزالة حضارة قائمة وإحلال حضارة أخرى مكانها .

ولقد شارك الفقهاء في معارك الجهاد أيضا ولم يكتفوا بالحض عليه ، ففي غزوة طلبيرة سنة (٥٠٣) هـ كان أبو عبد الله بن حمدين ت (٥٠٨) هـ يتقدم صفوف المجاهدين في المعركة ويحرضهم على التضحية والبذل [3] ، كما استشهد الفقيه أحمد بن ثابت الصوفي في منصرف الجيوش من غزو برشلونه [4] في احدى الوقائع مع النصارى [5] ، وممن استشهد من الفقهاء الفقيه أبو علي الصدفي ـ شهيد كتندة سنة (٥١٤) هـ ـ وكان من أبناء الستين ، كما كان يلقي الدروس في الحض على الجهاد والثبات [6] واستشهد معه كذلك الفقيه ابن

---

(١) انظر : مجموع أوله كتاب الانساب لوحة / ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) الكامل ١٠ / ٢٧٢ .

(٣) نظم الجمان / ١٤ .

(٤) برشلونة : مدينة للنصارى على البحر المتوسط وهي موقع مهم بالنسبة لهم ، وسكانها من اليهود والنصارى ، وتكثر فيها الحنطة والحبوب . الروض المعطار / ٨٦ .

(٥) التكملة ١ / ٢٩ ، وأحمد بن ثابت الصوفي هو الفقيه الوزير أحمد ابن ثابت بن عبد الله الصوفي ، استشهد في وقعة البورت عند رجوع الجيوش من غزو برشلونة ، وكان المسلمون قد أخذوا فيها على حين غرة ، وكان استشهاده سنة (٥٠٨) هـ . التكملة ١ / ٢٩ .

(٦) الصلة ١ / ١٤٤ .

الفراء [1]، وقد استشهد في هذه المعركة نحو عشرين ألف من المسلمين [2]، وسئل الفقيه أبو بكر بن العربي عن حالة وقد نجا من هذه المعركة فقال : " حال من ترك الخباء والعباء " [3]، دلالة على شدة الهزيمة التي لحقت بالمسلمين . كما قتل السيد الكمبيطور قاضي بلنسيه وفقيهها ابن الجحاف عند احتلاله للمدينة [4]، وذلك عقابا له على قيادته حركة الجهاد ودفاعه عن المدينة اذ " لم يكن غضب الطاغية عليه الا لشدة صبره على تلك الازمة واجتهاده في طلب النصرة " [5] .

وكان الفقيه المفسّر عبد الحق بن غالب بن عطية يكثر من الغزو في جيوش المرابطين ، وهو من كبار فقهاء الاندلس وعلمائها آنذاك ، ولابيه أبي بكر غالب بن عطية أبيات يتشوقه بها وقد خرج مجاهدا في جيوش المرابطين وأطال الغياب في احدى الغزوات قال :-

يا نازح الدار لم يحفل بمن نزحت
دموعه طارقات الهم والفكر
غيبت شخصك عن عيني فما ألفت
من بعد مرء آك غير الدمع والسهر

---

(١) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكريا ، من أهل المرية ، يعرف بابن الفراء ، كان قاضيا لبلدته المرية ، عرف بالصلاح والتواضع ، وقد سمع الناس منه وأخذوا عنه . الصلة ٢/٥٤٢ .

(٢) انظر : المعجم / ٤ — ٥ .

(٣) المعجم / ٥ .

(٤) البيان المغرب ٤/٣٧ .

(٥) البيان المغرب ٤/٣٨ .

قدْ كانَ أرْسى جهادي في مواصلتـــي
لاسيّما عندَ ضعفِ الجسمِ والكِبَـر
اعتلّ سمعي وجالَ الضرُّ في بصـري
باللهِ كنْ أنتَ لي سمعي وكنْ بصري [١]

من كل ما مضى يظهر لنا أن الصراع كان قائما بين عقيدتيـن : بين الإسلام والنصرانية الصليبية وبين الايمان والكفر وبين التوحيد والشرك . وقد لاحظنا أن الصراع كان من جانب المرابطين جهادا خالصا يهدف الى الدفاع عن الإسلام والمسلمين [٢] ، في حين كان من جانب النصارى الصليبيين محاولة لاقتلاع الحضارة الإسلامية من الاندلس وهدم معالمها . وقد ظهر لنا أيضا أن الفقهاء قد قاموا بدور كبير في حركة الجهاد ، وذلك لشعورهم بخطورة الغزو الصليبي ولمعرفتهم — أكثر من غيرهم — أن الجهاد هو السبيل الى الانتصار ، فكانوا يساهمون في الإعداد له بتحريض المسلمين عليه [٣] لقوله تعالى : " يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال " [٤] ، كما كانوا يشاركون في المعارك مع سائر المجاهدين .

---

(١) المعجم / ٢٧١ .
(٢) تاريخ اسبانيا الاسلامية / ٢٤٥ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ١٣٦ .
(٤) سورة الانفال آية ٦٥ .

الفصـــــل الثالـــــث

الجهـاد في الأدب الأندلســي عصـر المرابطيـــن :

أ) أثر الجهـاد في الشعــر .

ب) أثر الجهاد في أدب الكتاب والمترسلين .

الفصل الثالث

الجهاد في الأدب الأندلسي عصر المرابطين

أثر الجهاد في الشعر :

لم يكن جهاد المرابطين في الأندلس غارات سريعة أو مجرد ردود فعل لهجمات النصارى الصليبيين ،بل كان جهادا منظما يهدف الى حماية الاسلام والمسلمين[1] تصدر الأوامر فيه عن ديوان أمير المسلمين أو عن والي الأندلس المعين من قبله ، اذ أن جهادهم يقوم على تخطيط واعداد مسبق يتناسب والخطر الصليبي . وعليه فقد كثرت اللقاءات الحربية بين المسلمين والنصارى في الأندلس ، وتميزت هذه اللقاءات بالعنف والحدة ،واذا أخذنا برأي ابن سلّام الذي يقول بأن الشعر " يكثر . . بالحروب "[2] فاننا نلاحظ أن الجهاد الذي خاضه المرابطون في الأندلس قد دفع كثيرا من الشعراء الى قول الشعر ، كما وفّر مجالات جديدة تستدعي القول فيها ،لاسيما وأن هذا الجهاد قد كان له أثر كبير في نفوس المسلمين عامة والشعراء خاصة وهم الذين يتمتعون بشعور أكثر حساسية لمثل هذه المواقف .

وقد ظهر أثر الجهاد واضحا في جوانب الحياة المتلفة بشكل عام ، ولم يقتصر على الأدب وحده ،اذ كانت الأندلس في هذه الفترة تعيش في حرب دائم وتحت احتمالات الاكتساح في كل حين ،وقد كان للجهاد أثر في حياتهم العامة وفي نتاجهم الأدبي خاصة ، فأصبح الشعر فاعلا في هذه الفترة يدعو الى التصدي للأعداء ويبين الخطر المحدق بالأندلس ويمجّد البطولة والانتصارات ويخفف من وطء الهزائم

---

(١) الذخيرة ق ٢ م١ /٢٤٧.
(٢) طبقات فحول الشعراء ١ /٢٥٩.

التي تلحق بالمسلمين ويشحذ همم المجاهدين ويزري بالاعداء ، كما حاول أن يرسم صورة للجيوش المجاهدة والمعادية فوصف أسلحتها وخيولها ووصف المعارك ونتائجها ، وبذلك فقد ارتفع الأدب — بسبب الظروف الخطيرة التي مرت بها الاندلس وبسبب شعور الأدباء بهذا الخطر وبسبب طبيعة السياسة التي تأخذ بها الدولة تجاه الجهاد والهادفة الى حماية الاندلس والمسلمين فيها [1] — من أدب لاه الى أدب جاد يعنى بحاضر الأمة ومصيرها [2] ، كما آمن الشعراء بأن الجهاد — لا المسألة والخضوع — هو الكفيل بردع العدو المهدد لكيان الأمة والمتلهف على طردها وسلب أرضها ، فهو كما يقول عبد الحق ابن عطيّة عدوّ :

مقيمٌ فان لم يرغم السعدُ أنفه
ألمّ فوافى جانباً بعد جانب
لقتلٍ وسبيٍ واصطلام شريعة
لقد عظمت في القوم سوء المناصب [3]

لقد اهتم الشعر بالدعوة الى الجهاد والتحريض عليه وهجاء المتقاعسين عنه ، ووفق في رسم صورة الجيش بأسلحته وأعتدته المختلفة وخيوله ، وحاول أن يرسم صورة المعارك التي دارت بين المسلمين والنصارى الصليبيين ، كما شطت عنايته أغراضا أخرى تبحث في مكانها في الفصول التالية ، مؤكدين أن كل هذه الموضوعات هي من آثار الجهاد في الشعر والأدب عامة ، وهي موضوعات متكاملة لا يسوّغ الفصل بينها الا البحث والدراسة .

---

(١) تاريخ الفكر الاندلسي / ١٢٣ .
(٢) قلائد العقيان / ٢١٢ .
(٣) المصدر نفسه .

ولما كان الشعراء على قدر كبير من التنبيه واليقظة فقد لاحظوا ما كانت تعاني منه الاندلس من التفرق والتشتت قبيل دخول المرابطين لها ، فدعا بعضهم الى الاتحاد ولمّ الصف ، والحوا بالّلائمة على مسببي الفرقة ، وهجوا بعض المتقاعسين - واللاهين بملذاتهم عن المسؤولية الكبرى ، فوصف السميسر عبد الله بن بلقين — وقد عكف على تشييد القصور رغم الأخطار المحدقة — بالسفاهة والحمق فقال عنه :

بيني على نفسه سفاهاً كأنّه دودة الحرير
دعوهُ يبني فسوف يدري اذا أتت قدرةُ القدير (١)

وقال أيضا في ملوك الطوائف عامة — متشفيا بهم وقد أديل منهم — ان ما أصابهم هو جزاء لما اقترفوا من ظلم العباد واذلالهم ، كما أنه لا يبدي لما أصابهم شفقة ولا رحمة ، اذ لا صلة بينهم وبين المسلمين ، وهم الذين كانوا يمالئون العدوّ ويسترضونه بارهاق شعوبهم بالضرائب والاتاوات ، يقول :

يا مشفقاً من خمول قوم ليس لهم عندنا خلاق
ذلّوا وطالما أذلّوا دعهم يذوقوا الذي أذاقوا (٢)

لقد دعا الشعر الى الجهاد ، وكان الشعراء يحرّضون عليه في كل مناسبة ، ويحلمون بمن يخلصهم من أعدائهم ، بل ان ابن بسام الشنتريني يؤكد أن المعتمد بن عباد قد جاز الى المغرب مستنجدا بالمرابطين (٣) ويورد لابي بكر بن العطّار (٤) قصيدة يحلم فيها بجيش من المرابطين

(١) الذخيرة ق ١م ٢/ ٨٨٧ ، نفح الطيب ٣/ ٤١٢ .
(٢) الذخيرة ق ١ م ٢/ ٨٨٦ .
(٣) الذخيرة ق ١م٤/ ٣٧٦ .
(٤) أبو بكر بن العطار اليابسي ، واحد من نحاة اشبيلية وأدبائها وظرفائها ، قلائد العقيان / ٢٨٣ ، خريدة القصر ٣/ ٥٢٣ .

يرجع به المعتمد لينقذ الأندلس من النصارى ، يقول :

فالأرض تَطْلعُ من جيش قطعت بـه
والجوّ يمطر فيه من قنا وظبا
جيش إذا ما قتام النقع جلّلـه
كانت سيوفك ناراً والعدى حطبا
من كل ملتثم والبيض سافـرة
والشمس قد كسيت من قسطل حجبا
وليس ينفك من سحب تظللـه
إن لم تكن رهجا كانت دخان كبا (١)(٢)

وقد تحمل الشعراء قسطا كبيرا من عبء الدعوة للجهاد ، فدعـوا القادة الى حسن الاعداد ومواصلة الجهاد ، قال التطيلي يحض أبابكـر ابن تيفلويت على جهاد العدو وحماية المسلمين مذكرا بأن التقاعس والركون الى الراحة لم تفد من سبق من ملوك الطوائف ولم تجرّ على المسلميـن الا الذلة والهوان :

توخ العلا في ظلال الرماح | فقد أعوزت في ظلال الكلل
وصن حرم الملك أن يستباح | فسيما الممالك أن تبتذل
تدارك أبا بكر المسلميـن | فقد نهل الضيم منهم وعل (٣)

ويطلب ابن خفاجة من أبي الطاهر تميم — عندما ولي موسيـقـ أن يجدّ في الدفاع عن المسلمين وفي مهاجمة أعدائهم مغريا بهم مهونـا أمرهم ، يقول :

---

(١) كبا : النار علاها الرماد وتحتها الجمر ،لسان العرب ١٥/ ٢١٤ .
(٢) أنظر : الذخيرة ق ٤ م ١/ ٣٧٧ — ٣٧٨ .
(٣) ديوان الأعمى التطيلي / ١٣٠ .

وهلْ جمعُ العدى إلّا هشيمٌ ‏ وهلْ بيضُ السيوفِ سوى لهيبِ
فقلْ للخيلِ والابطالُ شوسٌ ‏ ألا كرّي وقلْ للسمرِ غيبي
وبرّدْ حرَّ أحشاءِ الموالي ‏ وخضخضْ لجةَ العلقِ الصبيبِ (١)

كما دعا ابن سارة الشنتريني أبا بكر بن ابراهيم بن تيفلويت الى غزو النصارى وذلك عندما قدم غرناطة واليا على الاندلس سنة (٤٩٩) هـ، قال :

واقذفْ ثغورَ المشركينَ بجحفلٍ ‏ يمحو معالمَ أرضِها ومنارَها
لجبٍ تظنُ السابغاتِ به أضاً ‏ زرقاً ونقعَ السابحاتِ بحارَها
لا ترتضي منهمْ بالنفوسِ تحوزُها ‏ سمرُ القنا حتى تحوزَ ديارَها
وترى بها عيناكَ ليلَ ضلالِها ‏ ويد الهدى فيها تشقُ ازارَها (٢)

وحتى في الوقائع التي لم يكن النصر فيها للمسلمين لم يخف الشعراء عن الدعوة لجولة أخرى، فاستنهضوا الهمم وأمّلوا برجعة أخرى يكتب الظفر لهم فيها، ومن ذلك ما قاله التطيلي يروّح عن أمير المسلمين علي بن يوسف — وقد رجع عن طليطلة سنة (٥٠٣) هـ دون فتح — ويتنبأ برجعة أخرى :

فإنْ تحرزْ طليطلةَ الليالي ‏ فسيفُكَ يا عليُّ بها ضمينُ
أبا حسنٍ وغايةَ كلِ حسنٍ ‏ وفعلُكَ لا يضمُّ إليه شينُ (٣)

وقد تحدث بعض الشعراء عن الاسر الذي وقعوا فيه في ساحات المعارك، وهذا اللون من الشعر على قلته يركّز على تصوير الحالة

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٩٣.
(٢) خريدة القصر ٣/ ٣٢٧.
(٣) ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠٠.

التي أسر فيها المجاهد ، ويبين سوء الحال التي آل اليها ، فمن ذلك ما قاله محمد بن سوّار الاشبوني يبين كيفية أسره وقد سقط في يد النصارى وأودع في سجن قورية (١) :

سريتُ وأصحابي يميلُهُمُ الكرى   فهمْ منهُ في سكرٍ وما بهمْ سكرُ
ولمّا بدا وجهُ الصباحِ تطلّعتْ   خيولٌ من الوادي معجلةٌ غُرُّ
فقلتُ لهمْ : خيلُ النصارى فشمّروا   إليها وكرّوا هاهنا يحسنُ الكرُّ
وكانت حميّا النومِ قد سرّحتهم   فَوَلّوا وولوا مدبرينَ وما فروا
وأفردتُ سهماً واحداً في كنانةٍ   من الحربِ لا يخشى على مثلهِ الكسْرُ
وكنتُ عهدتُ الحربَ مكراً وخدعةً   ولكنْ معَ المقدورِ لا ينفعُ المكرُ
فطاعنتُهُمْ حتى تحطّمتِ القنا   وضاربتُهُمْ حتى تكسرتِ البترُ
أضرّجُ أثوابي دماً وثيابَهم   كأنَّ الذي بيني وبينهمُ عطرُ
وأحدقَ بيَّ الموتُ يكشرُ نابه   ومنظرهُ جَهْمٌ وناظرهُ شزرُ
فأعطيتُها وهي الدنيةُ صاغراً   ولو كانَ لي في الموتِ لو يدّني عذرُ
فطاروا وطاروا بي إلى مستقرهِمْ   يصاحبني ذلٌّ ويصحبُهُمْ أسرُ (٢)

ونلاحظ أن الشاعر في قصيدته هذه يستحضر موقف أبي فراس الحمداني عندما أسره الروم (٣) ، فهو يصف كيفية أسره ويفخر بما أبداه من شجاعة في مقاومة أعدائه ، ثم يتطرق لصنوف العذاب الذي لقيه من النصارى الصليبيين أثناء أسره : فمن تهديد بالقتل الى شدة القيود وذل الأسر الى سوء الحالة النفسية التي يعاني منها ، قال :

---

(١) قوريـة : بالضم ثم السكون والراء مكسورة وياء خفيفة ، مدينة حصينة من نواحي ماردة ويحيط بها سور منيع . معجم البلدان ٤ / ٤١٢ ، الحميري المعطار / ٤٨٥ .
(٢) انظر : الذخيرة ق ٢م٢ / ٨١٥ — ٨١٦ .
(٣) ديوان أبي فراس / ١٥٧ .

فقالَ العذارى : حرّقوه مقارضاً (١) فمنْ قتلهِ الفتيانُ عُطّلتِ البكرُ
فجاءوا بأنواع الكبولِ ونظّموا سلاسلَ في جيدي كما يُنظمُ الدرُّ
وساقوا كلاباً كالفحولةِ أجسماً لها أعينٌ خضرٌ ملامحُها شزرُ
فضاقتْ عليَّ الأرضُ حتى كأنّها بما رحُبتْ ما كانَ في طولها فترُ (٢)

وقال عبد الله بن ابراهيم الحجاري متحسرا يشكو ذل الاسر — وقد وقع فيه أثناء خروجه في احدى الغزوات مع أمير سرقسطة المستنصر ابن هود — ويطلب من عبد الملك بن سعيد (٣) أن يفتكه من أسره :

أصبحتُ في بسقايةَ (٤) مُسْلَماً الى الاعادي لا أرى مُنْجِياً
مكلّفاً ما ليس في طاقتي مصفداً منتهراً موجعاً
أطلب بالخدمة واحسرتي والتي تقضي بأنْ أخدما
فهل من كريم يرتجى للاسير يفكّه أكرمُ به منتمى (٥)

وتظهر لنا معلومات غريبة من خلال شعر الاسر ، فمن شعر لابن سوار يتضح لنا أن أخا له قد تبرع بارتهان نفسه — لدى النصارى — مكانه ليتسنى له جمع الفدية ودفعها لهم ، فأتى ابنُ سوار قاضي الجماعة ابنَ حمدين يشكو اليه حاله وحال أخيه المرتهن لدى النصارى ، يقول :

---

(١) المقارضة : البدل ، وهي هنا بمعنى الثأر ، لسان العرب ٧ / ٢١٧ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٦١٦ .
(٣) عبد الملك بن سعيد صاحب القلعة وأحد الادباء المرموقين ، سجنه الموحدون عند انتقال دولة المرابطين ، المغرب في حلى المغرب ٤ / ١٦١ .
(٤) بسقايه : هي احدى ولايات مملكة نبرة (نافار) الواقعة على سفوح جبال البرنية ، الاحاطة ٢ / ٤٣٤ .
(٥) المصدر نفسه .

ولقد ذكرتك والعدوُّ يخنقني
والعلجُ يلطم صفحتي ويبينني
يوم العذاب والكلاب تزور
حولي ونشّابُ الردى ترديني
وتوهمونني بالغني وأضربني الـ
طال الذي أخذوه إذ أخذوني
قالوا : أعطنا ألفاً فقلت : مضاعفاً
لمّا رأيت الموت ملء جفوني
فبقيتُ عاماً في الإسار مصفدا
بسلاسل غرباً من التنين
لمّا يئستُ ولم تكن لي حيلة
أرسلتُ في ابن أبي فلان يفديني
وتركتُهُ بيد العدوّ موثقا
في ذل أغلال وضيق سجون
وردت رسائلُهُ عليّ فتارة
يشكو إليّ وتارة يشكوني
ولنا أخيّاتٌ وأمٌ أثكلت
وأخاف قبل الجمع وشك منون
فقلوبهم كالطير في خفقاته
وعيونهم في جريها كعيون (١)

ومن هذه القصيدة يتضح لنا ما كان يلاقيه هو وأخوه من بعده من العذاب البدني باللطم والضرب والنفسي بتهديده بالضواري من

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ٢ /٨١٧ .

الكلاب ، ويلاحظ تكرار هذه الفكرة الدينية في قصيدة أخرى (١) مما قد يعني أن النصارى كانوا يهددون الأسرى بها لابتزازهم — كما هو حال ابن سوار — وللانتقام منهم .

وبعد هذه الشكوى المريرة يبسط الشاعر رجاءه لقاضي الجماعة طالباً المعونة بافتكاك أخيه من الأسر — وهو الذي ترفع عن الاستجداء أنفة وعزة (٢) — فيقول :

فأتيتُ نحوك والرجاءُ يقودني وجميلُ ذكرك خلفهُ يحدوني (٣)

وقد كان الصراع بين المسلمين والنصارى الصليبيين عنيفاً وطويلاً ، وبذلك أتيحت الفرصة للشعراء بأن يعطوا فكرة مفصلة عن الجهاد بجيوشه وأسلحته وخيله ومعاركه :

فالجيش يتصف بالكثافة والكثرة ، يكسف الشمس ويحجب نورها ويملأ الأرض على الرغم من اتساعها ، قال التطيلي :

وجيشٍ لا يضيءُ الصبحُ منهُ مخافةَ أن تنوّرهُ العيونُ
يسيلُ على البسيطةِ منهُ سيلٌ عباباهُ الجواشنُ والشجونُ
به خُدَعُ المنى ورقى المنايا وصرفُ الدهرِ يخشنُ أو يلينُ
وما تدعو الرماحُ وما تلبي وما تخفي الصدورُ وما تبينُ (٤)

ويتصف الجيش أيضاً بالقوة وحسن التسلح ، مما يتيح النصر للمجاهدين ويجلب الهزيمة للأعداء ، فهو زاخر بالدروع والرماح والسهام والسيوف وغيرها من الأسلحة ، يقول ابن خفاجة :

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٨١٦ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٨١١ .
(٣) الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٨١٧ .
(٤) ديوان الأعمى التطيلي / ٢٠٠ .

واستقبلوا أُفقَ السماءِ بجحفلٍ ... نشرَ القتامَ على الشمالِ جناحا
قدْ ماسَ في أرجائهِ شجرُ القنا ... وجرى به ماءُ الحديدِ فساحا
مطرَ الأعاجمَ منهُ عارضُ سلاسوقٍ ... برقُ الحديدِ بجانبيهِ فلاحا
زحمتْ مناكبُهُ الأعادي زحمةً ... بسطتهمُ فوقَ البطاحِ بطاحا
قدْ أتربتْ منهمْ صحائفُ أوجهٍ ... جعلتْ تمزّقها السيوفُ جراحا
فلو اطّلعتَ لما اطّلعتَ على سوى ... سيفٍ تثلّمَ في قتيلٍ طاحا (١)

ويرسم ابن الزقاق صورة الجيش مقدام يمتطي خيولا أصيلة سريعة يحمل الأسلحة الكثيرة ليشخن بها في العدو ، فيحصدهم ويبيدهم ، يقول :

آجامُ أشبلهِ القضابُ من القنا ... وبروجُ أنجمهِ من الأرسانِ
ما إنْ تبني الخضراءُ في رهجٍ بهِ ... يسمو ولا الغبراءُ في رجفانِ
وجنودهُ كالأسدِ مألفها الشرى ... والصافنات الجردُ كالعقبانِ
تمشي الونى تحت الفوارسِ في الوغى ... متبخترات مشيةَ النشوانِ
تطأ الجماجمَ تحتهمْ فكأنّما ... قد أنعلوا بالهامِ كلَّ حصانِ (٢)

ويصوّر أبو بكر بن بقي جيش المرابطين المغير على قلمرِيّة بصورة رائعة سريعة تتلاحق أجزاؤها وتتتابع عناصرها ، فالجيش يغير على عدوه فيغلبه ويسبيه ويسفر لقاؤه به عن انتصار ساحق للمسلمين عليه ، يقول :

قالوا : لعلّ ظباءً أقبلتْ سنحاً ... إلى خمائل ترعاهُنَّ أو تردُ
تلك الظباءُ عرابُ الخيلِ دونكمُ ... نهدٌ وورد وذيّالٌ ومنجردُ

---

(١) انظر : ديوان ابن خفاجة / ٢٥١ — ٢٥٢ .
(٢) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٦٨ — ٢٦٩ .

مِنْ كلِّ سابحةٍ طارتْ بفارسِهـا كأنّها لقوةٌ في عطفِها أسـدُ
بسببهمُ الجيشُ ما امتدتْ أعنّتُهُ كالنارِ توسعُ حرقاً كلَّ ما تجـدُ
فكانتِ الخيلُ تطعمُ دواهمهُ والمشرفيةُ تلتاعمْ فتتقـدُ
تخلي الرقابَ من الأقلالِ أن غلبوا على الحريمِ وتستعيي المها الخرِدُ
إذا رأى ابنته الغيرانُ قدْ سُبيتْ مضى يقولُ الا للهِ من يقـدُ (١)

وهو جيش مقدام يوغل في بلاد العدو يقتحمها بأبطاله وخيلـه ويفتتح حصونها ومعاقلها ، قال ابن خفاجة :

وثارَ يطلعُ نقعُ الجيشِ معتكـراً بحيثُ يطلعُ وجهُ الفتحِ مقتبـلا
من عسكرٍ رجفتْ أرضُ العدوِّ بـهِ حتى كأنّ بها من وطئهِ وهَـلا (٢)
مابينَ ريحِ طرادٍ سُميتْ فرسـاً جوراً وليثِ شرى يدعونهُ بطـلا
من أدهمٍ أخضرِ الجلبابِ تحسبُهُ قدْ استعارَ رداءَ الليلِ فاشتمـلا
وأشقرٍ قانيءِ السربالِ ملتهـبٍ قدْ جالَ يوقدُ نارَ الحربِ فاشتعلا
وأشهبٍ ناصعِ القرطاسِ مؤتلـقٍ كأنّما خاضَ ماءَ الصبحِ فاغتسلا (٣)

وبالإضافة الى كثرة هذا الجيش وقوته وحسن تسلحه فان أفـراده يتصفون بالشجاعة والإقدام ،قال ابن خفاجـة :

بأبي صقورٌ منهمُ منقضّـةٌ قدراً على مهـجِ العداةِ متاحـا
ملأوا ضلوعَ الليلِ زرقَ أسنّـةٍ سالتْ على أعطافهِ أوضاحـا
وتخايلتْ بهمُ الجيادُ كأنّمـا شربتْ معاطفُ كلِّ طرفٍ راحـا

---

(١) قلائد العقيان / ٢٧٩ .
(٢) الوهل : ضعف وفزع وجبن ، لسان العرب ١١ / ٧٣٧ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ٢٠٨ .

وأقامَ فوقَهمُ العجاجُ مظلّـــةً ... وأدارَ بينهمُ الردى أقداحـا (١)

والجيش المجاهد ينتصر بقدرة الله يمدّه بجنده يقاتلون معه ويؤازرونـــه على النصارى ، ولا غرابة في ذلك فهم مجاهدون في سبيله ومن أجل حمايـــة دينـه :

فيا حسنهمُ إنْ تجلّوا غـدوةً ... وقدْ ركبوا الخيلَ واستلأموا
ومدّهمُ اللهُ مـنْ عنـــده ... بجندٍ من النصرِ لا يهـــزمُ
وحلّوا بأرضِ العدى فانبـرتْ ... على كلِّ ناحيةٍ صيلــمُ
فكلّ رجالِهمُ تثلّـــوا ... وكلّ معاقلِهم هدّموا (٢)

أما جيش العدو فإنّه على الرغم من ضخامته لم يستطع الصمود أمام جيـش المسلمين بقيادة أبي اسحاق ابراهيم بن يوسف - عندما حاصر حصـــن المريلة (٣) قال ابن خفاجـة :

ويارُبَّ جيشٍ للعدوِ أثبتَّـهُ ... عبابَ خضمٍّ قدْ طمى يتدفـعُ
عرضتَ لهُ والليثُ دونكَ جـرأةً ... فأجفلَ اجفالَ النعامةِ تجـزعُ
ولقتـهُ ريحٌ للمهابةِ بـــارحٌ ... فأقلعَ اقلاعَ الغمامةِ تقشـعُ (٤)

---

(١) ديوان ابن خفاجة/ ٢٥٢ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م١ / ٤٠٨ .
(٣) حصن متقدم من حصون سرقسطة بالقرب من تطيلة ، سقط فـي ايدي النصارى سنة (٥١٢) هـ ، عصر المرابطين والموحدين ١/ ٩٠ .
(٤) ديوان ابن خفاجـة / ٨٨ .

واهتم الشعراء كذلك بالأسلحة ، فهي احدى أدوات الجهاد ، فبينوا جودتها وأصالتها وأهميتها بالنسبة للمجاهدين ، بل انهم في أحيان كثيرة كانوا يجردون منها شخصا يحدثهم ويحدث أعداءهم بما لديه من القوة وشدة الفتك ، ومن هذه الاسلحة السيوف والرماح والاقواس والدروع .

فشبه التطيلي السيف بالمجاهدين أنفسهم ، فهو معهم يشاركهم الجهاد ويخوض معهم المعارك طالبا المجد والانتصار مثلهم ، قال :

وكلّ رقيق الشفرتين متى يخضْ ... إلى المجد بحرَ الموت وهو شفيرُ
كفيلٌ بأرواح الانام موكّلٌ ... عليمٌ بأسرار الحمام خبيرُ
لهُ كلّ يوم في أعاديك وقعةٌ ... تحارُ مناهمٌ دونها وتحورُ
أطلّ عليهمْ بالمنايا غرارُهُ ... فهل علموا أنّ الحياة غرورُ (١)

وهو امدحه ومضاءه يجلب المنية لكل بطل يقصده ، قال التطيلي :

وكلُ مجرب ذرب تجلّو ... بوسم لا يخافُ إلى مريب
ترى الموتَ الزؤامَ يجولُ فيه ... مجالَ السحر في اللحظ المريب
تُخفّ به المنيّةُ كلّ قرم ... نجيب فوقَ منجرد نجيب (٢)

ويرسم له التطيلي صورة فنية بديعة : إذ يُرى كأثر النمل في صفحتيه لا لتماعه وشدة شحذه ، وهو متطلّع الى الرقاب والنحور ، وبالتالي فهو مخوف من الأعداء تراع به الكماة والابطال ، قال :

تُراعُ الاسُودُ الغُلْبُ مِنْ شفراتِهِ ... وقدْ أثّرتْ فيها كما أثّرَ النملُ

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي / ٦٢ .
(٢) ديوان الأعمى التطيلي / ٢٠ .

من البيض إلاّ ما استباحَ شرارُهُ من الدم حِلّ للسيوفِ ولا حِـــلُ
بهِ ما بأجسامِ المعيبينَ من ضنىً وإنْ لمْ يتيمّةِ دلالٌ ولا دلُّ
لهُ بمكانِ العقدِ والحجولِ في الوغى مآربُ ليسَ العقدُ منها ولا الحجلُ
لهُ هبّةٌ لا منْ أناةٍ ولا ونـــــــو إلى حيثُ لمْ يسبقه عذرٌ ولا عذلُ (١)

وهو من السيوف التي أُحسن صنعها وأُتقن صقلها ، قال عنـــــــــه أبو مروان بن أبي الخصال :

وصقيلٍ مدارُ النملِ فيـــهِ وهـو مذ كانَ ما درجنَ عليـــهِ
أخلصَ القينُ صقلهُ فهو مـاءٌ يتلظى السعيرُ في صفحتيـهِ (٢)

وقد شبهه الشعراء بالنار تخبو ثم تلتهب ، اشارة الى شدة التماعـــه وشدة فتكه ، قال التطيلي :

نـار تسوقُ العدى منْ حيثُمــا حشــروا
إلى التراب وهو مأواهمْ إذا قتلـــوا
هندية لمْ يزلْ بالهنـــدِ مختــــــربٌ
يدعو بها كلّما شبّتْ ويبتهـــــــلُ
من نارِ كسرى وكانتْ قبلةً سمــــةً
المبرقِ يُسمى بها المصطلة النّمِـــلُ
ربداءُ تضحكُ في الهيجاءِ عن لمـــعٍ
كما التقى الدمعُ والاجفانُ والكحـــلُ
وربّما انجابَ عنها الغمدُ فاضطرمـــتْ
زهراءُ يعشــو اليها الفارسُ البطـــلُ

---

(١) ديوان الاعمى التطيلي /١٠٦ .
(٢) نهاية الارب ٦/٢١١ .

أعيا عليهِ أنَهيُّ(١) في قرارتـــــهِ
أمْ مارجٌ من لظىً ترمي بهِ شُعَلُ
وقد أراه بها الضدين رافضُهـــا
فإنّما هي تبدو ثمَّ تشتكــــلُ (٢)

ويجمع الشعراء فيه بين صورة النار الملتهبة والماء الجاري دليـــل فتكه وأصالته ، قال ابن خفاجـة :

يَغشى فتحرقُ نارٌ فيهِ موقــدةٌ
تُحمى ويغرقُ ماءٌ فوقَهُ جـــارِ
فما تألّقَ إلا قلتَ من عجـــبٍ
سبحانَ جامعِ بينَ الثلجِ والنارِ (٣)

وكما شبهه الشعراء بالنار والماء فقد شبهوه كذلك بالكواكـــب يلتمع ويبرق تحت عجاج المعارك ، قال ابن خفاجة أيضا :

تخالُ شعلةَ برقٍ منهُ طائــرةً
في عارضٍ من عجاجِ الخيلِ موّارِ
يمضي فيهوي وراءَ النقعِ ملتهبـاً
كما تصوّبَ يجري كوكبٌ ســارِ (٤)

وقال ابن الزقاق في هذا المعنى :

تخالُهُ مشعلاً بارقـــــاً
أو كوكباً أو قبساً يلهـــبُ
أرسلَ في الحربِ شواظاً لـــهُ
يصلى لظاهُ البطلُ المحربُ(٥)

وهو رغم تزيينه بأنواع الحلي الا أن الموت قد رافقه وصاحبــــــه ، فهو عطب لنفوس الأبطال وحتف لهم ، قال التطيلي :

---

(١) النهي : الغدير ، لسان العرب ١٥/٣٤٥.
(٢) ديوان الأعمى التطيلي /١١٣.
(٣) ديوان ابن خفاجة /٢٧١.
(٤) المصدر نفسه .
(٥) ديوان ابن الزقاق /٨٠.

بكلِّ مموّهِ الصفحاتِ مسانٍ — توقّيهِ الحمائلُ بالجفونِ
من البيضِ الرقاقِ إذا انتضاهُ — فكلتا راحتيهِ لهُ يمينُ
تألّفهُ الردى طرفي نقيضٍ — فمشتكلٌ عليهِ ومستبينُ (١)

وقال ابن خفاجة :

وسالتْ عليهِ نفوسُ الكماةِ — فأشكلَ أكثرَ ممّا اشتكلْ
تنايه ظاهرُهُ بالدماءِ — وقدْ جُنّ باطنُهُ بالصقلْ (٢)

ويشبهه الشعراء بانسان ظمآن يشرب ولا يرتوي ، قال ابن الزقاق :

ذو ظمأٍ يشربُ ماءَ الطلا — وليسَ يرويهِ الذي يشربُ (٣)

وهو كذلك يتعطف ويتمايل ولكن ما به الا التلهف على اختطاف الرؤوس واقتطاف النفوس ، قال التطيلي :

والصارمُ العضبُ يقضي المستميتُ بهِ
برقٌ ولكنّهُ للهامِ مختطفُ
يهتزُّ كالغصنِ لا من لينٍ منعطفٍ
تخالُهُ أريحياً وهو ملتهفُ
يشفي من الدنفِ المضني وتحسبُهُ
مضنىً تحاملَ حتى شفَّهُ الدنفُ (٤)

وكما اهتم الشعراء بالسيوف اهتموا كذلك بالرماح ، فوصفوا نصالها

---

(١) ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠١ .
(٢) ديوان الاعمى التطيلي / ١٣٢ .
(٣) ديوان ابن الزقاق / ٨٠ .
(٤) ديوان الاعمى التطيلي / ٨٢ .

وقنواتها وكعوبها وبقية أجزائها ، فالرماح لاتقل أهمية عن السيوف بالنسبة للمحارب في المعركة فلكل منهما حاجته وضرورته ، وكثيرا ما ذكرت الرماح والسيوف معا تدليلا على أهميتها .

فالرماح هي الفصل بين " المهتدين والضلال " — كما يقول الطرماح — وبها يحرز النصر على الأعداء :

بينَ سمر القنا وبين النصال طرقُ المهتدينَ والضلالِ
فإلى الأمن والأمانة أو في غمرات الأوجال والآجالِ
ومع السعد والسعادة أو بيـ ـنَ حنايا السيوف والأغلالِ (١)

وقد تنبّه الشعراء الى صفات الرماح الجيدة ، فاهتموا بالطول المناسب للرمح ، اذ من غير المستحب استطالته حيث يصعب التحكم به ، كما انه من غير المستحب أيضا قصره حيث يقصر عن هدفه ، وانما هو رمح يتميز بالاعتدال في طوله وكذلك في قناته ، فلا هو بالرفيع المعرّض للانقصاف ولا بالغليظ المعيق للاستعمال ، فاعتدال قناته يكسب مستعمله المزيد من المرونة والفاعلية ، قال الطرماح :

والأسمرُ المدنُ ذا عشر وواحدة (٢) بينَ السبيلين لاجأ ولا قصفُ
أشدّ شيء على الأعداء بقصفها وقد تأوّدَ حتى كادَ ينقصفُ (٣)

---

(١) ديوان الطرماح /١٠٠ .

(٢) مثل هذا الطول استحسنه القدماء في الرماح ، فحاتم الطائي اختار أكثر الرماح مناسبة للقتال بحيث لا يزيد على أحد عشر ذراعا ، وقد قال في ذلك :
وأسمرَ خطيّاً كأنّ كعوبَهُ نوى القسبِ قد أربى ذراعاً على العشرِ
ديوان حاتم الطائي /٢٥٢ .

(٣) ديوان الطرماح /١٨٠ .

وهو عطش لا يرد الّا الحلوق والنحور ينقع منهما غلته ويطفــــــئ عطشـــــه :

بهِ غلّةٌ شماءُ عن كلِّ موردٍ سوى ما أباحتْ أسلهُ ونحورُ (١)

وأحسن الرماح ما كان أصمّاً (٢) لين القناة فيه يسقط الفرســــــان ويشتت الأقران ، قال التطيلي :

وكلُّ أصمَّ أخرسَ طعنتـــــهُ ضروبُ الدهرِ تشتيتَ الشعوبِ
إذا ما اهتزّ في يمنى كميٍّ رأيتَ الموتَ يخطرُ في تقضيبِ (٣)

وهو مقترن بالموت ، فكلما اهتز حصد الأبطال وانتزع الأرواح ، قـــال التطيلي أيضــا :

تزهي بهِ الطعنةُ النجلاءُ يطعنها كأنّما استمطلتها الأعينُ النجــلُ
مستحصَدُ المتن أمّا هزّهُ عجبــاً يميلُ صرفَ الردى فيهِ ويعتــدلُ
لاتبصرُ الموتَ إلاّ حينَ تبصــرهُ موتــاً يسدّدُ أحياناً ويعتقــلُ (٤)

ووصف الشعراء حركته ورشاقته في الطعن ، ووصفوا تأوده وتلويـــــه فشبهوه بالأفعى في حركته ، ووصفوا فتكه بالأعداء حيث يشكّهم ويخـــــرّق أجسادهم ، قال التطيلـــي كذلك :

وأسمرَ عرّاضَ الكعوبِ (٥) كأنّــهُ إذا اهتزّ صلّ أو يساورهُ صــلّ
ومالَ وقدْ أضحتْ منابتهُ الكلــى كما كانَ ميّالاً ومنبتهُ الرمــلَ

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ، /١٠٨ .
(٢) الاصم من الرماح : المكتنز القناة ويستعمل للمداعسة . المخصص ٢ / ٣٢ .
(٣) ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠ .
(٤) ديوان الاعمى التطيلي / ١١٤ .
(٥) كعب الرمح : طرف الانبوب الناشز منه لسان العرب ١ / ٧١٨ ، وعن الرماح وصفاتها انظر : المخصص ٢ / ٣٠ - ٣٦ .

وقدْ كانَ سرّاً وهو في الخصبِ مائسٌ فكيفَ تراهُ حينَ أزرى به المحلُ(١)

والسيوف تجلب الموت الى أرواح الاعداء في ساحات الحروب وعند اضطرام المعارك فهي :

أنجمٌ يهتدي بها الموتُ أو تهـ ـدي على بعدِ شأوها بالضلالِ
في دُجى ليلةٍ من النقعِ ليـلا ءَ أجرّتْ على ثلاثِ ليـالِ
ظلماتٌ تناكرُ الخيلُ فيهـا غيرَ ما يستبينُ بالتصهـالِ(٢)

وهي كواكب دائمة الظهور لا تغيب في ليل أو نهار ، وبهذه الكواكب يشتت الاعداء ويجتنى النصر :

لا فرقَ بينَ النيراتِ وبينَهـا إلّا بتسميةِ الوشيجِ رماحـا
بها تبدّتْ في الظلامِ كواكبـاً لمْ لا تغورُ معَ النجومِ صباحـا
هزّتْ متونَ صعادِها فاستيقظتْ بأساً وضرّجتِ الجسومَ جراحـا
وجنى الكماةُ النصرَ من أطرافِها لمّا انثنتْ بأكفّها أدواحـا(٣)

والقوس من الاسلحة الهجومية أيضا ، وقد صورها ابن الزقاق تصوير ضرورتها وأهميتها ، فقال :

مَنْ كانَ يبغي أنْ تضاهيَ كفُّهُ أفقَ السماءِ بما حوتْ من أنجمِ
لاتخلُ مني راحتاهُ لدى الوغى أرمي العدى بشهابِ رقعي مضرمِ(٤)

ووصفها ابن خفاجة فشبهها بالهلال وشبّه وترها عند ما تطلق السهم بالحيّة المنسابة فقال :

---

(١) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ١٠٦ — ١٠٧ .
(٢) ديوان الاعمى التطيلي / ١٠١ .
(٣) انظر : ديوان ابن الزقاق / ١٢٢ — ١٢٣ .
(٤) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٥٨ .

عوجاءُ تعطفُ ثمَّ ترسلُ تارةً فكأنَّما هيَ حيّةٌ تنسابُ
وإذا انتحتْ والسهمُ منها خارجٌ فهيَ الهلالُ انقضَّ منه شهابُ (١)

وأكثر الشعراء منذ القدم (٢) من وصف صوتها بعد انطلاق السهم منها ، وقد وصف ابن الزقاق ذلك ايضا فقال :

ظلتْ ترنُّ وظلَّ النزعُ يعطفُها كما ترنَّمَ نشوانٌ به ِ مرنُ (٣)

وهي من الرشاقة ودقة الاصابة واتقان الصنع بحيث تمكّنُ الفارس من التغلب على قرنه ، كل ذلك يسوقه ابن الزقاق على لسانها تفتخر على الرمح بما لها من مزايا يقول :

دع الخطيّ يثني معطفيه ِ فإنّ لأسهمي فضلاً عليه ِ
إذا كانَ العلا قتل الأعادي ينالُ الخيرَ أسبقُنا إليه ِ (٤)

والسهم عند ما ترسله هذه القوس فهو كالكوكب في سرعة انقضاضه على هدفه وفي دقة اصابته ، قال ابن الزقاق ايضا :

وقدْ تألّقَ نصلُ السهم ِ مندفعاً عنها فقلْ كوكبٌ يرمي به قزحُ (٥)

وقال ابن الزقاق في هذا المعنى كذلك :

وأنا التي تحكي الهلالَ معاطفي وأنا التي تحكي الكواكبَ أسهمي (٦)

واهتم الشعراء أيضا بالاسلحة الدفاعية ، فذكروا الدروع واهتموا بها ، فهي وقاية للفارس وحاجز لضربات السيوف وطعنات الرماح . ومن حيث الشكل الخارجي فقد شبهها الشعراء بجلود الأفاعي ، قال ابن بقي :

وفتية لبسوا الأدراعَ تحسبُها سلخَ الأراقم إلّا انها رَسَبُ (٧)(٨)

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٣٦١ .
(٢) انظر : لامية العرب / ٣٢ — ٣٤ ، وانظر : ديوان الشماخ / ٧٠ — ٧١ .
(٣) ديوان ابن الزقاق / ١٢٧ .
(٤) ديوان ابن الزقاق / ٢٨١ .
(٥) ديوان ابن الزقاق / ١٢٧ .
(٦) ديوان ابن الزقاق / ٢٥٨ .
(٧) رسب : أثقل وقيّد عن الحركة ، لسان العرب ١ / ٤١٨ .
(٨) قلائد العقيان / ٢٧٩ .

كما شبهوها بالغدران تدرّجها الرياح ، قال ابن الزقاق :

والسابغاتُ على الكماةِ كأنّها   غدرانُ ماءٍ بالنسيمِ تدرّعُ (١)

وقال ابن الزقاق أيضا يصف المحاربين وهم يرتدون هذه الدروع :

متسربلي قُمُصَ الحديدِ كأنّها   غدرانُ ماءٍ قد ملأنَ بدالها (٢)

والبيضة أيضا من الألبسة الحربية التي تكمل الدرع في مهمتها ، فهي وقاية للرأس كما الدرع وقاية لباقي أعضاء الجسد ، قال ابن بقي :

إذا الغديرُ كما أعطافَهم حلقاً

أبدا من البيض في هاماتهم حَبَبُ (٣)

أما الترس فلم يرد لها ذكر في الشعر ، وهي إحدى الأسلحة الدفاعية أيضا ، وقد يكون الدرق حل محلها ، والدرق نوع من التروس يتخذ من جلود الدواب (٤) وليس فيه خشب (٥) وقد عرف المرابطون هذا النوع من التروس وصنعوه (٦) .

ومن الملاحظ أيضا أن أسلحة الحصار لم يرد لها ذكر في شعر الجهاد ، إذ لم نجد إشارة للمنجنيقات أو الأبراج او الرعادات وغيرها من أسلحة الحصار ، وإنّما اقتصر ذكر الاسلحة في الشعر على الاسلحة التي يستعملها الفارس أو الراجل .

---

(١) ديوان ابن الزقاق / ١٢٠ .
(٢) ديوان ابن الزقاق / ١٢٢ .
(٣) قلائد العقيان / ٢٧٩ .
(٤) جمهرة اللغة ٢ / ٦٣ ، تاج العروس ٦ / ٣٤٢ .
(٥) لسان العرب ١٠ / ٩٥ .
(٦) البيان المغرب ٤ / ١٣١ ، تاريخ المغرب العربي / ٢٤٣ .

- أما الخيل فقد كانت عدة الحرب في جهاد المرابطين في الأندلس، وإن كان البكري قد ذكر أن أكثر جهادهم كان على الإبل [1] ووافقه ابن عذاري [2] وصاحب (الحلل الموشية) فيما ذهب إليه [3]، إلا أن هذه التأكيدات لا تنفي استعمال الخيل في الحرب وإنما تؤكد أهمية الإبل فيها، وعلى الرغم من تأكيد هؤلاء المؤرخين على أهميتها إلا أننا لم نجد لها ذكرا في شعر الجهاد أو نثره كما سيتضح ذلك فيما بعد، وهذا يجعلنا نتساءل عن كيفية الاستفادة منها في الحرب، ونميل إلى التوجيه بأن استعمال الإبل كان مقتصرا على بداية إنشاء الدولة وعند دخول الأندلس في معركة الزلاقة، ويدعم ما ذهبنا إليه أن المرابطين في اختيارهم لموقع عاصمتهم عند إنشاء الدولة - قد اختاروا "أرضا واسعة تصلح مسرحا لجمالهم" [4]، وهذا يعني أنها مهمة بالنسبة لهم، وإلا لماذا اختاروا موقع عاصمتهم بما يتناسب مع إبلهم ومواعيها؟ كما أنهم ساروا - في بداية جهادهم في المغرب - إلى برغواطة بثلاثين ألف جمل [5]، وهذا يعني أنها لم تزل عدتهم في الحرب، وقد أمر يوسف بن تاشفين بعبور الجمال إلى الجزيرة قبيل معركة الزلاقة "فعبر منها ما أغص الجزيرة" [6] وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة (قد) رأوا قط جملا ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها فصارت .. تجمح

---

(١) المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب / ١٦٦.
(٢) انظر: البيان المغرب ٤ / ١١، ١٣.
(٣) الحلل الموشية / ٢٨.
(٤) بيوتات فاس / ٢٩.
(٥) بيوتات فاس / ٢٨.
(٦) البيان المغرب ٤ / ١١٥.

من رؤية الجمال ومن رغائها "(١)، الا اننا لم نجد نصوصا تذكر الابل بعد ذلك وقد يعني عدم ذكرها في شعر الجهاد أو نثره بعد الزلاقة أن الابل لم تعد كالخيل في الأهمية ، فلا تخاض بها المعارك ولا يقابل بها الاعداء خاصة اذا تذكرنا أن ميادين المعارك ذات طبيعة جبلية ، والمرجح انها أصبحت واسطة لنقل الأسلحة والمؤن مثلها مثل البغال التي اكثر المرابطون من استعمالها في الاندلس(٢) .

ويدعم ما ذهبنا اليه من أن الابل قد أصبحت واسطة نقل واقتصار خوض المعارك على الخيل — ما قد يفهم من أبيات لابن شرف في وصف سير أحد الجيوش المجاهدة اذ يقول :

سروا ما امتطوا الا الظلامَ ركائبا ... ولا اتخذوا الا النجومَ صواحبا
وقد خبطت رماحهمُ فوقَ الدجى ... فباتَ بأطرافِ الأسنةِ شائبا
لأمرٍ سرينا نمتطي العيسَ في الدجى ... ركاباً ونقتادُ الجيادَ جنائبا(٣)

ومهما يكن من أمر فقد كانت الخيل من أكثر العناصر أهميّة في الحرب لكلا الجانبين : المسلمين والنصارى ؛ ولذلك فقد وجه المقاتلون اليها رماحهم يطعنونها وسيوفهم يعقرونها ، كما ألبسوها الدروع حماية لها من الطعن والضرب ، وعرفوا كذلك قيمتها .

---

(١) وفيات الاعيان ١١٦/٧ ، نفح الطيب ٣٦١/٤ .
(٢) انظر : تاريخ المغرب العربي /٢٥٤ — ٢٥٥ .
(٣) الذخيرة ق ٣ م ٢/ ٨٨٥ .

وضرورتها في الحرب وأهميتها في احراز النصر (١).

ولاهتمام المجاهدين بها فقد عنوا بنسبها كما يعنون بنسب الانسان نفسه ، فخيل الجهاد خيل أصيله شريفة فرسي من

كل محض من الجياد مخول
أغر من عتاقها محجل (٢)

بل انهم شبهوا خيلهم بأصائل خيل العرب المشهورة ، فهي لطيب عنصرها ونقاء أصلها :

دجنة (٣) تصف الانوار غرتها ونبعة يدعي أعلاقها البسان
عصا جذيمة (٤) إلا ما أتيح لها من أم موسى فواعث وهي شعبان (٥)

(١) وللاهتمام الكبير الذي حظيت به الخيل فقد أُلفت فيها الكتب منذ القديم ، ومن هذه الكتب ما اهتم بأسمائها وأسماء فرسانها — بل ان بعض الفرسان قد نسبوا الى خيلهم — وبعضها اهتم بحسن صفاتها وأنسابها ومن هذه الكتب " كتاب الخيل " للاصمعي و " أنساب الخيل " لابن الكلبي و " أسماء خيل العرب وفرسانها " لابن الاعرابي و " حلية الفرسان وشعار الشجعان " لابن هذيل ، ومن شدة اهتمام العرب بالخيل فقد كانوا يطوون مع شبعها ويظمأون مع ريها ويؤثرونها على انفسهم وأهليهم ، حلية الفرسان /١٧٧ ، عقد الاجياد /١٤ .

(٢) ديوان الاعمى التطيلي /١٥٧ .

(٣) الدجنة : الظلمة ، لسان العرب ١٣ / ١٤٧ ، ويراد بها هنا الفرس السوداء .

(٤) فرس جذيمة بن الابرش والتي جاءت بها الامثال وهي بنت العصية فرس لإياد لاتجارى ، فقيل : ان العصا من العصية فذهبت مثلا . انظر : نسب الخيل في الجاهلية والاسلام /٢٠-٢١ .

(٥) ديوان الاعمى التطيلي /٢١٩ .

وهي أيضا :

من آل أعوجَ ما عهدنا قبلَـهُ　　وقد انتمى برقاً سداهُ أعوجُ (١) (٢)

وقد رسم الشعراء صورة عامة للحصان الأصيل الصالح للحرب والذي يتمتع بالقوة والاصالة ، فهو كما يقول التطيلي :

كالجذع شُذّبَ حتى طالَ ثمّ عفا　　ذاكَ السبيبُ فقلنا إنّهُ سعفُ (٣)

وفيه من صفات العتق والنجابة ما يلحقه بأصائل الخيل وما ينم عن طيب أصله ونقائه ، بل ان الشعراء قد رسموا النموذج الذي يحلم كل فارس بأن يكون حصانه عليه ، فهو :

طويلُ سبيبِ العرفِ والعنقِ والشوى

قصيرُ عسيبِ الذيلِ والأذنِ والظهرِ

لهُ غرّةٌ تستصحبُ النصرَ طلقةٌ

كفانا بها في سورةِ الحسنِ من عشرِ (٤)

وفصّل شعراء آخرون في وصفه فاهتموا بكل عضو فيه ، فوصفوا ملاسة جلده وقوة صهيله وسرعة جريه وقوة قوائمه وامتلاءها وحدة سمعه وتحديد اسنانه ، والشعراء يحاولون أن يرسموا الصورة التي ينبغي أن تكون عليها خيل الجهاد ، قال التطيلي :

ذي بشَرٍ أملسٍ كالسنجنجلِ

تزلُّ عنها لحظاتُ المقلِ

كأنّما صهيلُهُ في المحفلِ

---

(١) أعوج : من أصل خيول العرب ، وكان لطلب من طيئ كنسدة ، ومنه انتجت خيول العرب ، وعامة جيادها تنسب اليه . انظر : نسب الخيل في الجاهلية والاسلام / ٦-١٤ .

(٢) ديوان ابن الزقاق / ١١٧ .

(٣) ديوان الأعمى التطيلي / ٨١ .

(٤) ديوان ابن خفاجة / ٢٦ .

غناءُ اسحاقٍ(١) وضربُ زلزلِ

تعرفُ فيهِ العنفَ فاسحْ وخلِ

يسبقُ بينَ محزنٍ ومسهلِ

عدوَ الظليمِ في ظهورِ الأجبلِ

ويتقي الأرضَ بشملِ المحولِ

لا يشتكي الوجى وإن لم ينعلِ

ذو مسمعٍ حشرٍ(٢) وقلبٍ أوجلِ(٣)

عبلُ الذراعينِ عريضُ الكلكلِ

أهرتُ ناتي الهمذاني المأكلِ

يكشرُ عن مؤللاتٍ(٤) عصّلِ(٥)

مثلَ مدى الجازرِ لم تفلّلِ

---

(١) أبو محمد اسحاق بن ابراهيم بن ميمون التميمي الموصلي فارسي الأصل، وقد عاش بين سنتي (١٥٥ — ٢٣٥)هـ وهو من أشهر الندماء والمغنين، وكان عالما بالموسيقى راويا للشعر حافظا للأخبار شاعرا، مولده ببغداد ووفاته بها. انظر: الفهرست ١٤٠/١٤٢—١٤٢، تاريخ بغداد ٣٣٨/٦، نزهة الألباء ١١٦/، إنباه الرواة ٢١٥/١.

(٢) الحشر من الآذان الصغيرة اللطيفة، لسان العرب ١٩٢/٤.

(٣) أوجل: فزع، لسان العرب ٧٢٢/١١.

(٤) مؤللات: حادات، لسان العرب ٢٤/١١.

(٥) عصل: معوجة، لسان العرب ٤٤٩/١١.

قدْ ركبْتَ في مشــطرٍ صــرفِ الجنـــدلِ (١)

وهذه الخيل ضامرة البطون دليل عتقها وأصالتها :

فتى الخيلِ يقتادها ذبَّـــلاً خفافاً تباري القنا الذابـــلا

ترى كلَّ أجردَ سامي التليلِ وتحسبُهُ غُصُنـاً مائـــلا (٢)

ولأهميتها في المعارك فقد أسبغ عليها الشعراء أوصافـــــا تقرّبها من صفات الانسان : فهي تطرق مفكرة ، وتحمل على الاعــداء متحينة الفرصة ، فتقدم في الساعة المواتية ، بل يجعل ابن خفاجـــة منها فرسانا يهاجمون الاعداء ويفتكون بهم ، يقول :

يبيتُ بوادي الفكرِ يطْرِقُ هيبةً ويغشى جنابَ الخطبِ يقدمُ ضيغما

ويحملُ دونَ المجدِ جملةَ فاتكٍ تخايلَ مابينَ الخميسينِ معْلمـــا

برأيٍ كصدرِ السيفِ يبتدهُ (٣) العلا ووطأةِ أيدٍ تستخفُّ يلملمـــا (٤)

وظلٌّ كما مرَّ الغمامُ بتلعـــةٍ فطرّزَ أثوابَ الربيعِ وسهّمـــا (٥)

وخيل الجهاد إنما تقطع من المسافات في قصد بلاد العدو : تلاحقـــه وتطارده يصيبها الضمور والهزال ، فهي كالعرجون القديم كما يقـــول ابن عبد الغفور في معرض مدحه لأمير المسلمين علي بن يوسف :

قرّتْ بهِ أعينُ البرايــــا وأعملوا أكؤسَ السـرورِ

وشــنَّ غاراتِها عليهــمْ مثلَ العراجينِ في ضمورِ

---

(١) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ١٥٥ — ١٥٨ .

(٢) نفح الطيب ٣ / ٤٩٩ .

(٣) يبتده : يبتدر ويفجـأ ، لسان العرب ١٣ / ٤٧٥ .

(٤) يلملم : موضع الى الجنوب من مكة وهو ميقات أهل اليمـــن وبه مسجد معاذ بن جبل ، معجم البلدان ٥ / ٤٤١ .

(٥) ديوان ابن خفاجة / ١٧٥ .

أهلّةً لاتزالُ تسري   لتحرزَ الحظَ مِنْ ظهورِ (١)

وقد أسبغ الشعراء على هذه الخيل أوصاف خيل الجهاد التي يصيبها الكثير من الهزال والتغيّر من شدة ما تلاقيه من التعب ، فتصبح بسبب ذلك :

ضمّراً كالقسيِ مطّرداتٍ   كالقنا مستدقةً كالنبالِ (٢)

ورسم ابن خفاجة صورة لخيل الجهاد وهي في المعارك تلبس الدروع وتثير الغبار ، مما يجعلها مخوفة مرهوبة، قال :

فيا ربَّ وضاحِ المحاسنِ أشقرٍ   رميتُ به الهيجاءَ وقدْ فغرتْ فما

وبحرِ حديدٍ قدْ تلاطمَ أخضرٍ   إذا عصفتْ ريحُ الجيادِ به طمى

عدا فاستثارَ البرقُ لوناً وسرعةً   وغيّرَ في وجهِ النهارِ فغيّما

بيومٍ تراءى الموتُ أحمرَ قانياً   به واستطارَ النقعُ أربدَ أقتما

فأقسمُ لو أهوى إليَّ ابنُ غابةٍ   لكَرَّ على أعقابِهِ متندّما (٣)

ولطغيان جو الحرب على وصف الخيل عند الشعراء فقد أكثروا من تصويرها بصور فنية ، فهي تسبح في الحديد وتتخذ من الرماح قروناً تساعدها على المناطحة والمصاولة قال التطيلي يصفها :

كآرام الصريمةِ أو مهاها   وليسَ سوى الرماحِ لها قرونٌ

سوابحَ في غمارٍ من حديدٍ   فما تدري أخيلٌ أمْ سفينٌ (٤)

---

(١) خريدة القصر ٢ / ٤٢١ .
(٢) ديوان الأعمى التطيلي / ١٠٢ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ١٧٤ .
(٤) ديوان الأعمى التطيلي / ٢٠٠ .

كما صوروها وقد تغيرت ألوانها بنقع المعارك ودماء الابطـــــال ،
قال التطيلـــي :

والخيلُ شعثُ النواصي فوقها بُهَـــمُ
حمرُ العزائم والاخلاق والصور
شابتْ من النقع فارتاب الشبابُ بهـــا
فغيّرتْ من دم الابطال بالشَّعَرِ (١)

وقال ابن خفاجة يصف الحصان وقد خاض المعركة وتسربل بالدماء :

ولربَّ يوم كريهةٍ قد خاضـــهُ سبحاً وبيضُ سيوفهِ غـــدرانُ
ومن الحميم بذفرتيه (٢) فضّـــةٌ ومنَ النجيع بصدره عقيـــانُ (٣)

ووصف الشعراء أيضا جري هذه الخيل وسرعتها ، كما وصفـــوا
صبرها على التعب وقدرتها على التحمل قال التطيلي :

وهبّتْ فهبّتْ كلُّ وطفاءَ جونةٍ تكادُ تفرى أو تكادُ تفـــورُ
من اللائي لمْ ينهضنَ إلّا تدافعاً تكسّرَ أعجازٌ لها وصـــدورُ
دلوحٌ على هزِّ الرياح وأزّهـــا تراكمَ ودقٌ واكفهـــرّ صبيـــرُ (٤)
تمرّ بملموم الهضاب فما تنـــي ولا تنثني حتى تراهُ يمـــورُ (٥)

وخيل المسلمين تتميز بالقدرة على تحمل الصعاب عند مسيرهـــــا
الى أرض العدو ، بل ان التطيلي يعكس الصورة ويجعل النجوم تكـــــل

---

(١) ديوان الاعمى التطيلي / ٥٠ .
(٢) الذفرتـــان هما العظمتان الشاخصتان خلف الأذنين ، لسان العرب ٤ / ٣٠٧ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ٢٤٤ .
(٤) الصبير : السحاب الابيض لا يكاد يمطر ، لسان العرب ٤ / ٤٤٠ .
(٥) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٦٠ — ٦١ .

عن مسابرتها ، فيصيبها النعاس والتعب ، وتتأخر عنها في المسير شاكية السُّرى والنصب ، قال :

وقدْ طلحتْ(١) زمرُ النجوم من السُّرى
ورابَها في أجفانها أثرُ السهدِ
بطاءً على آثارِ خيلها تشتكي
بجهدِ سُراها ما طوينَ من البعدِ (٢)

وسرعة الخيل من الدلائل على قوتها ورشاقتها ، ومثل هذه الصفة فيها مهمة بالنسبة للفارس المجاهد في ساحة القتال ، اذ يمكنه أن يكرّ أو يتراجع بشكل أفضل مما لو كان حصانه غير سريع ، قال ابن الزقاق :

يخترقُ النقعَ على أشقرٍ	وينقضُّ منهُ في الوغى كوكبُ
يطيرُ في الحضرِ به أربعٌ	تطوى له المشرقُ والمغربُ
لو طلبَ العنقاءَ على متنهِ	راكبُهُ ما فاتَهُ مطلبُ
الريحُ تكبو خلفَهُ من ونىً	والبرقُ من سرعتِهِ يعجبُ(٣)

وبسبب سرعة خيل الجهاد في جريها وقوتها فان وقع حوافرها على الأرض يقدح الشرر ويشعل النيران ، قال ابن الزقاق :

تلتهبُ الأرضُ من عدوِهِ	فأورى بزندِ الصفا الصلدِ نارا
أقبُّ إذا ما تعاطى السباقَ	معَ الهوجِ أوثقهنَّ إسارا

---

(١) طلحَ : أعيا ، لسان العرب ٢ / ٥٣٠ .
(٢) ديوان الاعمى التطيلي / ٣١ .
(٣) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٨٤ — ٨٥ .

حذوَ الحديدِ احتضاناً وظلماً ولو أنصفوهُ حذوهُ النضارا (١)

ولئن كانت الشجاعة من سجايا المجاهدين فهي أيضا من صفات خيولهم ، تتقدم في المعارك ، وتتشجع عند اشتداد الحرب ، فهي جريئة مقدمة ، قال التطيلي :

تحمي الشكائمُ في أشداقها حنقاً كأنّما هي منهُ في التنانير
تمضي القنا وهي أدناه إلى كرمٍ أثناء منقصفٍ منها بمنسور (٢)

وخيل الجهاد تألف مثل هذه الأجواء الحربية لا تعبأ بما تلاقيه من أهوال الحرب وشدائد المعارك قال ابن خفاجة :

ومطهّمٍ شَرِقِ الأديم كأنّما ألفتْ معاطِفُهُ النجيعَ خضابا
طَربٍ إذا غنّى الحسامُ ممزقٍ ثوبَ العجاجةِ جيئةً وذهابا
قدحتْ يدُ الهيجاءِ منهُ بارقاً متلهباً يزجي القتامَ سحابا
ورمى الحفاظُ به شياطينَ العدى فانقضّ في ليلِ الغبارِ شهابا (٣)

وقد صورها الشعراء بأنها لا تتأثر بما بذلت من جهد في ساحات المعارك ولا تتأثر بما يصيبها من طعن أو ضرب ، بل ان ابن خفاجة يجعل الحصان هو الذي يؤثر في الرماح التي تطعنه فيحطمها ويكسرها ، قال :

وأشهبٍ ناصعِ القرطاسِ مؤتلقٍ كأنّما خاضَ ماءَ الصبحِ فاغتسلا
ترى به ماءَ نصلِ السيفِ منسكباً يجري وماءهم نارِ البأسِ مشتعلا
فغادرَ الطعنَ أجفانَ الجراحِ به رمداً وصيّرَ أطرافَ القنا مقلا

---

(١) ديوان ابن الزقاق / ١٧٥ .
(٢) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٥٧ — ٥٨ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ٢١١ .

وأشرقَ الدّمُ في خدِّ الثرى خجلاً ... وأظلمَ النقعُ في جفنِ الوغى كحلا (١)

وقد اتضح المفهوم الاسلامي عند وصف خيل الجهاد ، فاقترنت صورتها ببعض المفاهيم الاسلامية ، قال ابن الطح (٢) في وصفها :

خوافقُ قدْ ريشتْ بأجنحةِ الهدى ... فطارتْ ببحرِ الرومِ كلَّ مطارِ

فهنَّ بشدِّ الجري عقبانُ شاهقٍ ... وهنَّ بألحانِ الصهيلِ قماري

سفينةُ برٍّ سيّرتْ غيرَ أنهـا ... تجوبُ من الالهابِ أيَّ غمارِ (٣)

وهذه الخيل تزهو بفرسانها من المجاهدين وعبّاد الرحمن ، وفي ذلك يقول ابن السيد البطليوسي :

إذا عابدُ الرحمنِ في متنهِ علا ... بدا الزهو في العطفين منهُ يجولُ (٤)

وقد دعا الشعراء الى الحيطة والحذر ونبّهوا قادة الجيوش المجاهدة ليكونوا على بينة من الامر في لقائهم بأعداء المسلمين ، واذا كان الفقيه ابن رشد قد دعا أمير الجيش المجاهد الى أن يكون في آخر الناس " يقدّم المحتل بعيره ويلحق الحريض الضعيف " (٥) فان ابن الصيرفي قد نصح الأمير تاشفين بن علي — عندما كان والي الاندلس وقائد جيوشها — بأن يكون في قلب جيوشه وكتائبه ، حفاظا عليه ، وذلك لما لوجود القائد من أهمية وأثر فاعل في المعركة، قال :

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٢٠٨.

(٢) الوزير الكاتب أبو بكر بن الطح ، قال عنه ابن خاقان انه قد تدين بعد أن كان طالبا للذات ، توفي سنة (٥٢٠ هـ) ، قلائد العقيان / ١٨٦ ، خريدة القصر ٣ / ٤٦٦ ، المغرب في حلى المغرب ١ / ٣٨٢.

(٣) انظر : الذخيرة ق ٢ م ١ / ٤٦٣ — ٤٦٤.

(٤) خريدة القصر ٢ / ٤٨٢.

(٥) المقدمات الممهدات / ٢٦٧.

حصّنْ حواشيها وكنْ في قلبهـا　　　واحملْ أماملكَ منهم مَنْ يشجـعُ
والبسْ لبوسًا لا يكونُ مشهـرًا　　　فيكونُ نحوكَ العدوّ تطلّـعُ (١)

وعندما نقرأ قصيدة ابن الصيرفي في نصح الأمير تاشفين بن علـي وارشاده الى أمور الحرب فاننا نلحظ تأثره بما ورد من المفاهيـم الحربية في كتاب (الاحكام السلطانية) للماوردي عند ذكره للامـارة وتدبير الحرب (٢)، وقد يكون ابن الصيرفي اطلع على الكتاب المذكور ـ بحكم توليه لمنصب الكتابة ومشاركته في الشورى في بلاط الأمير تاشفيـن ـ وتأثر به في قصيدته، قال :

أهديكَ منْ أدبِ الوغى حكمًا بهـا
كانتْ ملوكُ الحربِ قبلكَ تولـعُ
لا إنني أدرى بهـا لكنّهـا
ذكرى تخصُّ المؤمنيـنَ وتنفـعُ
اخترْ من الحلقِ المضاعفةِ التـي
وصّى بها صنعَ السوابغِ تبّـعُ
والهندواني الرقيقَ فانّـهُ
أمضى على الحلقِ الدلاصِ وأقطـعُ
ومن الجيادِ الجردِ كلُّ مضمّـرٍ
تُشجى بأربعهِ الرياحُ الأربـعُ
والصمة البطلَ الذي لا يلتـوي
منهُ الصليبُ ولا يلينُ الأخـدعُ

---

(١) الحلل الموشية / ١٢٦ .
(٢) انظر : الأحكام السلطانية / ٣٧ ـ ٥٢ .

خندقْ عليكَ إذا اضطربتَ محلّةً
سيّانَ تتبعُ ظافراً أو تُتبَعُ
وتوقَّ من كذبِ الطلائعِ إنّهُ
لا رأيَ للمكذوبِ فيما يصنعُ
فإذا احترستَ بذاكَ لمْ يأتِ العدى
في فرصةٍ أو في انتهازِكَ مطمعُ(١)

كما تطرق ابن الصيرفي لاجراءات حربية أخرى ينبغي على القائد اتباعها إذا أراد احراز النصر ، ولأهمية هذه القصيدة فقد جعلها ابن خلدون شاهدا على كيفية مواجهة العدو ولقائه في المعارك . (٢)

وقد كان الشعراء يرسمون ملامح المعركة وهم الذين يسايرون الإعداد لها وقد يشهد بعضهم مسير الجيوش اليها أو اصطفافها فيها استعدادا لابتدائها ، وقد نجد في ساعة الاصطفاف من ينبه ذهنهم الى ضرورة التحصن واتقان التعبئة ويدعو الى الاقدام في الصدمة الأولى وعدم التهيّب :

قبلَ التناوشِ عبِّ جيشكَ مُفسِحاً
حيثُ التمكّنُ والمجالُ الأوسعُ
ايّاكَ تعبيةَ الجيوشِ مضيّقاً
والخيلُ تفحصُ بالرجالِ وتمزعُ
واحتلْ لترقعَ في مضايقِ الوغى
خدعاً تورّيها وأنتَ موسّعُ

---

(١) انظر : الاحاطة ٤/ ٤١٢ — ٤١٣ ، وانظر : الحلل الموشية /١٢٤ — ١٢٩ .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٥ — ٧٤ .

واجعلْ مناجزةَ العدوِّ مشيّـــــة
وراءكَ الصدفُ الذي هو أنفســـحُ
واصدمْهُ أولَ وهلــةٍ لا ترتــــدعْ
بعدَ التقدمِ فالنكوصُ تفضحُ (١)

وقد رسم الشعراء صورا خاصة للمعارك فصوروا أسلحتها وخيولهـــــا وجيوشهـا :

وكم ترنح في روضٍ جداولُــــهُ	بيضُ السيوفِ وملتفُّ القنا شجــرُ
هي التراتكُ (٢) فوقَ الهامِ لاحببٌ	والسابغاتُ على الأعطافِ لا الغُدُرُ
لاقَ الكتائبُ ملءَ البيدِ غازيــــةً	إذا أتتْ زمرٌ منها مضتْ زمُـــرُ
تدبُّ منها إلى الأعداءِ سابلـــةٌ	عقاربٌ مالها إلّا القنا إبـــرُ (٣)

وشبهت المعركة وقد ثار النقع فيها بالليل تتهاوى نجومه وبالغيمــــة يتساقط غيثها ، وما هو بالغيث ولكنه مطر الموت تجلبه الجيوش والخيــول والأسلحة ، قال ابن الزقاق :

وعجاجةٍ كالليلِ إلّا أنّهـــــا	ينقضُّ منها نجمُ كلِّ سنـــانِ
نشأتْ كما نشأتْ سحابةُ عـــارضٍ	يتلوهُ غيمٌ ودقُهُ بتـــــدانِ
زاحمتُها والشهبُ دهمٌ والقنـــا	متقصفٌ والموتُ أحمرُ قانـــي
في جحفلٍ ملءَ الملا شرقتْ بـــه	شمُّ الربى وسباسبُ الغيطانُ (٤)

---

(١) الاحاطة ٤/٤١٣ ، الحلل الموشية / ١٢٦ .
(٢) التراتك : جمع تريكة وهي البيضة يغطى بها الرأس ، لسان العرب ١٠/ ٤٠٦ .
(٣) الاحاطة ٤/ ٤٠٨ .
(٤) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٦٧ — ٢٦٨ .

ويلاحظ أن الشعراء قد أكثروا من ربط المعركة بالعجاج وثائر الغبار الذي تثيره خيل الجهاد ، وهي صورة مكررة في أكثر العصور . قال ابن الزقاق :

والحربُ قدْ نشرتْ ملاءةَ عجاجةٍ بسنابكِ الجردِ الصلادمِ تنسجُ
في حيثُ تلمعُ للسيوفِ بوارقٌ تهفو وينشأُ للقساطلِ زبرجُ (١) (٢)

كما أكثر الشعراء من ذكر عدّة المعارك من خيل وأسلحة ، ولا غرابة في ذلك فهي العناصر الرئيسية للمعركة قال التطيلي :

وربَّ ليلٍ من النقعِ اخترقتَ ضحىً والصبرُ منتظمٌ والهامُ منتثرُ
ولا نجومَ سوى الأرماحِ تشبهُهُ وليسَ فجرٌ سوى التحجيلِ ينفجرُ
ولا خطيبَ لدى الأقوامِ ينشدهُمْ شرحَ القضيّةِ إلاّ الصارمُ الذكرُ (٣)

ويقول ابن خفاجة يصفها بالنجوم تضيء ليل المعركة وقد أظلمت بالغبار :

وظلامِ ليلٍ لا شهابَ بأفقهِ إلّا لنصلِ مهنّدٍ أو لهذمِ
لا طمتُ لجّتهُ بموجةِ أشهبٍ يرمي بها بحرَ الظلامِ فيرتمي
أطلعتُ منهُ ومنْ سنانٍ أزرقٍ ومهنّدٍ عضبٍ ثلاثةَ أنجمِ
إنْ يعتكرْ ليلُ العجاجةِ تستترْ أو يعترضْ شيطانُ حربٍ يرجمِ (٤)

كما صور ابن خفاجة المتحاربين في ساحات المعارك بصورة فنية ، فشبه المعركة بخميلة تشقها الانهار ويتساقى الندامى فيها الكؤوس ، ولكنها

---

(١) الزبرج : السحاب الرقيق ، لسان العرب ٢ / ٢٨٥ .
(٢) ديوان ابن الزقاق ، / ١١٨ .
(٣) انظر : ديوان الأعمى التطيلي / ٦٥ — ٦٦ .
(٤) ديوان ابن خفاجة / ٢٤٤ .

خميلة القنا وأنهار السيوف وأقواس الموت يتعاطاها المتحاربون، قال :

تساقوا وما غير الذبيح سلافة ... تدار ولا غير الأسنة من ورد
ولا شجر إلا مثقفة القنا ... ولا نهر إلا مشطبة الهند
فزهر ولكن غير مستحسن الجنى ... وماء ولكن غير مستعذب الورد
قد انتظموا في نحر شقر قلادة ... وكلهم وسطى فنا بها من عقد
وما منهم إلا أغر محجل ... رفيع سماء المجد سامي سما الرفد
مكر وصدر الرمح يهتز هزة ... ويمضي ومتن السيف يسفر عن جد
وقد ملأ الضرب الحسام بكفه ... وغير قويم برثن الأسد الورد (١)

ويلاحظ أن شعر الجهاد لم يعن بتفاصيل المعارك ذاتها وانما اهتم بوصف جيوشها وعدتها والنتيجة التي أسفرت عنها، وقد يكون من الأسباب التي أدت الى ضعف عنصر الوصف فيها هو اهتمام الشعراء بنتيجتها دون الاهتمام بتطور الأحداث ومجرياتها، وقد يعود السبب أيضا الى أن كثيرا من هؤلاء الشعراء لم يشهدوا المعارك ولم يخوضوها وانما استحضروا صورتها في أذهانهم. والمعركة بطبيعة الحال تنجلي عن طرف منتصر وآخر مهزوم وعن قتلى تملأ ساحاتها تأكل منها الذئاب والوحوش دون أن تنقص لكثرتها، قال عبد الجليل بن وهبون يمدح يوسف ابن تاشفين ويذكر نتيجة معركة الزلاقة وما أسفرت عنه من قتلى النصارى :

وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا ... كأن وهادها منهم أكام
عديد لا يشارفه حساب ... ولا يحوي جماعته زمام
تألفت الوحوش عليه شتى ... فما نقص الشراب ولا الطعام (٢)

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٢٤٧.
(٢) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٤٦.

وتتخضب جوانح الطير بدمائهم وتمزق أشلاءهم وتأكل لحومهم حتى تشبع وتتخم :

ترى النسرَ والقتلى على عددِ الحصى　　وقد مزّقتْ أحشاءها والترائبا
مضرّجةً مما أكلْنَ كأنها　　عجائزُ بالحنّا خضبنَ ذوائبا (١)

وعلى الرغم من اكثار الشعراء من تصوير الانتصارات الا انهم لم يغفلوا عن ذكر الهزائم - ولكنهم لم يكثروا من ذلك ، وهم بهذا يرمون الى تقوية عزيمة الجهاد لدى المجاهدين وابعاد روح اليأس عنهم - فنبّهوا الى أن انتصار العدو حالة غير ثابتة ترجع الى طبيعتها من الذلة والهوان قال ابن بقّي :

الدهرُ أهونُ مِنْ أنْ يستقيمَ لكمْ　　وإنما جاءَ عنْ كرهٍ وإلمٍ بأسدِ
ومَنْ تصنّعَ يرجعْ بعدَ آونةٍ　　إلى الطباعِ رجوعَ الصبرِ للوتدِ (٢)

ولم نجد ذكرا للمعارك البحرية في شعر الجهاد ، وقد يعني ذلك أن حرب البحر لم تكن حاسمة في هذه الفترة ، أو أن هذه الفترة لم تشهد معارك بحرية ؛ لتركز الحرب في منطقة الثغور البريّة والتي ألحّ عليها النصارى الصليبيون بغية احتلالها ، الّا أن هذا الافتراض لا يستقيم اذا علمنا أن المرابطين اهتموا بتعزيز قوة أسطولهم خاصة بعد ازدياد هجمات الأساطيل النصرانية على الاندلس(٣) وبعد ازدياد الحماس لدى النصارى لفكرة الحروب الصليبية حيث تعرضت شواطيء الاندلس الشرقية لعدد من هجمات أساطيل الممالك الايطالية ، كبيزة وجنوة (٤) وغيرهما من الممالك النصرانية القائمة آنذاك .

---

(١) رايات المبرزين / ٥٢ ، نفح الطيب ٣ / ٤١٦ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٦٢٢ .
(٣) وثائق تاريخية البيان المغربي / ٨٥ ، ٤٠ / ٦٢ .
(٤) تاريخ الاندلس / ١٢٢ .

ب) أثر الجهاد في أدب الكتّاب والمترسلين :

قرّب أمراء المرابطين الكتّاب واستعانوا بهم في تصريف أمور دولتهم ، وذلك لحاجتهم اليهم في توجيه الرسائل الى الولاة وأمراء الجيوش والقضاة والفقهاء .. الخ ، ولم تكن الكتابة لتخلو من وظيفة سياسية ، فأغلب الكتاب وزراء ومستشارون في بلاط أمير المسلمين او بلاطات والي الاندلس وأمراء المدن فيها . وقد كان الكتاب على ضربين : أعلاهما "كاتب الرسائل" وله حظ في القلوب والعيون .. وأشرف أسمائه الكاتب ، وأهل الاندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر كاتب الزمام .. ولا يكون بالاندلس وبرّ العدوة لا نصرانيا ولا يهوديا البتّة ، اذ هذا الشغل نبيه يحتاج الى صاحبه عظماء الناس ووجوههم (1) ويهمنا من هذين الضربين من الكتاب كتّاب الرسائل ، وهم الذين نالوا الحظوة لدى أمراء المسلمين وولاتهم في الاندلس ، وقد كان لارتباط هذا النوع من الكتابة بالرياسة والسلطان الاثر الكبير في شهرة هؤلاء الكتاب اضافة الى ما تمتعوا به من موهبة وقدرة على الإنشاء والترسل .

ومن الملاحظ أن ما وصلنا من نثر الكتاب والمترسلين كان مقتصرا على الرسائل — الصادرة عن ديوان أمير المسلمين أو الواردة اليه من والي الاندلس ومن قادة الجيوش والفقهاء والقضاة وأهل المدن — اذ لم

---

(1) نفح الطيب ١/٢١٦ .

تصلنا خطب أو دروس مما كان يلقيه الفقهاء والعلماء والقادة علـــى المجاهدين حضا على الجهاد وترغيبا بالتضحية ، ومع ان المرجـــح هو ازدهار هذا الفن في مثل هذه الظروف خاصة وأن الفقهاء والعلماء كانوا يرافقون الجيوش المجاهدة [1] ، الا أن المصادر لم تورد لنـــا خطبا من خطب هذه الفترة ، اللهم الا خطبة للقاضي عيـــاض (٥٤٤) هـ [2] وقد يكون سبب ذلك ضياع كثير من المصادر ، أو أن المؤرخيـــن ومؤرخي الأدب لم يدونوا هذه الخطب ، لكونها نثرا شفهيا يلقـــى ارتجالا على الأغلب .

ثم اننا لم نجد كتبا تتعلق بالجهاد في هذه الفترة ـ كالكتـــب التي ظهرت في المشرق الاسلامي إبّان الحروب الصليبية ـ سوى مـــا أورده ابن عذاري [3] من مقتطفات من كتاب ابن علقمة المسمى " البيـــان الواضح في الملمّ الفادح " والذي يصف فيه مؤلفه ما حل ببلنسيـــة من الأهوال عند احتلال السيد الكمبيطور لها ، أما الكتاب الأصلـــي فلم يصلنا ، ثم أن كتبا أخرى من المحتمل انها قد تضمنت نثرا يتعلـــق بالجهاد فقدت هي أيضا ، وكان من الممكن أن تضيف هذه الكتـــب خطبا ورسائل جديدة لم نجدها فيما وصلنا من المصادر لو سلمت مـــن الضياع .

ومهما يكن من أمر فاننا سنقتصر في هذه الدراسة على ما وصلنـــا من رسائل متبادلة بين ديوان أمير المسلمين وأهل الأندلس وأولـــي

---

(١) انظر : المعجم / ٤ ـ ٥ ، البيان المغرب ٤ / ١٣٦ .
(٢) انظر : الاحاطة ٤ / ٢٢٦ ـ ٢٢٨ .
(٣) انظر : البيان المغرب ٤ / ٣١ ـ ٤١ .

الأمر فيها ، وقد كانت هذه الرسائل تشمل العديد من الموضوعات الشكوى التي كان يبديها المسلمون من سوء الحالة التي آلت اليها بلادهم بسبب تفرقهم وتكالب العدو عليهم، اذ كانوا يفزعون الى أمير المسلمين في مراكش (١) يشكون اليه سوء حالهم وطمع العدو بهم ، ومن ذلك ما قاله أبو عبد الله بن أيمن (٢) في رسالة كتبها عن المتوكل بن الافطس الى يوسف بن تاشفين يصف حال المسلمين في الاندلس : " فقد كانت طوائف العدو .. تلاطف بالاحتيال ، وتستنزل بالاموال ، ويضمن لها عن كل ذخيرة ، وتسترضى بكل نفيسة وخطيرة ، ولم يزل دأبها الشطط والعناد ودأبنا الاذعان والانقياد .. حتى .. أيقنوا .. بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضطرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم فانما هو بأيديهم أسرى وسبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا " (٣) .

وتبرز الشكوى كذلك في رسالة أخرى بعث بها المعتمد بن عباد سنة (٤٧٩)هـ الى أمير المسلمين يشكو له سوء حال الاندلس وما أصابها من التفرق ويبسط له ما يلاقيه المسلمون فيها من التهديد والخطر اذ يقول : " الى حضرة الامام أمير المسلمين .. من محمد بن عباد سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية .. ورحمة الله وبركاته ..

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ١/٦٥٣ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن أيمن ، من كبار الكتاب والادباء في عصره ، استوزره المتوكل بن الافطس بعد تنحية أبي الوليد الحضرمي ، انظر : الذخيرة ق ٢ م ١/٦٥٢ — ٦٥٦ ، المغرب في حلى المغرب ٣٦٦/١ .

(٣) الذخيرة ق ٢ م ١/٦٥٣ .

إنا قد .. تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا .. فصرنا شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر، وقلّ ناصرنا وكثر شامتنا وتوالى علينا هذا العدو المجرم .. وأناخ علينا بكلكله ووطأنا بقدمه وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون .. وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال" (١) ، وقد كانت هذه الشكوى تفصح عما يلاقيه أهل الأندلس من الخوف والخطر لا سيما وان العدو مصمم على طردهم نهائيا من الأندلس ، وقد شعروا بذلك منذ محاصرة الفونسو السادس لمدينة طليطلة : إذ طلب من سكانها أن يرحلوا عنها قائلا : إننا " نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما ، فقد سكنتموها ما قضي لكم وقد نصرنا عليكم .. فارحلوا الى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا فلا خير في سكناكم معنا بعد اليوم " (٢) .

ويلاحظ أن النشر يتركز على فترة الاستنجاد والدعوة الى انقاذ الأندلس سواء في ذلك ماورد من رسائل الى ديوان أمير المسلمين من أمراء الأندلس وقضاتها وفقهائها أو من غيرهم من علماء العالم الاسلامي آنذاك (كالامام الغزالي والامام الطرطوشي) (٣) ، بل إن الخليفة العباسي قد أرسل الى يوسف بن تاشفين يحضه على حماية الأندلس مما تتعرض له من غزو ويشكر له اخلاصه في جهاده للنصارى الصليبيين قائلا : " فأما ما أنهيته من توفرك على الجهاد ومن في مملكتك من الأجناد ، ودفع أدناس الكفرة عما يليك من البلاد فأنت وطائفتك من حزب الله وحزب الله هم الغالبون " (٤) .

---

(١) الحلل الموشية / ٤٥ .

(٢) البيان المغرب ٣ / ٢٨٢ .

(٣) انظر : مجموع أوله كتاب الانساب لوحة / ١٣٣ ـ ١٣٧ .

(٤) سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين / ٦٧ ، وانظر الرسالة كاملة في صبح الأعشى ١٠ / ٣١ ـ ٤٥ ، وهي من انشاء ابن

ويلاحظ أيضا أن فكرة الاستنجاد في النثر كانت أكثر وضوحـــــــــا منها في الشعر اذ كان الشعر يركز في الغالب على الأمور المتعلقــــــــة باللقاءات المباشرة مع العدو بينما اهتم النثر كثيرا بمسألة الاستنجـــــاد والاعداد للجهاد ؛ وذلك لكون هذه الفكرة تحتاج الى تفصيـــــــل وبسط للأوضاع التي كان يعاني منها المسلمون وما الى ذلك مما لا يستطيـــع الشعر الأخذ به ؛ لاعتماده في الغالب على اندفاعة الشعور وجيشــــان العاطفة . والاستنجاد في أكثر الاحيان يأتي بعد الشكوى، وهذا ظاهـــــر في معظم الرسائل الواردة الى ديوان أمير المسلمين والمتعلقة بهـــــذا الموضوع : فبعد أن بيّن المعتمد بن عباد حالة الاندلس السيئة وما يلاقيـــه أهلها من التهديد والخوف أفصح لأمير المسلمين عن مطلبه فـ " أنـــت .. طاب المغرب أبيضه وأسوده .. (وقد) نزعتُ بهمتي اليك ، واستنصـــرت بالله ثم بك .. لتجوزوا الجهاد هذا العدو الكافر وتحيوا شريعـــــة الاسلام وتذبّوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام " (١) .

ولّما كتب القاضي أبو بكر بن الجد يستنجد بالمرابطين ويحضّهـــــم

= الموصلايا هو أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب البغـــدادي ابن الموصلايا ، عاش بين سنتي (٤١٢ – ٤٩٧) هـ . وكـــان من كبار كتّاب العصر العباسي ، ويلقّب بأمين الدولة ومنشـــئ دار الخلافة ، وهو نصراني أسلم سنة (٤٨٤) هـ ، وقـــد خدم خلفاء بني العباس منذ سنة (٤٣٢) هـ ، حتـــى وفاته . المنتظم ٩ / ١٤١ ، وانظر : نكت الهميـــان / ٢٠١ – ٢٠٢ .

(١) الحلل الموشيـة / ٤٥ .

على القدوم الى الاندلس، بيّن لهم ما يصيب البلاد من التفكك وما تلاقيه من النصارى من التهديد ثم ذكّرهم بما يتمتعون به من القوة وما يملكون من آلة الحرب وعدتها، ووصف لهم — من قبيل التأكيد على الاستنجاد — ما تتمتع به الاندلس من الخيرات — إن كانوا يريدون العاجلة — وما في الجهاد فيها من الأجر والمثوبة، فقال يخاطب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين: " وقد وطّد الله لك ملكاً شكر عليه جهادك وقيامك بحقه واجتهادك، وعندك من جنود الله من يشتري الله بحياته ويخوض الحرب بآلاته، فان شئت الدنيا فقطوف دانية وجنات عالية وعيون آنية، وان أردت الأخرى فجهاد لا يفتر، وبلاد يجزّ الغلاصم ويبتر، هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم.. تستمدون بالله وملائكته وبكم على الكافرين "(١).

لقد أصبحت فكرة الاستنجاد بالمرابطين هي الباب الوحيد الذي يمكن طرقه وذلك بعد تعذر جمع كلمة أهل الاندلس واشراف الجزيرة على الضياع، فصار المرابطون أملاً لكل آمل بإنقاذ الاندلس لما يتمتعون به من قوة حربية ولاهتمامهم بأمور المسلمين وأمور عقيدتهم، قال محمد بن أيمن يستنجد بالمرابطين باسم أهل الاندلس عامة: " وما هو الا نفس خافت ورمق زاهق ان لم تبادروا بجماعتكم عجالا وتتداركوها ركبانا ورجالا وتنفروا نحوها خفافا وثقالا، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله تعالى، فانكم اه أتلى، ولا أحرضكم على التسرع اليه بما في حديث رسول الله عليه السلام فإنكم الى معرفته أهدى " (٢).

---

(١) انظر: الحلل الموشية / ٤٧ — ٤٨.
(٢) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٦٥٥.

ولم يخب أمل أهل الأندلس بالمرابطين ، لأن الجهاد لديهم جهاد اسلامي ، فهو أمر واجب تفرضه الشريعة والأخوة في الدين ، ففي رد أمير المسلمين على استنجاد المعتمد نجد هذا المفهوم واضحا اذ يقول : " فانه وصل خطابكم .. فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا .. فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك (وذلك) .. واجب علينا .. في الشرع وكتاب الله تعالى " (١) . ثم ان اهتمام أمير المسلمين بوحدة الأندلس كان يدعوه الى توصية أهلها بالتلاحم ونبذ التحاسد وطاعة أولي الأمر فيما يأمرون به من حماية الحوزة ودفع العدو (٢) ، بل ذهب أمير المسلمين علي بن يوسف الى الطلب في احدى رسائله — من أهل الأندلس بأن يضرعوا الى الله جميعا متحدين مخلصين بأن ينصر جيوش الجهاد " ونحن ان كنا قد بالغنا بالاحتشاد والاستعداد واستنهضنا من الأجناد ما يربو على العد والتعداد فانا نعتقد اعتقاد يقين بقول رب العالمين .. (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) (٣) ، ولذلك رأينا مخاطبتكم مستدعين دعاءكم وأدعية من وراءكم من خيار المسلمين " (٤) .

وبسبب طمع ملوك النصارى بالأندلس فقد كثرت تهديداتهم للمسلمين ولأمرائهم (٥) ، وبسبب الثقات المرابطين لأهل الأندلس

---

(١) الحلل الموشية / ٥٠ .

(٢) وثائق تاريخية / ١٧٤ .

(٣) سورة الفرقان آية ٧٧ .

(٤) وثائق تاريخية / ١٦٨ .

(٥) انظر : الحلل الموشية / ٣٨ — ٤١ ، نفح الطيب ٤ / ٣٥٨ .

واستجابتهم لاستصراخهم فقد وجدنا بعض الرسائل التي دارت بين أمراء المسلمين وملوك النصارى ، فمن ذلك ما كتبه الفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين متهكما " من أمير الملتين أذفونش بن فرذلند الى الامير يوسف بن تاشفين . أما بعد ، فلا خفاء على ذي عينين انك أمير الامة المسلمة كما أنا أمير الملة النصرانية ولم يخف عليكم ما عليه رؤساؤكم بالاندلس من التخاذل .. والاخلاد الى الراحة وأنا أسومهم الخسف .. وبلغنا أنك في الاحتفال على نية الاقبال فلا أدري ان كان الجبن يبطئ بك أم التكذيب لما أنزل عليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز فابعث الي ما عندك من المراكب لاجوز اليك " (١) ، وبذلك يتبين لنا مدى غطرسة الفونسو وغروره ، كما يظهر لنا من خلال ارتفاع المستوى الفني للرسالة ان لدى بعض ملوك النصارى كتابا خاصين يكتبون لهم مثل هذه الرسائل .

ومن هذه المراسلات ما رد به أمير المسلمين على كتاب الفونسو السادس السالف الذكر ، وقد كان رده مختصرا يدل على عزم وثقة بنصر الله ، فكتب على ظهر كتابه " جوابك يا أذفونش ما تراه لا ما تسمعه ان شاء الله (٢) وأردف ببيت المتنبي :

ولا كُتْبَ إلّا المشرفيةُ عنده ولا رُسُلٌ إلّا الخميسُ العرمرمُ (٣)

---

(١) الاحاطة ٤ / ٣٥١ ، وانظر : الحلل الموشية / ٤٢ — ٤٣ .

(٢) الاحاطة ٤ / ٣٥١ ، تاريخ المغرب العربي ٣ / ٢٤٠ .

(٣) ديوان المتنبي ٣ / ٣٥٢ ، وقد ورد البيت باختلاف بسيط في رسالة ابن تاشفين :

ولا كتب الا المشرفية والقنا ولارسل الا الخميس العرموم

تاريخ المغرب العربي / ٢٤٠ .

ومثل هذه المراسلات دارت بين المسلمين والنصارى عندما وصلت جيوش المسلمين سهل الزلاقة ، اذ كتب يوسف بن تاشفين الى الفونسو السادس" وقد بلغنا انك دعوت الى الاجتماع بك وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها الينا ، فقد اجتزناه اليك وجمع الله في هذه المرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك (وما دعاء الكافرين الا في ضلال)" (١) (٢) .

ومن النثر استطعنا أن نتصور جيوش الجهاد وطريقة سيرها الى ساحات المعارك ، فقد أورد الحميري وصفا لها عند عبورها الى الأندلس في المرة الأولى سنة (٤٧٩) هـ ، اذ " عبر يوسف بن تاشفين وجميع جيوشه الى الجزيرة الخضراء .. على أحسن الهيئات جيشا بعد جيش وأميرا بعد أمير وقبيلا بعد قبيل "(٣) ، وهذا يعني أن جيش المرابطين لم يكن يسير دفعة واحدة وانما كان في مسيره متتابعا يتلو بعضه بعضا ، وقد يكون كل قسم تابعا لأمير والكل يتبع لامرة أمير المسلمين .

كما وصف ابن شرف الجيش المجاهد - القاصد مدينة أقليش سنة (٥٠١) - فأكد ما ذكره الحميري من أن الجيوش تتتابع حتى تقترب من ساحة المعركة ثم تجتمع قبيل اللقاء معا ، فالجيش تتبعه جيوش أخرى اذ هو جيش " تصم صواهله وتطم كواهله (٤) ، راياته

---

(١) سورة الرعد آية ١٤ .
(٢) الحلل الموشية / ٥٣ .
(٣) الروض المعطار / ٢٨٦ ، نفح الطيب ٤ / ٣٦٢ .
(٤) الكواهل : جمع كاهل ، وهو مقدمة أعلى الظهر ، لسان العرب ١١ / ٦١ .

خافقة وعزماته صادقة ونبراته على ألسنة السعد ناطقة ، (وبه يصف) ونورنا .. على جهات سمحت منادينا وتبعت عادينا ، وانقادت براغها أعداد وأمداد »(١). وبعد اندماج الجيوش معا أصبح لدى المجاهدين جيش لجب " يفيض فيضا على أرض تغيض غيضا ، (فيه) لسيول الخيول إغراق ولبروق البواتر اشراق ، وقد نطقت ألسنة الاعنة بقدام قدام ، وأشرقت كواكب الاسنة في عتام القتام ، وسدت الجمهورة كل نهج وسبيل ، واستقلت الرايات من كل قبيل بقبيل ، وافضت بنا الخسيرة الى المدينة الحصينة .. ذات العدد العديد والسور المشيد " (٢) .

الا انه على الرغم وصف الجيش المجاهد بالضخامة والكثرة فاننا لم نحصل على عدد محدد له أو قريب من التحديد في أي معركة ، وظلت المسألة تدور في مجال الوصف العام ، ولم نحصل على هذا التحديد حتى في معركة الزلاقة المشهورة : اذ تراوح عدد الجيش الاسلامي المشارك في المعركة حسب ما ذكره صاحب الحلل ما بين خمسين ألفا وثمانين ألفا ما بين فارس وراجل (٣) ، كما تضاربت الآراء حول عدد جيش النصارى في المعركة المشهورة ذاتها فجعله ابن الكردبوس ستين ألفا (٤) ، وجعله ابن أبي زرع مائتين وثمانين ألفا (٥) ، في حين جعل صاحب (الحلل الموشية) القتلى منه ثلاثمائة ألف (٦) ،

---

(١) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٤ .
(٢) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي /١٢٤-١٢٥ ، الحلل الموشية / ٥٦ .
(٣) الحلل الموشية / ٥٦ .
(٤) تاريخ الاندلس / ٩٤ .
(٥) الانيس المطرب / ١٥٠ .
(٦) الحلل الموشية / ٦٢ .

ونحن وان كنا نشك بصحة هذا الرقم من القتلى الا اننا لا نستبعد أن يكون جيش النصارى قد قارب هذا العدد ، وذلك لما تجمّع لديهم من مختلف الاقطار النصرانية آنذاك من الجيوش الراغبة بالمشاركة في الحروب الصليبية في الاندلس (١) ، وقد كانت هذه الجيوش من الكثرة والقوة بحيث " ضاقت عليها البطاح .. كأنها الليل الدامس ، والبحر الطامس ، قد لبسوا الدروع الضافية وتقلدوا السيوف الماضية ، (و) تقلسوا بالحديد وتقدموا ببأس شديد ، طبولهم القرون وألويتهم كأنها السحاب الجون " (٢) ، ويصف ابن القصيرة جيوش النصارى أيضا وهي في طريقها الى لقاء آخر مع المسلمين قائلا : " واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قورية — حرسها الله — وسمع العدو .. بذلك فصمد من محتشده اليها في جيوش تملأ الفضاء ، وتسد الهواء ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قرونهم الى أقدامهم ، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جرأتهم واقدامهم " (٣) .

وفي ترتيب الجيش في المعركة كانت جيوش المرابطين بشكل عام تتكون من مقدمة من الرجّالة ومؤخرة وقلب وميمنة وميسرة تؤلفان جناحي الجيش : ففي معركة الزلاقة كان جيش المسلمين يتكون من مقدمة فيها ابن عباد وميسرة وعليها ابن الافطس وميمنة وعليها أهل شرق الاندلس ، ومؤخرة وفيها سائر مسلمي الاندلس ، كما أضاف المرابطون الى هذا الترتيب ترتيبا آخر فبثوا كثيرا من مجاهدي المغرب

(١) تاريخ الاندلس / ١٢٢ ، الانيس المطرب / ١٦٢ .
(٢) تاريخ الاندلس / ٩٢ .
(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٦٧ .

كمائن متفرقة تخرج من كل جبهة عند التقاء جيش المسلمين بالنصارى(1) ، وقد كان لهذه الكمائن الاثر الحاسم في احراز النصر لمباغتته في المعركة من المفاجأة التي لم يتوقعها العدو ، وقد ظلت جيوش المرابطين تأخذ بهذا الترتيب - من مقدمة ومؤخرة وجناحين - حتى آخر معاركهم مع النصارى (2) .

ونلاحظ أن الجيوش المتحاربة كانت تتصاف للقتال (3) ، وذلك بعد أن يكون كل فريق قد أخذ استعداده لخصمه وبذل ما بوسعه لمعرفة استعدادات الطرف الآخر عن طريق الجواسيس والعيون (4) ، يتضح ذلك من خلال تصوير ابن القصيرة للقاء الجيش الاسلامي المجاهد بجيش النصارى في معركة الزلاقة ومن خلال مسير كل منهما الى الآخر اذ يقول : " فدنونا اليه (الى العدو) بمحلاتنا .. ثم اضطربناها بازاءه وأطللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائه ورأى - لعنه الله - ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه ، فأصبح مضطرا على اللقاء ، وقدّم بعض أخبيته دهشا (5) في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها .. وقد تيقّن انه ان أخذ المسلمون مصافهم .. اصطلم عن آخره جمعه واجتث أصله وفرعه "(6) .

وأغلب المعارك التي وقعت بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة كانت الجيوش تتصاف فيها طالما لم يكن حصار أو مباغتة ، ففي

---

(1) الحلل الموشية / ٥٩ .
(2) انظر : البيان المغرب ٤ / ٨٨ - ٨٩ .
(3) سراج الملوك / ١٧٩ .
(4) نفح الطيب ٤ / ٣٦٣ .
(5) الدهش : ذهاب العقل من الفزع ، لسان العرب ٦ / ٣٠٢ .
(6) انظر : الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

وقعة أقليش (٥٠١ هـ) مثلا وجدنا انه قد "تراءى الجمعان وتدانى العسكران .. واهتزت الخيالق طائجة وحدرت الشقائق هائجة .. وأذن الحديد بالجلاد وبرزت السيوف من الاغماد ، وتصاهلت الخيول .. فعند ذلك تواقف القوم .. فبرز فارس من العرب فطعن فارسا منهم فارداه من مركبه ورماه بين يدي موكبه .. فعند ذلك اختلط الخيل بل سال السيل وأظلم الليل، واعتنقت الفرسان واندقت الخرصان .. واختلط الحسام بالاجسام والارماح بالاشباح ودارت رحى الحرب .. وثارت ثائرة الطعن والضرب .. حتى خضعت منهم الرقاب وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلاك بالشرك .. وفر الطليب سايبا ، وعجم عود الاسلام فكان طيبا " (١).

ويذكر البكري انه قد كان للمتونة طريقة خاصة في لقائهم عدوهم اذ كانوا يصطفون صفوفا " بأيدي الصف الاول منهم القنا الطوال للمداعسة والطعان وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق يحمل الواحد منهم عدة يزرقها فلا يكاد يخطي ولا يشوي، وأمامهم رجل بيده الراية يقفون ما وقفت وان أمالها جلسوا " (٢)، والغالب ان هذه الطريقة تكون في بداية المعركة وتقوم بتنفيذها مقدمة الجيش المجاهد ، والذين يكونون من أشجع المحاربين ممن يختارون الموت على الانهزام (٣) ولم تكن هذه الطريقة مقصورة على جهاد المرابطين في الصحراء فقد أكد الامام الطرطوشي حصول مثل هذه الملاقاة بين المسلمين والنصارى في الاندلس وفي طرطوشة بالذات (٤).

---

(١) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي /١٢٩ — ١٣٠.
وانظر : البيان المغرب ٤ / ٨٨ — ٨٩.
(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب / ١٦٦.
(٣) الحلل الموشية / ٢٢.
(٤) سراج الملوك / ١٧٩.

ويفصّل الطرطوشي في وصفه لهذه الطريقة التي يقول عنها : أنهـــــا "أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا ، وهو تدبير نفعله في لقاء عدونـــا : وهو ان تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفّون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض وصدورها شارعة الى عدوهم وهم جاثمون في الأرض وكــل رجل منهم قد ألقم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديـــه وخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع ، والخيـــل خلف الرماة فاذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجّالـــة .. ولا يقوم رجل منهم على قدميه فاذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشّاب والرجّالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم ، فأخذوا يمنه ويسره ، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجّالة فتنال منهم ما شاء الله " (١) ، وقــد يكون هذا التنظيم الصارم للجيش المجاهد في المعركة هو ما حـــدى بالبكري الى القول : ان في قتال لمتونه شدة وجلد ليس لغيرهم (٢) .

ومن الثابت أيضا استطعنا أن نعرف أن المحلّة (المعسكـــر) التابعة للجيش كانت هدفا رئيسيا للجيش الآخر ، فالمسلمون يتحينـــون فرصة الانقضاض على محلّة عدوهم وأولئك يتربصون فرصة سانحـــة للهجوم على محلة المسلمين ، وذلك لأن المحلّة هي مستودع المـــؤن والأعتدة والاحتياط من الرجال والخيل (٣) ، وقد كان اقتحام جيوش المرابطيـــن لمحلّة النصارى واحراقها في معركة الزلاقة السبب الرئيسي في تغييـــر وجهة المعركة — التي دارت في بدايتها على المسلمين (٤) — ان " ركـــب

---

(١) سراج الملوك / ١٧٩ .
(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب / ١٦٦ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ١١٧ .
(٤) الحلل الموشية / ٥٩ .

أمير المسلمين وسائر عسكره وقصد بهم محلة الدائغية فاقتحمها وأضرمهـا نارا . ورأوا (النصارى) النار تشتعل في محلتهم .. فسقط في أيديهم، ثنوا أعنتهم ورجعوا قاصدين محلتهم ، فالتحمت الفئتان واختلطت ملتان ، واشتدت الكرّات وعظمت الهجمات" (١) بحيث لا يجد الـ من مدارا ولا الفرس مجالا (٢) "وحملوا على المسلمين حملة منكسرة فثلـ هم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب ووكف ديم السيوف والرماح .. وطاحت المهج وأقبل سيل الدماء .. ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز وولى الفنش .. في خمسة فارس" (٣) .

و وجدنا للأسلحة ذكرا في نشر الجهاد ، وبعض هذه الأسلحة لم نجده من الشعر كالطبول (٤) التي كانت تضرب في بداية المعركة اشارة الى بدء الهجوم وتخويفا للأعداء ، لما تحدثه هذه الطبول من الاصوات الـ..ويّة (٥) في حين كانت مثل هذه الاشارة لدى النصارى تتم بواسطة الابواق (٦) .

ولمّا كان النصارى يكثرون من لبس الدروع ويكثرون أيضا من الباسها خيولهم (٧) فقد تغلبت جيوش المرابطين على ذلك بالاسلحة القادرة على اختراق الدروع ، فمن ذلك أن جنديا مجاهدا هجم على الفونسو

---

(١) انظر : الحلل الموشية / ٥٦ — ٦٠ .
(٢) تاريخ المغرب العربي / ٢٤٤ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ١٣٨ ، الانيس المطرب / ١٥٠ .
(٤) البيان المغرب ٤ / ١١٧ .
(٥) الحلل الموشية / ٦٢ .
(٦) تاريخ الاندلس / ٩٢ .
(٧) الحلل الموشية / ٦٢ .

السادس في معركة الزلاقة وبيده خنجر يدعوه المرابطون بالاقطاس فقطع جزر درعه وطعنه في فخذه وقطع سرجه ، فكان الفونسو يقول بعد ذلك : التحق بي غلام .. فضربني في الفخذ بمنجل أران دمي "(١) . كما واجه المجاهدون هذه الدروع بالمزاريق (٢) التي تهاجم بها الخيل الدارعة ، ومن ذلك ما دبّره يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة اذ أمر نحواً من ألف رجل بأن يترجلوا عن الخيل ويدخلوا المعركة " بالمزاريق لعجز السلاح عن الخيل الدارعة ، فأثرت فيها بالطعن ، فجعلت ترمي بفرسانها " (٣) وكان ذلك من عوامل النصر الذي أحرزه المسلمون في تلك المعركة .

وكأثر من آثار الجهاد أيضا فقد وجدنا ذكرا لاسلحة الحصار في النثر ، إذ عرف المرابطون هذه الاسلحة وصنعوها ، ففي جوازه الثاني لمحاصرة حصن لييط أعدّ يوسف بن تاشفين الرعادات وآلات الحصار .. وقدم عليه النجارون والبناؤون والحدادون من أجل احكام الحصار على الحصن (٤) ، وفي حصار أقليش ذكر ابن شرف ان المسلمين قد حاصروا المدينة ورموها بكل ضرب من الحرب يخسفون عاليها وينسفون واطيها (٥) ، كما ضربت مدن المسلمين المحاصرة بمثل هذه الالات : فعندما عزم الفونسو الاول على احتلال سرقسطة بنى أبراجا من الخشب تجري على بكرات وقربها من المدينة ونصب عليها الرعادات ونصب عليها عشرين

---

(١) الحلل الموشية / ٦١ ، والاقطاس خنجر معوّج يشبه المنجل .
(٢) نفح الطيب ٤/ ٣٦٨ ، والمزاريق جمع مزراق وهو رمح قصير يستعمل لخرق الدروع ، المخصص ٦/ ٣٥ ، لسان العرب ١٠/ ١٣٩ ، حلية الفرسان / ٢٠٢ .
(٣) تاريخ المغرب العربي / ٢٤٣ .
(٤) الحلل الموشية / ١٨ .
(٥) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٥ .

منجنيقا ودكها حتى استسلمت [(١)] . ومن الأسلحة الدفاعية التي كانت جيوش المرابطين تستعملها في جهادها نوع من التروس تسمى " درق اللمط"[(٢)] - يتوقى بها الفارس ضربات السيوف وطعنات الرماح وتصنع في الغالب من الجلد [(٣)] .

وقد تبدت مفاهيم الجهاد والحرب في نظر الكتاب المسلمين : فأكثروا من المقارنة بين موقفي النصارى والمسلمين ، اذ كان موقف النصارى ينصب على هدف رئيسي هو طرد المسلمين [(٤)] والاستيلاء على بلادهم وتغيير معالمها واحتلال المدن" والصوامع يقيد(ون) بها الصلبان ويستنيب (ون) بها الرهبان "[(٥)] في حين كان المسلمون يجاهدون "لدفع أدناس الكفرة " [(٦)] عن الاندلس .

ولمّا كانت سياسة الجهاد لدى المرابطين بهذا الوضع فقد سلكوا ما يساعدهم على اتمام هدفهم في حماية البلاد ودفع العدو ، فكان من سياسة الحرب أن يعفوا في بعض الأحيان عن أهل المدن المحاصرة ؛ وهم بذلك يقدّمون نموذجا يحتذى لأهل المدن الاخرى التي قد تقع تحت حصارهم ؛ مما قد يحفزهم على الاستسلام وفتح أبواب مدنهم ، وقد ظهر هذا الأمر فيما كتبه ابن عبدون على لسان سير بن أبي بكر في ذكره لعفوه عن أهل احدى المدن المحاصرة ،اذ كان العفو

---

(١) الأنيس المطرب / ١٤٧ .
(٢) نفح الطيب ٤/ ٣٦٨ .
(٣) حلية الفرسان / ٢٢٣ ، وانظر : تاريخ المغرب العربي / ٢٤٣ ، ٢٥٩ .
(٤) البيان المغرب ٣/ ٢٨٢ .
(٥) الحلل الموشية / ٤٧ .
(٦) الحلل الموشية / ٦٧ .

عنهم " تطريقاً لسواهم ممن يتقيل صنيعهم "(١) ، فهو بذلك يعطيهم النموذج ويفتح لهم الطريق الذي يمكنهم سلوكه اذا وقعوا تحت حصار جيوش الجهاد .

ولايمان المرابطين بمبدأ الجهاد فقد اهتموا به حتى في أصعب السنين عليهم ، فعلى الرغم من انشغال أمير المسلمين بحربه مع الموحدين في آخر سني الدولة الآ انه طلب من والي بلنسية (يحيى ابن علي بن غانية) وقاضيها أن " انتدبوا انتدبوا من قبلكم للجهاد الذي هو من قواعد الايمان والرشاد (والذي هو) أمر الرحمن وفرض على الكفاية والاعيان "(٢) .

كما كان للتهنئة بالنصر والبشارة بالظافر نصيب من نثر الجهاد ، فمن ذلك رسالة بعث بها يوسف بن تاشفين الى المغرب يبشرهم بانتصار المسلمين في معركة الزلاقة " أما بعد حمد الله المتكفل بنصر دينه الذي ارتضاه ، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه . . فان العدو الطاغية لعنه الله لمّا قربنا من حماه وتوافقنا بازائه لقنّاه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب فاختار الحرب . . فانتدب اليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين ، فتعشته قبل أن يتعشاها "(٣) . وبعث المعتمد بن عباد الى ابنه الرشيد يبشره وأهل امارته بالنصر ذاته (٤) . وفي فتح مدينة شنترين الذي جرى على يد سير بن أبي بكر كتب ابن عبدون الى أمير المسلمين علي بن

---

(١) المعجب / ٢٣٦ .
(٢) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين / ١١٢ .
(٣) الانيس المطرب / ١٥٠ .
(٤) الاحاطة ٢ / ١١٤ ، نفح الطيب ٤ / ٣٦٩ .

يوسف يبشره بالفتح الذي احرزه المسلمون على النصارى والذي نصر الله به المجاهدين فـ " أوضح العز وجلاه .. واظهر ...عزت أسماؤه وجلت كبرياؤه دينه على جميع الاديان على رغم من الصلبان ووقم من الاوثان .. وجمع في هذه الجزيرة شمل الاسلام بعد انصرامه وانبتاته .. وانزل الذين كفروا من اهل الكتاب من صياصيهم تأخذ بأقدامهم ونواصيهم .. (وقد) كانت قلعة شنترين - أدام الله أمر أمير المسلمين - من أحصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاقل على المسلمين ، فلم نزل بسميك الذي اقتفيناه وهديك الذي اكتفيناه نخضد شوكتها .. ونتناولها علا بعد نهل ، ونداولها عجلا في مهل .. ونتعارق المرة بعد المرة حماة أبطالها ، ونخوض غمار كفاحهم وبحار صفاحهم ، ونهدي للقنا وصدورها رؤوسهم ، والى لظى وسعيرها نفوسهم ،وننقلهم من الشفار اليمانية الى النار الحامية " (١) .

وكتب ابن الجنان (٢) يهنىء يحيى بن غانية بانتصاره على النصارى في احدى معاركه معهم ويدعو له على ما أحرز للاسلام من ظفر وعلى ما أحرز للمسلمين من إعزاز " أطال الله بقاء الرئيس الاجل واضح آيات المساعي مجابا في تأييده دعوة الداعي ، ولا زال معقودة بالظفر ألويته معمورة بصالح الدعاء ساحاته وأنديته ، كتابي وما خططت

---

(١) المعجب / ٢٢٨ .

(٢) أبو العلاء عبد الحق بن خلف بن مفرّج بن الجنان ، من بيت عريق وهو من كنانة صليبية ،وقد كان من كبار الأدباء والشعراء في الاندلس ، صحب ابن خفاجة ، وتوفي سنة (٥٣٦)هـ . خريدة القصر ٣ / ٥٦٨ ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ٣٨١ .

بحرف الا رمقت السماء بطرف أدعو وأتوسل الى من يسمع الدعاء ويقبل على ما أولى من قسم أتاحها الله على يديه وألقى أزمتها اليه حتى انقادت له بعد شماس وتأتت على ياس ، وهل كانت الا خبيئة الدهر . . صمبت على ما كان قبل من أولي السياسات ومدبري الرياسات"(١) .

الا أن المعارك لم تكن كلها لصالح المسلمين ، وفي مثل هذه الحالة نجد الكتاب يوردون بعض أسباب الهزيمة (٢) التي أدت الى وقوعها وهي في أكثر الأحيان خارجة عن الارادة كأن يكون العدو أكثر عددا أو أكثر عدة ، وهم بذلك يحاولون تبرير موقف المعتذر لدى المعتذر اليه وقد وجدنا لوما للمرابطين الذين لم يصمدوا أمام العدو في سرقسطة عندما دهمتها جيوش الفونسو الأول (المحارب) سنة (٥١٣) هـ وأوشكت على احتلالها ، فقال قاضي المدينة - وقد بلغت منه الغصة مبلغا - لوالي الأندلس أبي الطاهر تميم يلومه لوما شديدا على انهزامه أمام العدو ويرجع انهزامه الى ضعف ايمانه ويقينه : ف" انّ من ضعف الايمان وأشد الضعف الفرار من الضعف ، فكيف عن أقل من النصف . . فما هذا الجبن والفزع ؟ ! وما هذا الهلع والجزع ؟ ! بل ما هذا العار والضبع ؟ ! أتحسبون يامعشر المرابطين واخواننا في ذات الله المؤمنين ان سبو الى سرقسطة القدر بما يتوقع من المكروه والحذر انكم تبلغون ريقا وتجدون في سائر بلاد الأندلس . . مسلكا من النجاة أو طريقا ؟ كلا ، والله ليسومنكم الثقار عنها جلاء وفرارا ، وليخرجنكم منها دارا فدارا . . فالآن أيها الأمير . . هذه أبواب الجنّة قد فتحت . . فالمنية ولا الدنية والنار ولا العار ! فأين النفوس الأبية ؟ ! وأين الأنفة

---

(١) المغرب في حلى المغرب ٢ / ٣٨٢ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله / ١٠٩ .

والحمية ؟! وأين الهمم المرابطية ؟! فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها وامتطاء جدها واجتهادها وملاقاة اعداء الله وجهادها ، فان حزب الله هم الغالبون وقد ضمن الله تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره ،فما هذا أيها الأمير؟! ألا ترغب في رضوانه واشتراء جناته بمقارعة حزب شيطانه والدفاع عن أهل إيمانه ؟! فاستعن بالله على عدوه .. ولا ترض بخطة العار وسوء الذكر في جميع الأمصار .. ولن يسماء عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر .. عن مناجزة الكفار "(١) .

كما وجدنا في نثر الجهاد لوما بل تقريعا عنيفا لجند المرابطين الذين انهزموا أمام الفونسو الأول (المحارب) في منطقة بلنسية سنة (٥٢٣) هـ ،فقد كتب أبو مروان بن أبي الخصال عن أمير المسلمين علي بن يوسف يقرعهم ويهجوهم على انهزامهم ويقول لهم معنفا : " يا فرقة خبث سرائرها ، وانتكثت مرائرها ، وطائفة انتفخ سَحْرُهَا (٢) ، وغاض على حين مدها بحرها ، فقد آن للنعم أن تفارقكم ، وللأقدام أن تطأ مفارقكم "(٣) . وأمعن ابن أبي الخصال في ذمه للجند المرابطي المنهزم أمام العدو فكتب أيضا " أي بني اللئيمة ،وأعيار الهزيمة ،إلام يزيفكم الناقد ،ويردّكم الفارس الواحد ،فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسمكم عقابا وإلا تلوثوا على وجه نقابا ،

---

(١) الثغر الأعلى الأندلسي /١٣٤ .

(٢) السحر : ما التصق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن ، ويقال للجبان قد انتفخ سحره ، كما يقال لمن تجاوز طوره ، لسان العرب ٤/٣٥١ .

(٣) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين/١١٦ ، المغرب في حلى المغرب ٢/١٨ .

وأن نعيدكم الى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم " (١) ، ويلاحظ ان مثل هذا الإقذاع في الهجاء يدل على مدى الغضب الكبير الذي شعر به المسلمون ازاء انهزام هذا الجند وان كان الكاتب قد تجاوز الحد في ذلك مما سبب امتعاض أمير المسلمين منه وعزله له بعد ذلك . (٢)

ومن المعارك التي انهزم فيها المسلمون معركة القلاعة سنة (٥٢٢ هـ) وكان المرابطون بقيادة أبي محمد بن أبي بكر بن سير (ابن اخت أمير المسلمين علي بن يوسف) (٣) وقد اعتذر عن هزيمته (٤) الا أن اعتذاره هذا لم يشفع له ولم يمنع أمير المسلمين من ارسال الرسائل في لومه وجنده على تخاذلهم ، فكتب ابن عبد الغفور عنه مخاطبا قائد الجيش المرابطي قائلا : " وما بعثناك لتشهد وانما بعثناك لتجهد في طعن بخطي أو ضرب بمهند ، فاذا لم تفعل فلا أقل من أن تجلّد وتصبر وتحمل من معك على الصبر ولا تكون أول من فر فتعدي بفرارك تثبّت جارك ، ولو كتمتهما من شهادة لما أثم قلبك ، فلا تؤثر الكتب بما يشير عليك العتب ولتأنف من المستأنف (و) من ايثار الدنية على المنيّة ، ولتكن لك نفس أبية والسلام " (٥) ، وبذلك نلاحظ وضوح الهدف من وجود المرابطين في الاندلس ، فهم مجاهدون ومدافعون

---

(١) المعجب / ١٤٠ .

(٢) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٤ .

(٣) انظر : نظم الجمان / ١١٠ - ١١١ .

(٤) لم تصلنا رسالة الاعتذار التي بعثها هذا القائد الى أمير المسلمين وانما وصلنا الرد عليها .

(٥) خريدة القصر ٣ / ٤٣٢ .

عن الاسلام والمسلمين . وفي الهزيمة نفسها كتب أبو مروان بن أبي الخصال على لسان أمير المسلمين يذم المنهزمين ويدعوهم الى الثبات والتنبه الى الوقائع التي ستتلوها ، قال : "عاقبكم الله بما أنتم أهله، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهورا وأجبنهم وجوها ونحورا .. فمتى تفلحون ؟ ولأي شيء بعد ذلك تصلحون ؟ .. فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم وقصّروا حبل اغتراركم .. (و) كونوا بعد هذه الهناة الاعمى الرشد بين مطايح وسامع" (1)، ثم يطمئن الكاتب على لسان أمير المسلمين — أيضا — أهل الاندلس بأن المرابطين لن يتركوهم لعدوهم بل سيدافعون عنهم ويحلف لهم "وبالله القسم الاعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين لاسرعنا بذلك مبادرين ولما ثنانا عن حمايتكم ثان" (2) .

وكأثر من آثار الجهاد في النثر فقد وجدنا رثاء لبعض الشهداء الذين سقطوا في ساحات المعارك ، فمن ذلك ما كتبه أبو عبد الله اللوشي (3) معزيا أمير المسلمين علي بن يوسف بأبي محمد مزدلي — وقد استشهد في جهاده للنصارى — مبديا حزنه وتأثره لفقده رغم ايمانه بقضاء الله وقدره ، ف" النفس بنار زفرتها محترقة ، والعين بماء عبرتها شرقة . لمّا نفذ قدر الله المقدور وقضاؤه المسطور من وفاة الأمير الأجل أبي محمد مزدلي قدّس الله روحه وسقى ضريحه ، فياله من رزء قصم الظهر ووسم النجوم الزهر ، وأذكى الأحزان ، وأبكى الأجفان .. وعند

---

(١) انظر : الثغر الأعلى الأندلسي /١٣٩ — ١٤٠ .

(٢) الثغر الأعلى الاندلسي /١٤٢ .

(٣) الفقيه الكاتب أبو عبد الله اللوشي ، أديب عرف بالخلق والوفاء ، وقد أكثر الفتح بن خاقان من مدحه والثناء عليه ، انظر : قلائد العقيان /٢١٨ — ٢٢١ .

الله نحتسبه ذخيرة عظمى ونسأله المغفرة له والرحمى ، فانه كان متوفر الهمة على الجهاد ، من أهل الجد في ذلك والاجتهاد ، وحسبه انه لم يقض نحبه الا وهو متجهز في عساكره ، فادركه الموت مهاجرا ، ومع الله تاجرا ، وأرجو أن يكون تعالى قد قرن له فاتحة السعادة بخاتمة الشهادة "(1) ، كما كتب عبد الحق بن عطيه الفقيه المفسّر الى عبد الله ابن مزدلي يعزّيه باستشهاد أخيه محمد بن مزدلي وقد استشهد في جهاده للنصارى كأبيه أيضا ، ويظهر لنا حزن الكاتب وتأثره على الشهيد ، فقد كتب " من فؤاد دام ، ودمع هام ، ولبّ طائر ، وقلب بين جناحي طائر ، ونفس تجري بذوبها . . لهذا الطارق المطارق ، والنبأ المفض المشرق ، والضارب بين فرق الإسلام وجبينه "(2) ، وبذلك يظهر لنا مدى الحزن الذي يتركه فراق الشهيد في نفوس المسلمين ، كما يظهر لنا أيضا سعة المكان الذي كان يسده والذي يفرغ بفقده واستشهاده خاصة اذا كان الشهيد من كبار القادة .

وتتجلى المفاهيم الاسلامية بوضوح كبير في موضوع الشهادة والشهداء فالشهيد " يقضي وقد وقع على الله أجره ورفع في عليين ذكره وخلّد في ديوان الشهادة فخره " . (3)

وبذلك يتضح لنا أن النثر كان نابضا بحرارة الجهاد قريبا من الواقع بعيدا عن الخيال الادبي الذي يجنح اليه الشعر ، كما اضطلع النثر أيضا بمهمة جليلة اذ كان ميدانا لكثير من موضوعات الجهاد يحفز المسلمين على مواصلة البذل والتضحية ويعبر عن آمالهم وآلامهم ومشاعرهم في الانتصارات والهزائم .

---

(1) قلائد العقيان / ٢٢١ .
(2) قلائد العقيان / ٢١١ .
(3) خريدة القصر ٣ / ٤٩٤ .

الفصل الرابع

الأحداث التاريخية في أدب الجهاد

الفصل الرابع

الأحداث التاريخية في أدب الجهاد

سنحاول أن نتعرف في هذا الفصل على كيفية تصوير الشعراء والكتاب للأحداث التاريخية الكبرى في هذه الفترة ، ونحن بذلك لا نريد أن ندرس هذه الأحداث بقصد الحصول على المعلومات التاريخية ، اذ أن مهمة الأدب تتجاوز السرد والنقل ، ولكننا نود أن نرى كيف صوّرت هذه الأحداث في الأدب وما هي الأصداء التي تركتها في نفوس قائليها وفي نفوس المسلمين عامة . ومع ذلك فان الأدب قد يساعد على توضيح بعض الحقائق التاريخية التي ضاع الكثير منها في هذه الفترة [1] وقد نحصل من خلاله على معلومات تاريخية لم نجد لها ذكرا في كتب التاريخ نفسها — على الرغم من عناية التاريخ بشكل عام بالأمور الجزئية والتفصيلات الدقيقة واهتمام الأدب بالنظرة الكلّيّة الشاملة [2] — لا سيما وأن كثيرا من هذا الأدب قد قيل خلال هذه الأحداث أو بعدها مباشرة ، وبذلك يمكن أن نحصل من خلاله على معلومات تاريخية قد تكون أقرب الى الموضوعية وان اتسمت بالطابع الأدبي .

واذا كان التاريخ يقدّم لنا معلومات تحتمل الصحة والخطأ فان الأدب يقدم لنا تجارب لا تدخل في مثل هذه الاحتمالات [3] ، وانما يعطينا صورة أدبية مليئة بالاحساسات والمشاعر صدى هذه الأحداث وطبيعة الاستجابة لها .

---

(1) الاحاطة ٤/١ ٥٤ .
(2) فن الشعر / ٦٥ .
(3) قواعد النقد الأدبي / ٢٣ .

وأول هذه الأحداث الكبرى التي تواجهنا هو سقوط طليطلة سنة (٤٧٨ هـ)، وإن كان سقوطها يسبق دخول المرابطين الأندلس بسنة واحدة إلا أنه كان السبب المباشر في دخولهم لها، وقد كان لهذا الحدث وقع مؤثر في نفوس المسلمين وفي نفوس النصارى أيضا بغض النظر عن تغاير شعور المنتصر والمهزوم: فقد كان سقوط طليطلة بالنسبة للمسلمين محنة حقيقية (١)، وذلك لما لهذه المدينة من الأهمية في الجانب العسكري، ولما تتمتع به من المنعة والحصانة، فسبب سقوطها احباطا ويأسا لدى المسلمين وأثار فيهم الفزع والجزع، فألح بعضهم على المسلمين بالهجرة والرحيل عن الأوطان، فقال ابن العسال الطليطلي:

حُثّوا مطاياكُمْ يا أهلَ أندلسٍ فما المقامُ بها إلّا من الغَلَطِ
مَنْ جاورَ الشرَّ لمْ يأمنْ عواقبَهُ كيفَ الحياةُ معَ الحيّاتِ في سَفَطِ (٢)

إنّ هذا الموقف السلبي الذي وقفه ابن العسال يمكن تعليله بشدة الصدمة والمفاجأة اللتين لحقتا بالمسلمين مع شعوره بعجزهم أمام التحدي الذي يتهددهم لاسيما وأن احتلال المدينة قد جاء خاتمة لممارسات كثيرة قام بها النصارى لإضعاف المسلمين قابلها هؤلاء بتخاذل وموادعة، قد تكون الاستجابة الطبيعية لمثل هذا الموقف هي الدعوة الى التحدي والاستنجاد بالمسلمين الآخرين إلّا أن الخوف وهول المصيبة واليأس من حال المسلمين أفقدت الشاعر الأمل ودعته الى توجيه مثل هذه الدعوة اليائسة.

ومثل هذه الاستجابة أبداها شاعر آخر رأى من قوة النصارى

---

(١) الحلل الموشية / ٤٧.

(٢) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٥٠، أزهار الرياض ١ / ٤٦.

وضعف المسلمين ما حيّره وبثّ في نفسه القنوط ، فأبدى ما أبداه ابن العسال من اليأس والذهول ودعا الى ترك المدينة والرحيل عنها ، اذ هي عارية استردها أصحابها كما يذكر ، ويجعل الشاعر احتلال طليطلة كختام لعبة الشطرنج التي تتم بتقدم البيادق وسقوط الشاه ، اشارة الى نهاية الوجود الاسلامي في الاندلس بسقوطها وتقدم الاعداء الى وسط الجزيرة باحتلالهم لها ، قال :

يا أهلَ أندلس رُدّوا المعارَ فما | في العرف عارية إلاّ مردّاتُ
ألمْ تروا بيدقَ (١) الكفار فرزنةً (٢) | وشاهُنا (٣) آخرَ الابياتِ شهماتُ (٤)(٥)

وقد كان للأحداث التي تلت سقوط المدينة صدى وتأثير في نفوس المسلمين لسقوط المدينة ذاتها خاصة وأن كثيرا من هذه الاحداث يتعلق بأمور الدين والعقيدة (٦) : فكان لتحويل مسجد المدينة الى كنيسة رنّة حزن وأسى عميقين في نفوس المسلمين ، اذ غيّرت قبلة المسجد والمسلمون يصلّون فيه ويقرأون القرآن (٧) ، وكان الشيخ المقرئ

---

(١) البيدق : أصل الكلمة هندي - فارسي وهو بيداك أي الراجل وتعني الجندي ، أنموذج القتال / ٢٠ .
(٢) فرزن : لفظة فارسية بمعنى الوزير ، أنموذج القتال / ٢٢ .
(٣) الشاه : لفظة فارسية بمعنى الملك ، أنموذج القتال / ٢٣ .
(٤) شهمات : مصطلح شطرنجي يستعمل للدلالة على انتهاء اللعبة . الشطرنج في التراث العربي / ٢٦ .
(٥) نفح الطيب ٤ / ٣٥٢ .
(٦) نفح الطيب ٤ / ٤٤٧ .
(٧) الذخيرة ق ٤ م ١ / ١٦٨ .

أبو عبد الله المغامي (١) آخر مسلم وطأت قدماه مسجد طليطلة : إذ ذهب إليه وصلى فيه وأمر أحد تلامذته بأن يقرأ ، ووافاه النصارى هناك وتكاثروا عليه لتغيير القبلة (٢) " فكلما قال (وا) له عجّل أشار إلى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام . . فسجد به واقترب ، وبكى عليه . . وانتحب" (٣) ثم خرج وبدأ النصارى بتغيير قبلة المسجد .

والشعور ذاته نجده عند شاعر ثالث شهد مصرع المدينة وتشتت أهلها ، فندب الاسلام فيها بقصيدة حزينة (٤) بث فيها ألمه وحسرته قائلا :

مضى الإسلامُ فابكِ دماً عليه	فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ
ونحْ واندبْ رفاقاً في فلاةٍ	حيارى لا تحطُّ ولا تسيرُ (٥)

وعلى الرغم من اليأس العام الذي بدا على الشاعر في رثائه لطليطلة الا انه تطرق لما أصاب المدينة وأهلها من الذل في أنفسهم وفي عقيدتهم ، وهذا يجعلنا نرجح أنه قد قال قصيدته بعد سقوط.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج بن أبي العباس بن اسحاق التجيبي المغامي المقرئ ، من أهل طليطلة ، كان عالما بالقراءات ووجوهها ضابطا لها إماما ذا دين وصلاح ، وهو الذي فسر للفونسو السادس حلمه ليلة معركة الزلاقة وأخبره بما سيحل به من الهزيمة وما سيحرز المسلمون من الانتصار ، الذخيرة ق ٤م١/ ١٦٨ ، الصلة ٢/ ٥٢٨ ، الحلل الموشية / ٥٥ .

(٢) نفح الطيب ٤/ ٤٤٧ .

(٣) الذخيرة ق ٤ م١/ ١٦٨ .

(٤) وصلنا ثمانية وستون بيتا من هذه القصيدة انظر : نفح الطيب ٤/ ٤٨٣ — ٤٨٦ .

(٥) نفح الطيب ٤/ ٤٨٥ .

المدينة بفترة أتاحت له الخروج من حالة اليأس والحيرة الى فلسفة الهزيمة وارجاعها الى أسبابها الصحيحة من الفرقة والذنوب المقترفة ، كما انه لم يغفل عن الدعوة الى الثأر ورفض الذل والهوان وهذا ما لم نلمسه عند غيره ممّن ذهلوا بهذا الحدث الخطير ، قال :

ولا تهنوا وسلّوا كلّ عضب ... تهابُ مضاربَاً منهُ النحورُ
وموتوا كلُّكُمْ فالموتُ أولى ... بكمْ مِنْ أنْ تجاروا أو تجوروا
أصبراً بعدَ سبي وامتحانٍ ؟ ... يلامُ عليهما القلبُ الصبورُ (١)

ويلاحظ أنه بقدر ما كان أسف المسلمين لسقوط طليطلة شديدا كان رد الفعل لدى الأدباء خافتا ، فلم يصلنا عن هذا الحدث الا القليل ، وقد يكون ذلك راجعا الى ان الحرب ما تزال سجالا بين المسلمين والنصارى ، وان هناك أملا باستعادتها رغم اليأس العام وشدة المفاجأة ، وقد يكون السبب راجعا الى أن المسلمين ثأروا لها في العام التالي مباشرة بمعركة الزلاقة التي عطت على طرد اليأس من نفوسهم وأعادت الثقة والأمل اليهم ، فتحولت أنظار الأدباء عنها الى حدث مهم آخر .

وقد كانت هزيمة النصارى الصليبيين هزيمة كبيرة في معركة الزلاقة (٤٧٩)هـ على الرغم من غطرستهم وغرورهم (٢) واستعدادهم للقاء المسلمين (٣) ، وقد بدا التحدي والشعور بالظفر لدى أحد الشعراء (٤)

---

(١) نفح الطيب ٤ / ٤٨٤ .
(٢) الاحاطة ٤ / ٣٥١ ، تاريخ المغرب العربي / ٢٤٠ ، الحلل الموشية / ٤٢ .
(٣) تاريخ الاندلس / ٦٢ .
(٤) لم أجد اسم قائل هذا البيت ، في حين نسبه ابن الابار الى ابن جمهور ، وهذا مستبعد اذ أن ولادة ابن جمهور كانت سنة (٥١٦) هـ . الحلة السيراء ٢ / ١٠١ .

فقال مزريا بالنصارى متهكما بهم :

لمْ تعلمِ الرومُ إذْ جاءتْ مصممـةً يومَ العَروبةِ أنَّ النصرَ للعربِ (١)

وشعور الفرح بالظفر نجده أيضا عند ابن اللبّانة حيث يقول :

يوم العَروبة كانَ ذاكَ الموقفُ إنّي شهدتُ فأينَ مَنْ يستوصفُ (٢)

وبهذا الانتصار عادت العزيمة الى نفوس المسلمين كسابق عهدها ، واستبشر الناس به خيرا وأصبح "الاسلام سعيدا والزمان حميدا" (٣) بعد أن ندبه النادبون وبكاه الباكون (٤) ، وكان هذا الانتصار من الأهمية بحيث أعاد الأمور الى نصابها ، بل انّه لأهميته قرن بالأحداث الكبرى في التاريخ الإسلامي ، فقد "كان يوما لم يُسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية ، فياله من فتح ما كان أعظمه ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبّت قدم الدين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق الى اشراقها " (٥) .

وقد كانت هذه المعركة انتصارا للاسلام والمسلمين لتثبيتها دعائم الاسلام في الأندلس بعد ما تزعزعت وهزيمة للشرك ، وقد حاول أن يرسّخ انتصاره في طليطلة بانتصار آخر ، فقال أبو طالب عبد الجبار (٦) فيها :

---

(١) الذخيرة ق ٢ م١/ ٢٥٦ ، الحلة السيراء ٢/ ١٠١ .

(٢) ديوان ابن اللبانة / ٦٧ .

(٣) الذخيرة ق ٢ م١/ ٢٣٦ .

(٤) نفح الطيب ٤/ ٤٨٥ .

(٥) الحلل الموشية / ٦٦ .

(٦) أبو طالب عبد الجبار ويعرف بمتنبي الاندلس ، من أبرع أهل وقته أدبا وأكثرهم تفننا في العلوم وأوسعهم ذرعا في المنثور والمنظوم ، وكان شديد الاعتداد بنفسه ، الا انه كان معاقرا للشراب ، انظر : الذخيرة ق ١ م٢/ ٦١٦ — ٦٤٤ ، وانظر : خريدة القصر ٢/ ٢١٠ — ٢١٥ ، وانظر : المغرب في حلى المغرب ٢/ ٢٧١ — ٢٧٢ .

للهِ درُّ مثلِها مِنْ وقعـــــةْ	قامتْ بنصرِ الدينِ يومَ الجمعــة
وثُلَّ للشركِ هناكَ عرشـــــهُ	لمْ يغنِ عنهُ يومَهُ أذفنشــــــهُ
واتصلَ الأمرُ على نظـــــامِ	وامتدَّ ظلُّ اللهِ للإســــــلامِ (١)

وقد كانت معركة الزلاقة يوما عظيما ، قال فيه ابن بسام الشنتريني يصفه : إنه كان من الفتح ما كان نقد" صرع الله فيه عبدة الطواغيت ووفد عليه (يعني الفونسو السادس) عوضا عن آلاف دنانير الأموال ، نخبهم من الفرسان الأبطال "(٢) ، وهو بذلك يتمثل قصيدة عبد الجليل بن وهبون في هذه المعركة التي يقول فيها :

أتنكر العجمُ أنَّ العربَ سادتُها	وتشهدُ البيضُ والخطيّةُ السمرُ
لمّا تعارضَ دونَ الشكرِ كفرُهُـــمُ	عادتْ بوادرُ فيهمْ تلكمُ البـــدرُ
وهبّ عنْ كلِّ دينارٍ لهمْ بطـــلٌ	كخالصِ التبرِ مسبوكٌ ومختبـــرُ
فليقبلوها مِنْ أسودٍ وخـــــقّ	تزكو على السبكِ لا جبنٌ ولا خورُ
لمْ يهشموا الثغرَ إذ عاثتْ أكفهم	لو يعقلونَ ولكنْ تلكُمُ الثغـــرُ
وليسَ ما غيّروا إلّا لأنفسهـــمْ	كأنّما نبهّوا إذْ نامتِ الغيَـــرُ (٣)

وبذلك فقد شعر المسلمون بأنهم انتقموا من أعدائهم وثأروا لهزيمتهم في طليطلة في العام السالف .

وقد ظهر لنا مدى الامتنان الذى أبداه المسلمون من سعي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لافتتاح حصن لييط سنة (٤٨٢) هـ ومحاولته منع النصارى من استعماله للاضرار بأهل الاندلس ، وقد بدا ذلك جليا

---

(١) الذخيرة ق ١م٢/ ٤٤٩ .
(٢) الذخيرة ق ٢م١/ ٢٥٥ .
(٣) المصدر نفسه .

لدى بعض أمراء الطوائف ،فكتب ابن القصيرة عن ابن عباد رسالة أرسلها الى ابن صمادح يثني فيها على أمير المسلمين ويشكر سعيه اذ "غير ذاهب على أحد ما تقتضيه هذه الحال المبهجة .. من اختصاص أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب .. بقسم من الشكر وافر .. فانه الذي نهج بنفسه السبيل وتجشم فيها المجاشم حتى أذل من المشركين العزيز وأعز من المسلمين الذليل "(١) والموقف ذاته أبداه المعتصم بن صمادح في ردّه على المعتمد بن عباد فقال : " ولا شك أنّ من سعى لله وحده ولم يرد الظافر والظهور الاّ بما عنده أنّ حزبه منصور وآماله موصول بها التسهيل والتيسير ،والحمد لله على ما منح متعيّن ،وموضع الضراعة اليه .. ظاهر بيّن ، على ما أولى من نعم أظهرت الاسلام بعد خمول . وتوجب على ما ذكرت شكر أمير المسلمين .. فهو الذي نهج السبيل ،وبرّد اللوعة والغليل ، وأعاد الحزب اللعين بعد عزته الحقير الذليل " .(٢)

وكان لسقوط بلنسية في يد النصارى سنة (٤٨٧)هـ (٣) صدى كبيرا لدى المسلمين ،فهي احدى المعاقل الاسلامية المهمة التي يريد النصارى الاستيلاء عليها كمرحلة تمهيدية للاستيلاء على باقي المناطق الاسلامية في الاندلس(٤) ،واذا كانت كتب التاريخ قد ساقت خبر سقوط بلنسية واسترجاعها بعد ذلك بطريقة السرد التاريخي (٥) فان الأدب قد بيّن لنا مشاعر أهلها ــ ومشاعر المسلمين عامة ــ وما أصابهم من اليأس والقنوط عند سقوطها

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ١/ ٢١٣ .
(٢) انظر : الذخيرة ق ٢م ١/ ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .
(٣) البيان المغرب ٤/ ٣٣ .
(٤) تاريخ الاندلس/ ١٠٣ .
(٥) انظر : البيان المغرب ٤/ ٣٣ ــ ٤١ .

وما شعروا به من الفرحة والاستبشار عند استرجاعها : فعندما بدأ النصارى بحصار المدينة استنجد أهلها بحاميات المدن الاسلامية الأخرى ، فسارت اليهم جموع كثيرة من جيوش المرابطين ، فتفاءل أهل بلنسية بقرب الفرج وقويت عزائمهم باخوانهم ، ومالوا الى التحدي ورفض اليأس ، فقال أحدهم :

قولوا للذريق (١) إنَّ الحقَّ قدْ ظهرا
أو نقّدوهُ إذا ما طيرةٌ زجرا
سيوفُ صنهاجةَ في كلِ معترك
تأبى لأثيارهِ أنْ تصدقَ الخبرا (٢)

وبسبب مالاقته هذه المدينة من التخريب والتدمير فقد رثاها غير واحد من المسلمين ، فرثاها قاضيها أبو الوليد الوقشي (٣) بمرثية

---

(١) لذريق هو الاسم الأصلي للسيد الكمبيطور ، البيان المغرب ٤ / ٣١ .
(٢) البيان المغرب ٤ / ٣٥ .
(٣) أبو الوليد هشام بن أحمد الوقشي ، ولد في بلدة وقش سنة (٤٠٨) هـ ، توفي بدانية جنوبي بلنسية سنة (٤٨٩) هـ ، وقد كان عليما بالنحو واللغة ومعاني الأشعار وعلم العروض بصيرا بأصول الاعتقادات وأصول الفقه وعلم الشروط والفرائض ، وكان قاضيا لبلنسية لفترة من الوقت ابان سيطرة السيد عليها ، ويلقي ابن بشكوال ظلالا من الشك على سلوكه اذ يقول — رغم مدحه له — : " وقد نُسبتْ اليه أشياء والله اعلم بحقيقتها وسائله عنها ومحازيه عليها " ، انظر : الصلة ٢ / ٦١٧ — ٦١٨ . الا اننا لم نعرف ماذا يقصد ابن بشكوال بهذه الأشياء ، ومن المحتمل ان تكون علاقته بالسيد منها اذ يظهر انه كانت له به علاقة إدارية فهو قاضي المدينة وذاك حاكمها ، ومثل هذه العلاقة مع العدو لم تكن ترضي المسلمين ، وليس من المستبعد أن تكون هذه الاشياء من أسباب ضياع أدبه .

حزينة باكية ، الا أن المرثية لم تصلنا وانما وصلنا منها بعض ابيات مترجمة من الاسبانية توحي بما كان يشعر به الوقشي من الالم والمرارة وما يلاقيه أهل المدينة من صنوف العذاب والموت ، يقول :

"اذا مضيتُ يمينًا هلكتُ بماء الفيضان
واذا ذهبتُ يسارًا أكلني السبع
واذا مضيتُ أمامي غرقتُ في البحر
فإذا التفتُّ خلفي أحرقتني النار" (١)

وظل ابن خفاجة يتشوق الى بلنسية — وهو ابنها ولد فيها ونشأ بين جنباتها — ويتحسر لأيامه الخوالي بها فتشجيه الذكريات خاصة وهو يرى ما حل بها من التدمير وما حل بأهلها من التشريد :

عيشةٌ أقبلتْ يشهّي جناها	وارفٌ ظلُّها لذيذٌ كراها
ثمَّ ولّتْ كأنّها لمْ تكن تلـ	بثُ إلّا عشية أو ضحاها
آهِ من غربةٍ ترقرقُ شجـا	آهِ من رحلةٍ تطولُ نواها
آهِ منْ فرقةٍ لغيرِ تلاقٍ	آهِ منْ دارٍ لا يجيبُ صداها
لستُ أدري ومدمعُ الحزنِ رطبٌ	أبكاها صبابةً أمْ سقاها (٢)

وتبدو المرارة ذاتها لدى الشاعر نفسه عندما يعاوده الحنين الى بلده السليب ، فيدعو على العدو بالفناء والزوال لإلحاقه التخريب والتدمير بالمدينة ، ويزداد شعوره بالمرارة بعد اتلاف النصارى معالمها حتى ليرى الجمال والفن اللذين عهدهما فيها حزنا وأسى ، بل انه يجعل من نهرها وطيورها بواكيا تشاركه النواح والبكاء عليها ، يقول :

---

(١) الفكر الاندلسي /١١٧ .
(٢) ديوان ابن خفاجة /٣٦٥ .

ومرتبــعٍ حططتُ الرحلَ فيـــهِ بحيثُ الظلُّ والماءُ القـــراحُ
تخرَّمَ حسنَ منظـرهِ طبيـــكٌ تخرمُ مُلكَهُ القــدرُ المتـــاحُ
فجريةُ ماءِ جدولـهِ بكـــاءٌ عليهِ وشدوُ طائرهِ نـــواحُ (١)

ويظهر الحزن العميق لدى أبي عبد الرحمن بن طاهر وقد كتـــــب من أسره في بلنسية بعد احتلالها قائلا : " كتبت منتصف صفر وقد حصلنــــا في قبضة الاسر ، بخطوب لم تجر في سالف الدهر ، فلو رأيت قطـــــر بلنسية — نظر الله اليه وعاد بنوره عليه — وما صنع الزمان به وبأهلــــه لكنت تندبه وتبكيه ، فلقد عبثت البأس برسومه وعفى على أقماره ونجومــــه ، فلا تسأل عما في نفسي وعن نكدي ويأسي " . (٢)

وممن رثى بلنسيه وتحسر عليها وعلى أهلها أبو عبد الله بن خلصـــة البلنسي ، فقد أبدى حزنه ولوعته لمصاب أهل المدينة حيث ذاقوا المـــوت وتجرعوا العذاب الذي صبّه عليهم السيد وجيشه (٣) قال :

وروضةٍ زرتُها للأنسِ مبتغيــًا فأوحشتني لذكرى سادةٍ هلكـــوا
تغيّرتْ بعدهُمْ حزنًا وحُقَّ لهـا مكانَ نوّارها أنْ ينبتَ الحسكُ
لو أنّها نطقتْ قالتْ لفقدِهِـمُ "بانَ الخليطُ ولمْ ياووا لمنْ تركوا " (٤) (٥)

واذا كان الحزن والاسى قد طغى على المسلمين مشاعرهم عند سقـــوط بلنسية فقد كان الفرح والسرور كبيرا لدى النصارى لاحتلالهم هذا الثغـــر الاسلامي المتقدم ، وقد تبدى ذلك من خلال ملحمة نظمها أحد النصـــارى

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ١٣٧ .
(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ / ٩١ .
(٣) انظر : البيان المغرب / ٣٨ — ٣٩ .
(٤) عجز البيت لزهير بن أبي سلمى ، شرح ديوان زهير بن ابي سلمى / ١٦٤ .
(٥) صفة جزيرة الاندلس / ٤٨ .

وتصورها على السيد واحتلاله للمدينة ، وأبدى فيها السرور والحبور لما اصابوا من نصر ولما لحق بالمسلمين من هزيمة ، حيث تقدم النصارى وقد ،

" انتشرت رائحةُ الغنائم فما تخلفَ أحدٌ عن المجيء
وآخرونَ جاءوا مدفوعينَ بحقد تهم
فتقدمَ السيدُ نحوَ بلنسيةَ وانقضَّ عليها
وضربَ سيّدي حولها حصاراً دقيقاً صارماً لا يفلتُ منهُ إنسان
لا أحدَ من سكانها يستطيعُ خروجاً أو الدخول
ودامَ الحصارُ مستمراً تسعةَ أشهرٍ بلا انقطاع
وبمجيء العاشر أحنت المدينة رأسها
يا للبهجة الغامرة
عند ما استولى سيّدي على بلنسية ودخلَ المدينةَ ظافرا "(١)

ان هذه الابيات المترجمة عن الاسبانية القديمة رغم تأخر نظمها توحي بمدى الفرحة التي عمت جموع النصارى باحتلال بلنسية .

وقد عايش المسلمون بمشاعرهم محنة هذه المدينة منذ سقوطها (٤٨٧) هـ حتى استعادتها (٤٩٤) هـ ،وعايشوا أيامها اليائسة والواعدة ، فعند ما تهيأت الظروف لاسترجاعها قال ابن خفاجة مؤملاً بقرب عودتها :

الآنَ سحَّ غمامُ النصرِ فانهملا	وقامَ صغوُ عمودِ الدينِ فاعتدلا
ولاحَ للسعدِ نجمٌ قدْ خوى فهوى	وكرَّ للنصرِ عصرٌ قدْ مضى فخلا
وأقشعَ الكفرُ قسراً عنْ بلنسيةٍ	فانجابَ عنها حجابٌ كانَ منسدلا

(١) ملحمة السّيد /٣٣٧ .

وطهّرَ السيفُ منها بلدةً جُنُبَـــاً   لمْ يجزها غيرُ ماءِ السيفِ مغتسلا (١)

إنّ أبيات ابن خفاجة هذه قد تكون من قبيل تمنيات الشعراء وأحلامهم ، الا أنّه من المرجح أن المرابطين قد أعدّوا لاسترجاع بلنسية عدّة أشعرت الشاعر بالثقة ودفعته الى أن يقول مثل هذه الابيات ، وما كنا لنحصل على هذه الاشارة لو لم ينبه اليها ابن خفاجة .

الا أن استرداد بلنسية كان مصحوبا بتخريب كبير لها ، فقد أحرقتها جيوش السيد وجعلتها طعما للنيران (٢) ، فكان الفرح خافتا ومصحوبا بالحزن بسبب مصابها ، وفي ذلك يقول أبو عبد الرحمن بن طاهر : " كتبتُ منتصف الشهر المبارك وقد وافى بدخول بلنسية — جبرها الله — الفتح بعدما خامرها القبح ، فاضرم (العدو) أكثرها نارا وتركها آية للسائلين واعتبارا . . فهي تنظر من طرف خفي وتتنفس عن قلب يقلّب على جمر ذكي ، غير انه بقي لها جسمها الانعم ، وتربها الاكرم ، الذي هو المسك الأذفر ، والذهب الاحمر ، وحدائقها الغلب ، ونهرها العذب ، وبسعد أمير المسلمين وناصر الدين . . ينجلي عنها ظلامها ويعود عليها حليها ونظامها وتروح في الحلل ، وتبرز كالشمس في بيت الحمل " (٣) .

ولشدّ ما كان أسى ابن خفاجة وحزنه على بلنسية وقد عادت بهذه الحال ، وهو الذي كان يتشوقها ويستعيد صورها الجميلة في ذهنه ويتمنى أن يرى مدارج طفولته فيها ، وقد دفعه حزنه عليها الى رثائها بمرثية تقطر لوعة ومرارة ، ولا شك أن صرخة ابن خفاجة هذه

---

(١)   انظر : ديوان ابن خفاجة / ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٢)   الذخيرة ق ٣ م١ / ١٠١ .
(٣)   انظر : الذخيرة ق ٣ م١ / ١٠١ — ١٠٢ .

هي دليل وفائه لأرضه وذكرياته ، كما أنها دليل على شدة المفاجأة التي وقعت عليه وعلى المسلمين عامة باحراق المدينة ، يقول :

عاثتْ بساحتكِ العدى يا دارُ ومحا محاسنَكِ البلى والنارُ
واذا تردّدَ في جنابكِ ناظرٌ طالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ
أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بأهلِها وتمخّضتْ بخرابِها الأقدارُ
كتبتْ يدُ الحَدَثانِ في عرصاتِها "لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ" (١)(٢)

وعلى الرغم من الحزن والأسى الذي تركه احراق بلنسية الا أن الفرحة بالنصر لم تختفِ من نفوس المسلمين نهائيا ، فقد آمنوا بأن هذا الأمر هو قدر مكتوب يخفف من وقعه استعادة المدينة ، اذ كان في تطهيرها من الشرك "في عودتها الى الاسلام عزّ وعزاء عما نفذ به قدر وقضاء" (٣) وقد عدّ أبو مروان بن أبي الخصال استعادتها رجوع ميت الى الحياة "فالآن نشر الميت من لحده وعاد الحسام الى غمده . فقل في فتح عمّ الله ببهجته قلوب المؤمنين وخصّ بالفضل فيه أمير المسلمين" (٤) .

وقد أسرع علي بن يوسف بالجواز الى الاندلس بجيوش الجهاد عند توليه امرة المسلمين سنة (٥٠٠) هـ (٥) ، فتوجه الى أقليش وحاصرها سنة (٥٠١) هـ وهزم النصارى فيها وشدّد عليها حتى افتتحها وافتتح قصبتها عندما استحكم فيها المدافعون من النصارى (٦) ، وقد برز هذا

---

(١) عجز البيت لأبي تمام ، ديوان أبي تمام ٢/١٦٦ .
(٢) ديوان ابن خفاجة / ٣٥٤ .
(٣) الذخيرة ق ٣ م١ /١٠٢ .
(٤) انظر : الذخيرة ق ٣ م٣ / ٨٦٨ — ٨٦٩ .
(٥) البيان المغرب ٤ / ٤٨ .
(٦) انظر : نظم الجمان / ٥ — ١٠ .

الحدث في الأدب بصورة انتصار عظيم ، مما حدى بالتطيلي الى أن يسخر من النصارى قائلا :

سل الروم في أقليش يوم تبايعوا ألم يعلموا أن الفرائس للاسد
تباروا الى تلك الحتوف فسلهم أما كان عنها من محيص ولا بد (١)

وكان هذا الانتصار كبيرا أثخن المسلمون فيه بالنصارى وحاصروهم في عقر دارهم وفي حصونهم اذ " لما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الاصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغش ذلك الملتحم ، وقصر الوقت المبغت وشغل الاخيذ عن المفلت .. وعادت بقاياهم بقصبة المدينة .. قد غلقوا الابواب وأسدلوا الحجاب " (٢) .

وفي هذا الانتصار يقول التطيلي مادحا أمير المسلمين ومؤكدا ما أحرزه من الظفر وما ألحقه بالنصارى من الهزيمة في هذه الموقعة :

وصبحت أقليش في جحفل أعص الوهاد وأد الرعانا (٣)
بكل كمي يروع الاسود خماصا ويرعى عليها بطانا
على كل نهد أمام الرياح وزاد عليها القرى (٤) واللبانا (٥)
يجر العنان الى كل حرب مرته (٦) فدونك منه عنانا
فأبت وغادرت تلك الديار عجافا تهادى خطوبا سمانا

---

(١) ديوان الاعمى التطيلي / ٣١ .
(٢) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٥ .
(٣) الرعان : جمع رعن وهو الانف العظيم من الجبل تراه متقدما ، لسان العرب ١٣ / ١٨٢ .
(٤) القرى : الظهر ، لسان العرب ١٥ / ١٧٦ .
(٥) اللبان : الصدر من ذي الحافر خاصة ، لسان العرب ١٣ / ٣٧٦ .
(٦) مرى : استخرج ما لديه ، لسان العرب ١٥ / ٢٧٧ .

إذا هيَ لمْ تفهمِ السائليـنَ كانَ لها سيفُكَ الترجمانـا (١)

وفي عام (٥٠٣) هـ افتتح أمير المسلمين علي بن يوسف طلبيرة (٢) ، ويذكر ابن عذاري انه عند افتتاح هذه البلدة أسرع أمير المسلمين الى الجامع فطهره وأعاده "على الهيئة المسلمة" (٣) ، وهذا يعني أن تغيير المعالم الدينية لم يقتصر على المدن الكبرى التي كانت تقع في أيدي النصارى بل كان يشمل كل ما يحتازونه من أرض المسلمين سواء في ذلك المدن والقرى ، وقد قال الاعمى التطيلي في هذا الحدث أبياتا يمدح فيها أمير المسلمين ويذكر محاصرته لطلبيرة وافتتاحه لها رغم حصانتها :

نمى طلبيرةَ الدنيا حديثـاً لهُ في كلِ ناصيةٍ شجـونُ
ألحَّ على الردى منها غريـمٌ قليلاً ما تحنّيـهُ الديـونُ
وقارعَ دونها الحَدَثانَ طَـوْقٌ سما عنْ كلِ فوقٍ فهـو دونُ
وكانتْ لا تدينُ ولا تدانـى فصبّحهـا بحزمٍ لا يديـنُ (٤)

وكان غزو أمير المسلمين طليطلة في العام ذاته ومحاصرته لها انتصارا بحد ذاته رغم استعصائها عليه - فهي عاصمة النصارى ومعقلهم الحصين - فقد شددت عليها جيوش المرابطين مدة "ثلاثة أيام .. (فـ) ساءت ظنون أهلها على ما هي عليه من الحصانة والمنعة" (٥) ، ويذكر

---

(١) ديوان الاعمى التطيلي /١٨٩.
(٢) انظر : نظم الجمان /١٣ - ١٤ ، ازهار الرياض ٥/١٥٧.
(٣) البيان المغرب ٤/٥٢.
(٤) ديوان الاعمى التطيلي /٢٠٢.
(٥) البيان المغرب ٤/٥٢.

التطيلي هذا الحصار ويحاول أن يرسم لنا حنين المدينة الى ماضيها الإسلامي وحلمها بالرجوع الى حوزة المسلمين، فيقول :

وكيف رأت طليطلة الليالي ... بحيث تغيث باسمك أو تمين
نسفت جبالها بجبال موت ... تدور بها رحى الحرب الطحون
ولم أر قبلها شجياً بشيء ... له في اثر مشجيه حنين
فلولا رز جيشك اسمعتنا ... عويلاً يستهل به الأنين
ولو كان الخيار الى رباها ... دعتك وروضها ترف ولين (١)

ونتيجة لهذا الانتصار الذي حققه المسلمون فقد قويت مشاعر التحدي لديهم لاسيما وان حصار طليطلة هذا قد تم بعد افتتان سبع وعشرين حصناً من أحوازها (٢). ورغم استعصاء المدينة على المسلمين وعدم تمكنهم من افتتاحها الا أن الأمل ظل قوياً لديهم بالعودة اليها في وقت لاحق ، وقد كان هذا الشعور واضحاً لدى التطيلي فعبر عنه قائلا :

وبأذن لا تنال الطير ذروته ... حتى سواء به العقبان والحجل
خفّ الاعادي بها عن عقر دارهم ... لقد عجلت اليهم أو لقد عجلوا
شافهْ طليطلة ماذا تريد بها ... بالعطف إن أشكل التوكيد والبدل
أمطرت ما حولها الموت الزؤام فهل ... من عودة أيهذا العارض الهطل (٣)

ويتعزز شعور الأمل بامكانية استعادة المدينة عندما يجد الشاعر أمثلة مستمدة من معارك المسلمين الأولى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠٣ - ٢٠٤ .
(٢) الانيس المطرب / ١٦١ .
(٣) ديوان الاعمى التطيلي / ١١٥ .

كيـوم حنين ويوم الحديبية اللّذين قيّض الله النصر فيهما بعد الرجوع عن الطائف ومكة يقول :

لأمرٍ ماردّتَ الخيلَ عنهمْ	وقدْ جعلتْ محاينهمْ تحينُ
وأسوتُكَ الرسولُ وإنْ يشكّوا	فعندَ جهينةَ الخبرُ اليقينُ
ثناها منْ ثقيفٍ والموالي	بهمْ لحبّ ود ونهمْ رنينُ
فوفاهُ بهمْ ظمأٌ وشوقٌ	وقد ارْأتى بهمْ وحنينُ
وهادنَ أهلَ مكةَ عن حماها	وقدْ تكفي من الحربِ الهدونُ
فما برحوا بها حتى أتوها	تثيرُ النقعَ موعدُها الحجونُ
فإنْ تحرزْ طليطلةَ الليالي	فسيفُكَ ياعليُّ بها ضمينُ (١)

ويلاحظ أن تحديد الأحداث التاريخية في أدب الجهاد لم يكن كبيرا ، فاقتصر على ذكر بعض القرائن والمعالم غير الكافية كذكر اسم القائد أو ذكر اسم البلد المحاصر أو المفتتح أو ذكر النتيجة التي أسفرت عنها الموقعة دون اهتمام كاف بالتفصيلات الاخرى مثل تصوير طبيعة المكان وأنواع المعدات الحربية وأشكالها وطبيعة سير المعارك (٢) ، وذلك لتركيز الشعراء على شخصية الممدوح أو المرثي على حساب الحدث التاريخي الذي يجيء في غالب الأحيان في سياق المدح أو الرثاء ، ولاهتمام الشعراء والكتاب أيضا بأثر الحدث على المسلمين نصرا أو هزيمة ، ومن هذه الاشارات الجزئية ما ذكره ابن شرف على لسان أبي الطاهر تميم من أن اثنين من قادة المرابطين كانا يشاركانه في غزوة أقليش (٥٠١ هـ) " وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ذوي النصيحة

---

(١) انظر : ديوان الأعمى التطيلي / ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) صدى الغزو الصليبي / ١٣٦ .

والآراء الصحيحة أبا عبد الله محمد بن عائشة وأبا محمد عبد الله ابن فاطمة[1] . . . فاجتمعا على كلمة الله". [2]

ومثل هذا التحديد الجزئي لبعض الأحداث التاريخية نجده لدى ابن الزقاق عندما مدح ابن غانية وابن الحاج [3] ، وكان ابن غانية قد خرج على رأس جيش غازيا برشلونة سنة (٥٠٨)هـ وأناب ابن الحاج على بلنسية مكانه ، وفي العودة هاجم جيش النصارى جيش المسلمين على حين غرّة ، فهزم المسلمون ، وصادف أثناء غزو ابن غانية أن هاجم الجراد بلنسية فقاومه ابن الحاج [4] ،ويقرن ابن الزقاق بين الحدثين

---

(١) أبو عبد الله محمد بن فاطمة من كبار قادة المرابطين اشترك في كثير من معاركهم مع النصارى ، تولى كثيرا من الولايات في المغرب والاندلس ، وولي اشبيلية سنة (٥٠٩)هـ توفي فيها في رمضان سنة (٥١١) هـ ، نظم الجمان / ٨ ، وانظر : البيان المغرب ٤/ ٤٢ ، ٦٢ ، ١٠٦.

(٢) الثغر الاعلى الاندلسي /٢٨.

(٣) أبو علي المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني ، كان نزيها راغبا في العلم ، توفي بجزيرة يابسة سنة (٥٤٧) هـ ، انظر : المعجم/ ٢٠١ — ٢٠٣.

(٤) التكملة ١/ ٢٩ ، وانظر : المعجم /٢٠١ — ٢٠٢.

فيذكر ما قام به يحيى بن غانية من غزو النصارى وما قام به ابن الحاج (ابو علي) من مكافحة الجراد ويقول :

لنا ملكان حازا كلّ فخر بما ملكاهُ من رقّ الاعادي
فيحيى للفوارس مستعدٌّ وأنتَ أبا عليٍّ للجرادِ (١)

وقال لسقوط جزيرة ميورقة في أيدي الاساطيل النصرانية سنة (٥٠٨) هـ(٢) وقع شديد الاثر في نفوس المسلمين ،فقد أذاقهم النصارى الكثير من الأهوال والمصائب (٣) ، وشعر المسلمون بالمفاجأة وقد تكالبت عليهم جموع النصارى من امارات الممالك النصرانية كبيزة وجنوة وقطلونية وغيرها ، وتجسيدا لهذه المفاجأة فقد تمثل أبو الحسين بن الجد بيتي المتنبي - اللذين قالهما عند سماعه نبأ وفاة أخت سيف الدولة - ، منفّسا عن همّه وباثا حزنه ، اذ كان سقوط الجزيرة فاجعة كبرى :

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيهِ بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدعْ لي صدقُهُ أملاً شرقتُ بالدمعِ حتى كادَ يشرقُ بي (٤)

ويؤكد الكاتب ضخامة الخطب وعظم المصيبة التي حلت بهذه الجزيرة ، فما أصابها " كيف (ما) تصرفت (به) مشكلة وعلى ما تخيلت مذهلة " (٥) ولمّا كان شعور الكاتب مليئا بالحزن والاسى فقد عدّ يوم سقوطها يوما للقيامة فجأ المسلمين وأذاقهم من الاهوال ما يفوق الاحتمال ،

---

(١) ديوان ابن الزقاق /١٣٨ .
(٢) نظم الجمان /٢٠ ،وانظر : تاريخ ابن خلدون ٤/٣٥٥ - ٣٥٦ .
(٣) الذخيرة ق ٢ م٢/٥٥٩ .
(٤) انظر : ديوان المتنبي ١/٨٧ - ٨٨ .
(٥) الذخيرة ق ٢ م ٢/٥٥٩ .

بل انه لشدة فزعه وعدم احتماله لهذا النبأ تمنى أن يكون الامر كذبا ، الا انه بعد تيقنه من صحته أسلم نفسه للحزن والبكاء قائلا :

كتبتُ وقدْ غالتْ عزائيَ أشجانُ وقدْ شرقتْ بالدمعِ والدمِ أجفانُ
وقدْ وقذتني (١)أنباءُ الخطبِ لمْ تصُنْ إلى مثلِها في سالفِ الدهرِ آذانٌ
تصامَمتُ عنها مستريحاً إلى المُنى وقلتُ عساها في الأحاديثِ بهتانُ
إلى أنْ جلاها الصدقَ عندي فهدَّني وإنَّ قليلاً أنْ تضعضعَ أركانُ
كذا فارقبوا يومَ القيامةِ بغتةً فيهلكُ شيطانٌ ويُهتَكُ سلطانُ
عزاءٌ وأنّي بالعزاءِ وقدْ هوتْ كما قدْ دنتْ فيكمْ نجومٌ وأغصانٌ
وبينَ ضلوعي والجفونِ تنازعٌ على الرسمِ في جسمي فسحبٌ ونيرانُ
ولا شكَّ أني بينَ هاتيكَ طائحٌ فيغرقُ طوفانٌ ويحرقُ بركانُ
تقسمٌ صبري والحوادثُ جمّةٌ طلولٌ وجيرانٌ وقومٌ وأوطانُ (٢)

وأبدى القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية ـ أيضا ـ الحزن لسقوط ميورقة في يد النصارى ووجه استغاثته لأمير المسلمين علي بن يوسف ليدفع الضيم ويرد العدو عن الجزيرة ، قال :

ونحوَ أميرِ المسلمينَ تطامحتْ نواظرُ آمالٍ وأيدي رغائبِ
من الناسِ تستدعي حفيظةَ عدلِهِ لصدمةِ جورٍ في ميورقَ ناصبِ
أليسَ جديرًا أنْ يشيّبَ ذكرُهُمْ بأمةِ قلبٍ في المدامعِ ذائبِ (٣)

---

(١) وقذ : الوقذ شدة الضرب ، وقذه يقذه وقذا : ضربه حتى استرخى واشرف على الموت ، لسان العرب ٣/٩١٩ .
(٢) أنظر : الذخيرة ق ٢ م ٢/٥٥٩ — ٥٦٠ .
(٣) قلائد العقيان / ٢١٢ .

وقد كانت استجابة أمير المسلمين لهذا الخطب سريعة ، فأوصى بتعمير الاسطول ، ووكل أمره الى القائد محمد بن ميمون ، ليطرد النصارى من ميورقة وليحمي الشواطيء الاسلامية في الاندلس (١).

ولما حاول الفونسو المحارب احتلال سرقسطة سنة (٥٠٩)هـ نهض اليه الأمير عبد الله بن مزدلي وردّه عنها ، فقال ابن أضحى (٢) في ذلك مهنئا بالنصر عادا ذلك هزيمة للكفر وأهله وانتصارا للاسلام والمسلمين وتنفيسا عن أهل المدينة :

يا أيّها الملكُ مضمونٌ لكَ الظفرُ أبشرْ فمن جندِكَ التأييدُ والقدرُ
وأبْ لنا سالماً والسعدُ مقتبلٌ والدينُ منتظمٌ والكفرُ منتثرُ
وقد طلعتَ على البيضاءِ من كثبٍ كما تطلّعَ في جنحِ الدجى القمرُ
حللتَ في أرضها في جحفلٍ لجبٍ كما يحلّ بها في الأزمةِ المطرُ
وحولكَ الصيدُ من لمتونةٍ وهم الـ أبطالُ يومَ الوغى والأنجمُ الزهرُ
والعربُ ترفلُ فوقَ الضربِ سابحةً كالأسْدِ ليسَ لها الا القنا ظفرُ
من كلِ أروعَ وضّاحٍ عمامتهُ كالبدرِ نحو لقاءِ البدرِ يبتدرُ
شعارهُ البرّ والتقوى ومؤنسهُ في ليلهِ رمحهُ والصارمُ الذكرُ (٣)

ولقد كانت الحمية لدى القادة المسلمين كبيرة والهمة عالية في دفاعهم عن الاسلام والمسلمين ، فقال أبو الحسن بن أضحى يصف همة عبد الله بن مزدلي ودفاعه عن سرقسطة : فقد انتدب نفسه لمهاجمة النصارى وقاد المسلمين نحوها وجعلهم "ينسلون . . اليها من كل حدب وشمّر تشمير البطل المغوار . . حتى دخلها والعدو صاغر . . فاستبشر المسلمون بمضائه واستظهر الدين بانتضائه ". (٤)

---

(١) وثائق تاريخية / ١٨٥ ، تاريخ الاندلس / ١٢٢ ، نظم الجمان / ٢٠ ، البيان المغرب ٤ / ٦٢ .
(٢) الفقيه ابو الحسن ابن اضحى ، واحد من فقهاء الاندلس المشهورين في هذه الفترة ، ولي قضاء القضاة بغرناطة كما تولي قضاء المريّة توفي سنة (٥٤٠)هـ ، انظر: قلائد العقيان / ٢١٥–٢١٨ ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ١٠٨ .
(٣) قلائد العقيان / ٢١٨ ، خريدة القصر ٣ / ٤٩٩ .
(٤) انظر : قلائد العقيان / ٢١٧ — ٢١٨ .

ويمدح أبو بكر بن بقي أمير المسلمين علي بن يوسف وقد انتصر على النصارى في غزوة قلمرية سنة (٥١١) هـ[1]، ويبدو على الشاعر الفرح بالظفر حيث أزرى بالنصارى وتشفى بهم قائلاً :

صبّحتَ كلَّ حريمٍ في قَلَمْرِيَةٍ   بغارة أنتَ فيها الفارسُ النَّجِدُ
بئسَ الصباحُ صباحُ المنذرينَ بها   ونعمَ غزوُ أميرٍ أمرُهُ رشدُ (٢)

ونتيجة لالحاح النصارى الصليبيين على شرق الاندلس فقد سقطت سرقسطة سنة (٥١٢) هـ على يد الفونسو المحارب[3]، ويمكننا أن نتصور حقد العدو عليها وتلهفه على استحواذها من اسرابه الى امتلاكها وتنكيله بأهلها، فما أن سمع بوفاة أميرها أبي بكر بن تيفلويت حتى قصدها[4]، وسرى اليها " سري قيس[5] لأهل الهباءة، وأقام عليها يمحو رونقها، ولا يألوا استلاباً رمقها، حتى أعادها كالنظام الواهي .. ومازال يورث أهلها كل هم ويجدد كل كامن دخيل، ويغير جنات من أعناب وزرع ونخيل، حتى عادت كالصريم، وراح الفساد فيها لا يريم، فطاع أهلها بحكم القسر، ورأوا الذمة أجدى من الفل والاسر"[6]، وبسقوط سرقسطة فقد فجع المسلمون بثغر حصين آخر.

---

(١) البيان المغرب ٤/ ٦٤.
(٢) قلائد العقيان / ٢١٩.
(٣) الانيس المطرب / ١٦٣.
(٤) قلائد العقيان / ٣٠١.
(٥) هو قيس بن زهير الذي قتل حذيفة وحمل ابني بدر الفزاري في أرض الهباءة من بلاد غطفان . معجم البلدان ٥/ ٣٨٩.
(٦) قلائد العقيان / ٣٠١.

ومما لا شك فيه أن المرابطين قد حاولوا انقاذ المدينة قبيل سقوطها وكان ذلك بقيادة أبي الطاهر تميم ، الا أنه نكص وتراجع[١] دون مواجهة مع العدو ، فكان ذلك من أسباب نجاح حملة النصارى على المدينة ويؤكد ذلك ما أبداه القاضي ثابت بن عبد الله[٢] من الحنق والغضب لتصرف أبي الطاهر تميم وتوليه أمام جيوش النصارى[٣] ، فكتب اليه يشكو حال المسلمين في المدينة ويقرعه على سوء فعله قائلا : " فما دانت أيها الأمير ومن يلوذ به — بعد الله — الجمهور بأمة هي وقائد هذه العظائم القادمة والنوائب الكالحة ؟ "[٤] ، ثم يجيب معلقاً مسؤولية ما يتهدد أهل المدينة من خطر مرتقب في عنق الأمير ويجعل مخاطبته بضمير الغائب تأنيباً له ، ثم يدعو عليه بضمير الخطاب بعد ذلك احتقارا له وازراء به فيقول : " هو الطالب بدمائها ، اذ أسلمها في آخر ذمائها ، وتركها أغراضا لأعدائها حين أحجم عن لقائها ، فالى الله بذلك المشتكى ، ثم الى رسوله المصطفى ، ثم الى ولي عهده أمير المسلمين المرتضى حين ابتعثك بأجناده وأمدك بالجم الغفير من أعداده ، نادبا لك الى مقاومة العدو المحاصر لها وجهاده "[٥] . ومن النص أيضا يظهر لنا مدى المصيبة التي أحاطت بأهل المدينة : فقد صبروا على الحصار سبعة أشهر شديدة

---

(١) الثغر الأعلى الاندلسي / ١٣٤ .

(٢) لم نجد له ترجمة فيما وصلنا من المصادر ، ولا نعرف عنه الا أنه كان قاضيا لسرقسطة إبّان سقوطها . الثغر الاعلى الاندلسي /١٣٢ .

(٣) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي /١٣٢—١٣٤ .

(٤) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٣ .

(٥) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٤ .

" نهكهم (فيها) ألم الجوع ، وبلى المدى بهم من الضرّ الوجيع ، قد برّح بهم الحصار ، وتقدت عن نصرتهم الأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعًا يجرون ، يلوذون برحمة الله ويستغيثون . وما كان الآن وصلت .. على مقربة من هذه الحضرة . . (حتى) انثنيت وما انتهيت .. خائبا عن اللقاء ، ناكصا على عقبيك عن الأعداء ، فما أوليتنا غناء بل أوليتنا بلاء وعلى الداء داء بل أدواء .. (ف) أذللت الاسلام والمسلمين ، واجترحت فضيحة الدنيا والدين " (١) ، وبذلك فقد قدّم الأدب حدث سقوط سرقسطة من خلال شعور المسلمين تجاهه ، فبث فيه الحياة ، وجعلنا نحسّ بفاجعة كبيرة تسبب بها التقصير وسوء التصرف الذي وقع فيه قائد جيش المرابطين القادم لانقاذ المدينة .

وعرفنا من الأدب أيضا ان المرابطين قد حاولوا الثأر لسرقسطة ، فتقدم أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف المعروف بـ (ابن تعيشت) نحوها ونازلها ، الا أن جيشه انفضّ عنه منهزما وتركه في قليل من خاصته ، فلامهم ابن خفاجة ومدح ابن تعيشت لثباته وشجاعته ، قال :

ورجالٍ قادةٍ نُجُبٍ	نزلوا عنْ رتبةِ البُهَمِ
وأدلّوا بمراكزهمْ	واستطارتْ خيلهُمْ بِهِمِ
تتفرّى الجيشُ عنْ طَلِقٍ	سافرٍ عنْ وجهِ ملتثمِ
مقدمٍ في الروعِ مجترىءٍ	ضاربٍ بالسيفِ مقتحمِ
وبهمْ ما جرَّ ذلكَ مِنْ	كَلْمِ عارٍ أو خنى كَلِمِ (٢)

كما حاول المرابطون الثأر أيضا في السنة التالية ، فجيّش أمير

---

(١) الثغر الاعلى الاندلسي /١٣٤ .
(٢) ديوان ابن خفاجة /١٠٩ .

المسلمين جيشا بقيادة أبي اسحاق ابراهيم بن يوسف نفسه ووجهه الى منطقة سرقسطة ، فالتقى بجيوش النصارى في كتندة سنة (٥١٤) هـ ، فدارت الدائرة على المسلمين أيضا وقتل منهم خلق كثير (١).

ونتيجة لهذه الهزائم المتوالية التي لحقت بالمسلمين فقد ضعفت معنويات المجاهدين ، اذ استشرى اليأس في نفوس المسلمين ، فكانت الهزائم تقود الى أخرى ، فاضافة الى الهزائم السابقة انهزم المسلمون سنة (٥٢٣) هـ هزيمة منكرة في وقعة القلاعة ، وكان لهذه الهزيمة وقع شديد لدى المسلمين عامة ولدى أمير المسلمين خاصة ، فأرسل الكتب الى القادة يوبخهم ويلومهم (٢) وخص قائد الجيوش في تلك المعركة بكتاب يلومه فيه ويقول : " كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ولا أمال عن الهدى والرشد سعيك ، من حضرة مراكش — حرسها الله — في السابع من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وقبله وافى كتابك تذكر فيه الديلة التي كانت للعدو . . عليه في اليوم الذي واجهتموه فيه بعد أن كان لكم صدره وأتيح لكم نصره ، فأواخر الامور أبدا أوكد وأهم ، والعواقب هي التي تحمد أو تذم ،وان حسنت خواتم الاعمال فالصنع أبهى وأتم . . (و) انكم لو حسنت سريرتكم واطمأنت الى التقوى قلوبكم لظهر أمركم وعلا جدكم ولما ذهب ريحكم ولما أخل جدكم " (٣) .

واستبشر المسلمون بانتصار الامير ينتان بن علي بن يوسف عندما هزم النصارى في السنة التالية (٥٢٤) هـ في أراغون وجليقية ،

---

(١) تاريخ ابن الاثير ١٠/٥٨٦ .
(٢) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٩ ، المغرب في حلى المغرب ٢/٦٨ .
(٣) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٦ — ١٤٠ .

وكان لهذا الانتصار وقعه الخاص لاسيما وانه قد جاء بعد سلسلة من الهزائم المتوالية التي لحقت بالمسلمين ، وكان الفرح بالانتصار كبيرا عندما قتل قائد جيوش النصارى في هذه المعركة وقطعت رأسه وأرسلت الى غرناطة وطيف بها على ذروة رمح في أسواق المدينة ثم حملت الى مراكش (١) ، وقد أبدى المسلمون فرحا كبيرا بهذا الانتصار ، فقال أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف (٢) يخاطب الامير تاشفين - والي الاندلس آنذاك - ويهنئه بالنصر الذى قيضه الله للمسلمين :

بصحراءَ شبّتْ في الأعادي لظى الحربِ
فجاءَتْ ما تهوى من الشرقِ والغربِ
وقدْ كنتَ بشّرتَ الاميرَ بأنها
بعيدُ مسراتٍ تجيءُ على قُربِ
فقدْ أنجزَ الرحمنُ بالنصرِ وعدَهُ
وسهّلَ أمراً كانَ في غايةِ الصّعبِ
فضيلةَ القتْ بايلانَ (٣) بركَها
وأمضتْ على غشتونَ (٤) بالطعنِ والضربِ
وجاءَتْ منها رأسُ غشتونَ منبراً
على جسدٍ للرمحِ كفّاً على (. .) (٥)(٦)

---

(١) نظم الجمان / ١٨١ ، البيان المغرب ٤ / ٨١ .

(٢) أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الانصاري شاعر مؤرخ ، ويظهر أن له كتابا عن دولة المرابطين يؤرخ لها حسب السنوات ، وقد كان كتابه أحد مصادر ابن عذاري في البيان المغرب . انظر : البيان المغرب ٤ / ٤١ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٦٣ ، ٩٥ .

(٣) لم أجد تعريفا بهذا الاسم فيما وصلنا من المصادر ، ويظهر انه اسم المكان الذى وقعت فيه المعركة .

(٤) قائد الجيوش النصارى ، البيان المغرب ٤ / ٨١ .

(٥) مابين المعقوفتين فراغ لم أهتد الى معرفته ، ولم يذكر هذه الابيات أي مصدر آخر .

(٦) البيان المغرب ٤ / ٨١ .

وقد كانت فرحة المسلمين كبيرة بهذا الانتصار خاصة عندما رأوا ذلّة أعدائهم والتماسهم الموادعة ، فقال أحد الشعراء مخلدا ذلك مادحا الأمير تاشفين :

يا تاشفينُ وقطبُ الحربِ عاطشةٌ ... وليسَ إلا دمُ الاعداءِ يرويها
قدْ راسلتْكَ ملوكُ الرومِ صاغرةً ... في السلمِ اذْ كانت الهيجاءُ تفنيها
تخشى عقابَكَ في أقصى منازلِها ... وتطلبُ العفوَ من أعلى صياصيها
اذا أتتْ رسلُها جاءتْكَ مقبلةً ... والسيفُ من غمدهِ سرّاً يناجيها
فاهنأ فانَّ بلادَ اللهِ أجمعَها ... اليكَ تكفلُ من فيها وتكفيها (١)

وقد ازداد الشعور بالفرح والسرور لدى المسلمين عندما عزز المرابطون انتصارهم هذا بانتصارات اخرى كالانتصار الذي أحرزوه في معركة أفراغة سنة (٥٢٨) هـ ، وكان المرابطون بقيادة يحيى بن غانية بينما كان النصارى بقيادة الفونسو المحارب (٢) ، وقد كان لهذا الانتصار أثره الكبير في نفوس أهل الاندلس ،فعمت الفرحة بعد الحزن وحلّ الأمل بعد اليأس ، فقال ابن وضاح المرسي (٣) يمدح يحيى بن غانية :

شمرّتَ برديكَ لمّا أسبلَ الواني ... وشبَّ منكَ الاعادي نارَ عيّانِ
دلفتَ في غابةِ الخطيِّ نحوهُمُ ... كالعينِ يهفو عليها وطفُ أجفانِ
عقرتهمْ بسيوفِ الهندِ مصلتةً ... كأنما شربوا منها بغدرانِ
هوّنْ عليكَ سوى قومٍ قتلتهمُ ... منْ يكسر النبعَ لمْ يعجزْ عن البانِ
أودى الصميمُ وعاقتْ(٤)عن بقيّتهمْ ... مقادرٌ أغمدتْ أسيافَ شجعانِ

(١) انظر : البيان المغرب ٤ / ٨١ — ٨٢ .
(٢) انظر: نظم الجمان / ٢١٨ — ٢٢٢ ، الاحاطة ٢ / ١٢١ .
(٣) أبو جعفر ابن وضاح المرسي المعروف بالبقيرة ، كان جامعا للآداب والعلوم ، وقد اشتهر بكتاباته الرائعة واجادته الفائقة ، توفي شابا سنة (٥٤٢) هـ . خريدة القصر ٢ / ٢٥١ .
(٤) عاق : انصرف ، لسان العرب ١٠ / ٢٧٦ .

وقفت والجيش عقد منه منتثرا   إلا فرائد أشياخ وشبان
والخيل تنحط من وقع الرماح بها   كأن تصهالها ترجيع ألحان (١)

وينبه ابن الصيرفي الى أن قائدا آخر قد شارك في احراز النصر وهو القائد الزبير بن عمر ، كما ينبه الى أن الفونسو المحارب قد نجا في هذه المعركة ذليلا مهزوما (٢) ، فقال في ذلك :

أعز حرار ضلوعي برد مانهلت   خيل الزبير ونار الحرب تستعر
حيث الغبار دخان والظبا لهب   حيث الاسنة في هام العدى شرر
والنقع طافو وبيض الهند راسية   إن الصواعق يوم الغيم تنكدر
أعطى الزبير فتى العلياء صارمة   - لكن بسعد أبيه - مالم يعطه عمر
أم الزبير ابن رذ مير بداهية   غصت ومست من أظفاره ظفر
قالوا نجا بذماء النفس منه فما   نجا وقد بقرته الحية الذكر (٣)

وشعور الفرحة والاستبشار بالنصر نجده لدى شاعر آخر قال في معركة ظهر فيها المسلمون على النصارى سنة (٥٢٨) هـ ، وذلك قرب موضع معركة الزلاقة (٤) فكان الانتصار الاول الذي أحرزه المرابطون في الاندلس . وكان المسلمون بقيادة الامير تاشفين بن علي في حين كان النصارى بقيادة الفونسو السابع (ريموند يس) (٥) ، وكانت هذه الموقعة يوم الجمعة ، ويؤكد الشاعر أن هذا الانتصار قد أعز الاسلام والمسلمين حيث خضع ملوك النصارى وذلوا ، قال :

---

(١) الروض المعطار / ٤٦ .
(٢) نظم الجمان / ١٢٣ ، الاحاطة ٢ / ١٢١ .
(٣) الاحاطة ٤ / ٤٠٦ .
(٤) البيان المغرب ٤ / ٨٨ .
(٥) البيان المغرب ٤ / ٨٦ .

دارٌ جعلتَ بيوتَها قُطَباً لها ... أبداً على قمم الحلوق تدومُ
لله يا يومَ العَروبة انّهُ ... يومٌ على الدين الكريم كريمُ
فتحٌ عظيمُ القدر يمنٌ بشيرهُ ... فتحٌ يقلّ لقدره التعظيمُ
يستفتحُ البلدانَ سعدُكَ طالماً ... من بعد اقليمٍ عنا اقليمُ
فضحتْ ملوكُ الروم في بلدانها ... لا غرّ قامَ بتاجه التعظيمُ (١)

ومن دراستنا لأدب الجهاد نلاحظ انه في معظمه يقدم لنا قيمة تاريخية زيادة على قيمته الأدبية والفنية ، اذ أننا نستطيع أن نستخلص منه كثيرا من المعلومات على الرغم من اختلاطها بالعواطف والمشاعر — التي يمكن ان تساعد في كتابة تاريخ هذه الفترة ، ومن ذلك مثلا ما عرفناه من ثبات الامير تاشفين بن علي في معركة البكار (٢) سنة (٥٢٨) هـ حيث تفرق عنه جيشه وتركه في المعركة وحيدا مع بعض خاصته : وذلك أن النصارى كانوا قد انتدبوا ألفين من جنودهم وفاجأوا المسلمين بهم عند دخول الظلام على حين غرّة ، فتفرقت صفوفهم وفرّت خيولهم ، واقترب النصارى من خيمة الأمير تاشفين ، فأشار عليه خاصته بالفرار ، فأبى وثبت مع اربعين من جنوده ، فاشتدت الحرب وثبت المسلمون حتى ظهروا على أعدائهم (٣) ، فقال ابن الصيرفي قصيدته المشهورة في لوم جيش المرابطين المنهزم :

---

(١) البيان المغرب ٤ / ٨٦ .
(٢) البكار : اسم مكان في فحص الريحانة شمالي قرطبة ، كانت معركة البكار فيها سنة (٥٢٨) هـ وكانت يوم عيد النحر بعد معركة أفراغة بثلاثة أشهر ، البيان المغرب ٤ / ٩٠ .
(٣) انظر : نظم الجمان / ٢١٥ — ٢١٦ .

يا أيُّها الملأ الذي يتقنّعُ ... مَنْ منكمُ البطلُ الهمامُ الأروعُ
ومَنْ الذي غدر العدوَّ به دجى ... فانفضَّ كلٌّ وهو لا يتزعزعُ
والليلُ مِنْ وقعِ السنابكِ بينهُمْ ... صبحٌ على هامِ الكماةِ ملمَّعُ
مَنْ أربعينَ تنتْ أعنّتها دجىً ... ألفانِ ألفٌ حاسرٌ ومقنّعُ
لولا رجالٌ كالجبالِ تعرّضتْ ... ما كانَ هذا السيلُ مّما يدفعُ
يقفونَ على الرماحِ كأنّهم ... إبلٌ عطاشٌ والأسنةُ مكرعُ(1)

لقد كانت هذه الأشعار مصادر مهمة ترفد المصادر التاريخية وتساعد على استجلاء الحقيقة أو تعزيزها لا سيما وان معظم قائليها معاصرون لهذه الاحداث التاريخية وفي بعض الاحيان شهود عيان . وقد تكون بعض المعلومات التي نحصل عليها من الأدب أثبت من المعلومات التاريخية وأقرب الى الحقيقة خاصة عند وجود التعصب أو طغيان الهوى الشخصي ، لقد أوضح ابن الصيرفي هذا الحدث من خلال لومه للمنهزمين ومن خلال ما أبداه من الغضب عليهم ، وهو الرجل الذي عاش هذه الأحداث وشارك فيها ، قال :

أنّى فررتُم يا بني صنهاجةٍ ... واليكمُ في الروعِ كانَ المفزعُ
مابالُ سيّدِكُمْ تورطَ لمْ يكنْ ... لكمُ التفاتٌ نحوهُ وتجمّعُ
انسانُ عينٍ لمْ تصنهُ منكمُ ... جفنٌ وقلبٌ أسلمتهُ الأضلعُ
تلكَ التي جرّتْ عليكمْ خطّةً ... شنعاءَ وهيَ على رجالٍ أشنعُ
أو ما ليوسفَ جدّهِ منن على ... كلٍّ وفضلٌ سابقٌ لا يرفعُ
أو ما لوالدِهِ عليٍّ نعمةٌ ... وبكلِّ جيدٍ ربقةٌ لا تخلعُ
الا رعيتمْ ذاكَ واحسابَكُمْ ... وانفتمُ مِنْ قالةٍ تستشنعُ

---

(1) الحلل الموشية / ١٢٥ .

أبا أتمُّ عنْ تاشفينَ ولمْ يــــزلْ   احسانُهُ لجميعكُمْ يتســـنُّ (١)

ويمضي ابن الصيرفي يعتذر عمّن أخذته المفاجأة وتركه مكانـــــه من جيش المسلمين ، طالبا الصفح عنهم حتى يدرك بغيته باقالة الأميـــر تاشفين عثرتهم ، يقول :

ياتاشفينُ أقمْ لجيشكَ عذرَهُ   بالليلِ والقدرِ الذي لا يدفـــعُ
هجمَ العدوُّ فروّعَ مقبـــلاً   ومضى بهيمٌ وهو منكَ مـــروّعُ
ولقدْ عفا والعفو منهُ سجيّةً   والعداوة لو شاءَ فيكمْ موضـــعُ (٢)

ولقد كانت هذه المرحلة من الانتصارات عاملا مهما في اذكـــاء روح الجهاد في نفوس المجاهدين بعد أن اصابتهم كثير من الهزائـــم التي استمرت منذ سنة (٥٠٨) هـ حتى سنة (٥٢٣) هـ ، فاستغـــل الامير تاشفين بن علي ذلك ،فجمع الجيوش واستشارها في أمر الجهـــاد ، فأشاروا عليه بالمضي فيه ،فمضى بهم الى جبل القصر (٣) فافتتحـــه سنة (٥٣٠) هـ وكانت أيام عيد الفطر قد أقبلت(٤) ، فغلّد أبو بكـــر يحيى بن محمد بن يوسف هذا الانتصار وأبدى الغبطة والسرور لمـــا حققه المسلمون من الظفر قائلا :

عرفتَ والليلُ مزورٌّ عن الأفـــقِ   خفيٌّ مسراكَ في الظلماء والغســقِ

---

(١) الاحاطة ٤/ ٤١٤ ،وانظر : الحلل الموشية / ١٢٨ — ١٢٩.
(٢) انظر : الاحاطة ٤/ ٤١٤ — ٤١٥.
(٣) جبل القصر : مدينة في الاندلس تقع بالقرب من مدينـــة شلب وهي على ضفة نهر كبير ،نزهة المشتاق في اختراق الافاق/ ٥٠ ، ٥٣٧/ ،الحلل الموشية / ١٢٢ ، صفة جزيرة الاندلس/ ١٦١.
(٤) البيان المغرب ٤/ ٩٥.

قدْ نافسَ الصيدُ أعياداً لنَا اطردتْ على الفتونِ اطرادَ الخيلِ في الدلقِ
فاهنأ بعيدكَ من أعيادِ ذي ظفرٍ له ما اثرٌ تأتي بعدٌ في نسبق
لا زالَ ملكَكَ يعلو كعبُهُ أبـــداً دامَ الطوادُ كما تعلو على السُّوَقِ (١)

وظلّ الأمير تاشفين يغزو بلاد النصارى الى ان عاد الى المغرب باستدعاء من والده (٢) ، وقبيل عودته هزم النصارى بفحص عطية سنة (٥٣٠) هـ (٣) ، وفي العام التالي داهم مدينة كركي (٤) فاقتحمها وهزم النصارى فيهـــا (٥) ويظهر السرور والحبور بهذا الفتح على لسان أبي عبد الله بن أبـــي الخصال اذ يقول :

---

(١) البيان المغرب ٤/٩٥ .
(٢) كان ذلك سنة (٥٣٢) هـ ، الانيس المطرب /١٦٤ .
(٣) فحص عطيّة : ذكر ابن القطان هذه الغزوة وجعلها سنـــة (٥٣١) هـ ، كما ذكرها ابن أبي زرع بايجاز مشابه لا يجـــاز ابن القطان ، ولكن أحداً لم يعرّف بهذه المدينة ، نظـــم الجمان /٢٢٧ ، الانيس المطرب /١٦٤ .
(٤) كركـــي : مدينة من نواحـــي قلعـــة رباح جنـــوب وادي يانـــه وقـد عمـرت بخـــراب مدينـــة مجـــاورة لها تدعى أوريـط .
الاحاطة ٢/٢٦٣ ، الروض المعطـــار /٦٦ .
(٥) الاحاطـــة ٢/٢٦٣ .

اللهُ أعطاكَ فتحًا غيرَ مشترك ورَدَّ عزمكَ عنْ فوتٍ إلى دركِ
أرسلْ عنانَ جوادٍ أنتَ راكبُهُ واضممْ يديكَ ودعْهُ في يدِ الفلكِ
قدْ كانَ بعدكَ للأعداءِ مملكةٌ حتى استدرتَ عليهمْ دورةَ الفلكِ
سارتْ بكَ الجردُ والأقدارُ والقضاءُ بها والعينُ قدْ قيدَّ الاعداءَ في شركِ (١)

إن هذا الحدث لم يرد له ذكر في المصادر التاريخية واقتصر ذكره على الإحاطة دون تفصيل مقرونا بقصيدة ابن أبي الخصال ، وبذلك يتضح لنا مرّة أخرى أهميّة الأدب في هذه الفترة ، وامكانية الاستفادة منه في توضيح الغامض من الاحداث التاريخية أو الناقص منها ، ففي هذه الموقعة يذكر ابن أبي الخصال أن المسلمين قد أخذوا بأهل المدينة وقتلوا منهم الكثير ولم تجد مقاومة النصارى لهم شيئا ، قال :

فصبحتهمْ جنودُ اللهِ باطشةً والصبحُ منْ عبراتِ الفجرِ في سَكَكِ
منْ كلِّ مبتدرٍ كالنجمِ منكدرٍ تفيضُ أنفسُهُمْ غيظًا من الحَسَكِ
فطاعنوكُمْ بأرماحٍ وما طعنتْ وضاربوكُمْ بأسيافٍ ولمْ تَسُلكِ
تعجّلَ النحرُ فيهمْ قبلَ موسمِهِ وقدّمَ الهديَ منهمْ كلَّ ذي نسكِ
فالطيرُ عاكفةٌ والوحشُ واقفةٌ قدْ أثقلتْها لحومُ القومِ عنْ حركِ
كلي هنيئًا مريئًا واشكري ملكًا قرتْ أسيافُهُ في كلِّ معتركِ (٢)

ونستطيع أن نعرف من هذه القصيدة ــ أيضا ــ أنه قد كانت هناك مهادنة أو اتفاق بين المسلمين والنصارى ، الا أن الاخيرين نتاد تهم نقضوا العهد مما حدى بالأمير تاشفين الى أن يشن الحرب عليهم :

---

(١) انظر : الاحاطة ٢/٣٩٣ ــ ٣٩٤ .
(٢) الاحاطة ٢/٣٩٣ .

وفيتَ للصفرِ حتى قيلَ قدْ غــدروا سموتَ تطلبُ نصرَ اللهِ بالـــدركِ
فأسلمتهمْ إلى الاسلامِ غدرتهم   وأذهبَ السيفُ ما بالدينِ منْ حنَكِ (١)(٢)

وتبلغ الفرحة منتهاها بانتصار المجاهدين في هذه الموقعة ، فيقـــول ابن أبي الخصال مهنئا الامير تاشفين وراسما صورة سعيدة للظفـــر الذي أحرزه المسلمون :

يا أيُّها الملكُ السامي بهمّتِـهِ   إلى رضى اللهِ لا تعدمْ رضى الملكِ
مازلتَ تسمعهُ بشرى وتطلعــهُ   أخرى كدرٍّ على الاجيادِ منسلــكِ
بيّضتَ وجهَ أميرِ المؤمنينَ بهـا   والارضُ منْ ظلمةِ الالحادِ في حلكِ
فاستشعرَ النصرَ واهتزتْ منابـرُهُ   بذكرِ أروعَ للكفـارِ محتنـكِ
فأخلدْ ثناً وصنْ والداً طاعتــهُ   خلودَ برٍّ بتقوى اللهِ متمسـكِ
وحسبُهُ اللهُ فرداً لا نظيرَ لـهُ   تغنيهِ نصرتُهُ عنْ كلِ مشتركِ (٣)

وكما أغفلت المصادر التاريخية ذكر هذا الحدث التاريخي المهم فقد أغفلت ذكر أحداث تاريخية أخرى ما كانت لتصلنا لولا ورودهـا في ثنايا الأدب . (٤)

ويتجلى الحنين والحزن لدى ابن رحيق (٥) عندما يتذكر بلده (مدينة الروم) (٦) الذي احتله النصارى وأهله الذين وقعوا في قبضة الاسر ، وذلك سنة (٥٤٠ هـ) ابان ضعف المرابطين وازدياد طمع النصارى بالاندلس، يقول :

---

(١) الحنك : ما يحتنك به ، واحتنك الشيء : أتى على آخره ، لسان العرب ١٠/٤١٦ .
(٢) الاحاطة ٢/٣٩٤ .
(٣) الاحاطة ٤/٣٩٤ .
(٤) انظر : قلائد العقيان ١/٦٦ - ٦٧ .
(٥) ابو حفص عمر بن رحيق ، خريدة القصر ٢/٢٨٦ .
(٦) لم أجد تعريفا لهذه المدينة فيما وصلنا من المصادر ، ويذكر أماري ان اسم مدينة الروم الوارد محرف وغير صحيح ولكنه لم يورد الاسم الصحيح لها ، المكتبة الصقلية / ٦١ .

نفسي تحنُّ إلى أهلي وأوطانـــي وهل رأيتُمْ محبّاً غيرَ حنّـــانِ
كانوا لقلبي أحباءً، وفي كبـــدي نارٌ تأجّجُ مِنْ شجوي وأحزانـــي
ماضرَّ حينَ نأوا لوودّعـــوا نفسًا رهنَ الحوادثِ في كفِّ الاسى عانِ
عزَّ اصطباري لرزءٍ قدْ دهيتُ بهِ وبانَ عني لوشْكِ البينِ سلواني (١)

وقد تأكد لدينا من دراستنا للأحداث التاريخية في أدب الجهـــاد ما تأكد في الفصل الثاني من أن الصراع بين الجانبين قد تعدى مفهـــوم الصراع العسكري الى الصراع العقائدي ، فهو من جانب المسلمين دفاع عـــن العقيدة ومن جانب النصارى محاولة لازالة هذه العقيدة واحلال النصرانيـــة مكانها (٢)، ولمّا كان المرابطون يقومون بجهادهم دفاعا عن الاسلام فقـــد خلّد الأدب ذلك ، فشكر التطيلي لأمير المسلمين علي بن يوسف عنـــد غزوه طليطلة ومحاصرته لها سنة (٥٠٣ هـ) قائلا :

أميرَ المسلمين وأيّ مجـــدٍ مكانُكَ مِنْ أرومتِهِ مكيـــنُ
فإنْ يمنِ (٣) الصليبُ وناصبوهُ فإنَّ غرارَ سيفِكَ لا يميـــنُ
سيشكرُ سيفَكَ الاسلامُ عنهـــا وإنْ أبترِ الفلاصمُ والشؤونُ (٤)

ونجد المفهوم ذاته لدى القاضي عبد الحق بن عطيّة حيث مـــدح عبد الله بن مزدلي عند عودته من الجهاد وقد خرج فيه صائما محتسبـــا ، قـــال :

ضاءتْ بنورِ ايابِكَ الأيـــامُ واعتزَّ تحتَ لوائِكَ الإسـلامُ

---

(١) خريدة القصر ٢/٢٨٩ .
(٢) انظر : الفصل الثاني من هذه الدراسة /٦ — ١٠ .
(٣) يمـــن : يكذب ، لسان العرب ١٣/٤٢٥ .
(٤) انظر : ديوان الاعمى التطيلي /٢٠٤ — ٢٠٥ .

أمّا الحِصنُ ففي أعزِّ مسرّةٍ ... لمّا انجلى بالحوادثِ الإظلامُ
بادرتَ أجزتَهُ في الصيامِ مجاهداً ... ما ضاعَ عندَكَ للثغورِ ذمامُ
فاهنأ مزيّةَ ظافرٍ متأيّدٍ ... جُقّتْ برفعةِ شأنهِ الأقلامُ (١)

ويجعل ابن الصيرفي تولي جيش المجاهدين وتفرّقه عن قائده في بداية معركة البكّار (٥٢٨ هـ) مصيبة كبرى على الاسلام لو تمت على المسلمين الدائرة وتحققت فيهم الهزيمة ، يقول :

كادتْ تكونُ ولو إذاً لتزلزلتْ ... عنها البسيطةُ والجبالُ الخشّعُ
وهوتْ بأندلسٍ عقابٌ لمْ تدعْ ... فيها لذكرِ اللهِ صوتٌ يرفعُ (٢)

وبذلك يظهر لنا أن الأدب قد كان متابعا لأحداث الصراع في الاندلس في هذه الفترة بغض النظر عن طريقة المتابعة وطبيعة التسجيل ما بين رصد التاريخ لهذه الأحداث وانفعال الأدب بها ، فقد واكب الأدب : شعره ونثره معظم الوقائع الكبرى التي خاضها المسلمون مع النصارى في الأندلس في هذه الفترة ، وهذا يدل — دون شك — على وعي هؤلاء الأدباء واحساسهم بأن الأدب يمكن ان يقدم شيئا أو أن يخلّد احاسيسهم وعواطفهم تجاه هذه الاحداث ، فاهتم الادب بتسجيل ما أصاب المسلمين من الجزع والفزع والحزن عند سقوط معاقلهم أو عند انهزامهم أمام عدوهم ، كما اهتم باظهار سرورهم وفرحهم واعتدادهم بأنفسهم عند احرازهم لنصر أو هزيمتهم لعدو أو استردادهم لمعقل .

---

(١) انظر : بغية الملتمس / ٣٦٠ — ٣٦١ .
(٢) الاحاطة ٤ / ٤١٤ .

لقد تصدى الأدب للأحداث الكبرى التي وقعت في الأندلس في هذه الفترة فذكر بعضها بتفصيل واف، ومرّ على أخرى مرورا سريعا ، وذلك إما رغبة من هؤلاء الأدباء بإبعاد روح اليأس عن نفوس المسلمين خاصة عند الهزيمة أو لضياع كثير من مصادر هذه الفترة .

وقد لاحظنا أن النثر كان أكثر تفصيلا من الشعر عند ذكره للحدث - وإن كان الشعر أكثر ذكرا للأحداث بشكل عام - وذلك لاهتمام الشعر بالصورة العامة وعنايته بدقة الشعور واعتماده على الإيحاء والايماء وتركيزه على الأثر الذي تركه الحدث أكثر من اعتماده على ذكر الأسباب وتسلسل الحوادث ، بعكس النثر الذي يعتمد التفصيل والتحليل بطبيعته ، اضافة الى أن كثيرا من الكتّاب كانوا يرافقون والي الأندلس وقادة الجيوش في جهادهم ، مما يتيح لهم معرفة كثير من الأمور التفصيلية في حين كان كثير من الشعراء يعتمدون على التصور الذهني والتخيّل لمثل هذه الأحداث .

الفصـــــل الخامـــــس

أ) صورة البدائل المسلم في أدب الجهـــاد .

ب) صورة الصليبيين فـــي أدب الجهـاد .

الفصـــل الخامـــس

صـــورة البطـــل المسلـــم فـــي أدب الجهـــاد

تجمع معاجم اللغة على أن البطل هو الشجاع ، وقد سمـــي بطلا لأن الأشداء يبطلون لديه ، وقيل بل لأن ثأرهم لا يدرك عنـــده فيبطل (١).

الاّ أن مفهوم البطولة في هذه الفترة لم يكن مقصورا علـــى الشجاعة في ساحات المعارك فحسب وانما اتسع ليشمل صفات أخـــرى متعددة كونت معا صورة البطل النموذج .

وبفضل موقف دولة المرابطين من الجهاد فقد كانت البطولـــة من أعظم الصفات التي يتوق اليها المسلمون في جهادهم (٢) ، وبفضـــل هذا الموقف أيضا فقد ظهر كثير من الأبطال ، فكان منهم أمير المسلميـــن يوسف بن تاشفين وابنه أمير المسلمين من بعده علي بن يوسف وأبنـــاؤه الآخرون : كأبي اسحاق ابراهيم وأبي الطاهر تميم وابن عائشـــة ، وأمير المسلمين تاشفين بن علي وكثير من القادة ، مثل سير بن أبـــي بكر وابن فاطمة وأبي بكر بن تيفلويت والزبير بن عمر وابن غانيـــة وأبناء مزدلي وغيرهم .

وقد كانت عناية الشعراء كبيرة في رسم لصورة البطل ، اذ كـــان اهتمامهم ينصب على ابراز صورته أكثر من اهتمامهم بأجزاء القصيـــدة الاخرى . كما كان الشعراء يكثرون من مدح القادة والأبطال ومـــن رثائهم عند استشهادهم ويكثرون أيضا من التنويه بصفات البطولـــة لديهم .

---

(١) الصحاح ٤/١٦٣٥ ، لسان العرب ١١/٥٦ ، تاج العروس ٧/٢٢٩ .
(٢) البيان المغرب ٤/٨٠ .

ومما لا شك فيه أن وجود البطل في مثل هذه الظروف هو أمر ضروري اذ يجعل المجاهدون منه قدوة يقتدون بها ومثالا يحتذونه وغاية يهمهم وجودها وسلامتها ، قال أحد الشعراء يمدح الامير تاشفين وقد تصدى للنصارى سنة (٥٢٦ هـ) وقبض على قائدهم وعشرين من زعمائهم :

أنتَ يا تاشفينُ واللـهُ واقٍ لكَ نفسُ العليِّ وشخصُ الكمالِ
ليسَ آمالُ مَنْ على الارضِ إلاَّ أنْ ترى أنتَ غايةَ الاعمالِ (١)

والبطل قيادي بطبيعته لتمتعه بصفات القيادة التي تميزه عن غيره من الناس العاديين ، قال ابن لسان (٢) في الامير ابي اسحاق ابراهيم بن يوسف :

قلْ للأميرِ ابنِ الأميرِ بل الذي أبداً بهِ في المكرماتِ وفي الندى
والمجتني بالزرقِ وهي بنفسـجٌ وردَ الجراحِ مضمّخاً ومنضّدا
جاءتك آمال العفاةِ ظوامئـاً فاجعلْ لها مِنْ ماءِ جودِكَ موردا
فالناسُ إنْ ظلموا فأنتَ هو الحمى والناسُ إنْ ضلوا فأنتَ هو الهدى(٣)

وقد كان وجود البطل ذا أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين ، فكانت سلامته ظفرا ونعمة كبيرة تشمل الجميع ، قال ابن الصيرفي في تاشفين ابن علي وقد نجا في معركة البكار (٤) :

---

(١) البيان المغرب ٤/ ٨٦ .
(٢) أبو الحسن بن لسان شاعر سمح متقلد بالاحسان ، مدح كثيرا من الرؤساء والامراء ، انظر : مطمح الانفس / ٢٧٥ — ٢٨٠ ، نفح الطيب ٤/ ٢٣١ .
(٣) نفح الطيب ٤/ ٢٣٢ .
(٤) البيان المغرب ٤/ ٩٠ .

النعمةُ العظمى سلامتُه التــي | فيها من الظافر الرضى والمقنــعُ
كلّا أهنّي لا أخصُّ بنعمــــةٍ | فرداً بها غُلّ الجوانح ينقــعُ(١)

وإذا كانت سلامة البطل نعمة عظمى فقد كان افتقاده خطـــرا كبيرا وحدثا مؤثرا ، وذلك لأن الزمان لا يجود بالأبطال إلّا قليـــلا ، قال ابن الزقاق يرثي شهيدا سقط في ساحة الجهاد :

فهلّا وقدْ خاضَ المكارهَ لبّــةً | وقاهُ من الجُرْدِ العتاقِ صفيــنُ (٢)
إذا كانَ لا يهوى الفرارَ من الردى حماهُ من المجدِ الأثيلِ مكيــنُ
وهلّا بهِ ضنّ الزمانُ فانّــهُ | على أنْ يرينا مثلَــهُ لضنيــنُ (٣)

وكما كان البطل ضرورة نفسية يطمئن المجاهدون الى وجوده ويقتدون به فهو أيضا ضرورة في ساحات المعارك يسد مكانا لا يسده غيره ويتحمـــل من الأعباء ــ بفضل مركزه القيادي ــ ما يعجز عنه سواه ، ويترك فقدانــه خوفا وحزنا كبيرين في نفوس المسلمين ، قال التطيلي يرثي محمد بن حـزم(٤) ويتأسف لفقده :

إلى مَنْ تضرعــونَ بكلِّ هــمٍّ | يؤودُ أخفُّهُ الجلدَ الحمــولا
إلى مَنْ تسندونَ بكلِّ خطــبٍ | يكونُ جلاؤهُ الرأيَ الصقيــلا
ومَنْ تستصرخونَ على الأعادي | إذا استنكرتُمْ منهمْ حويــلا (٥)

---

(١) الحلل الموشيـــة / ١٢٩ .
(٢) صفـن الفرس يصفـن صفونـــا : قام على ثلاث وثني سنبك يـــده الرابع ، لسان العرب ١٣ / ٢٤٨ .
(٣) ديوان ابن الزقاق / ٢٨٠ .
(٤) لم أجد لمحمد بن حزم ترجمة فيما وصلنا من المصادر .
(٥) انظـر : ديوان الاعمى التطيلي / ٩٨ ــ ٩٩ .

وقد يكون فقدان البطل من التأثير بحيث يخرج الشاعر من اطار الشكوى الى اطار فلسفة الموت والى التشاؤم من الحياة ، قال عمر ابن عيطون (١) في أبي حفص الهوزني (٢) وقد سقط شهيدا :

فالموتُ يخترمُ الانامَ قد استوى منهمْ جبانٌ عندَهُ وشجيعُ
سيّانَ مدّرعٌ لديهِ وحاسرٌ طعنُ المنيّةِ لا يقيهِ دروعُ
نغترُّ بالدنيا ويخدعُ بعضُنا بعضاً بها وجميعُنا مخدوعُ
فسرورُها همٌّ وصفوُ نعيمِها كدرٌ وحبلُ وصالِها مقطوعُ (٣)

وتزداد نغمة الحزن في نفس الشاعر لافتقاد البطل فيقول :

فبكيتُ من جزعٍ عليه بمقلةٍ انسانُها بجفونِها مسموعُ
ولو أنَّ لي عددَ النجومِ مدامعاً تجري ومن فيضِ البحورِ دموعُ
لم أقضِ حقكَ يا محمدُ انهُ حزنٌ تعاظمَ قدرهُ وولوعُ
ماذا نعى الناعونَ صمَّ صداهمُ من طودِ عزٍّ خرَّ وهو منيعُ (٤)

ويلاحظ أن صورة البطل التي رسمها الشعراء والكتاب قد استمدت من مصدرين : الأول ما كان يلمسه هؤلاء لدى البطل ، والثاني ما كانوا يأملونه ويرجون تحققه ، ولكنّ الأدب مزج بين الواقع والأمل ، وصنع للمجاهدين نموذجا من البطولة يمكن احتذاؤه والاقتداء به ، قال التطيلي يمدح أبا الطاهر تميم بعد موقعة أقليش سنة (٥٠١) هـ :

---

(١) عمر بن احمد بن عبد الله بن عيطون التجيبي الطليطلي ، وصفه ابن بسام بأنه احد بحور البراعة ورؤوس الصناعة في الشعر والكتابة ، الذخيرة ق ٣ م ٢ / ٧٧٣ .

(٢) لم أعثر على ترجمة مستقلة له واغلب الظن انه حفيد لابي حفص الهوزني المقتول سنة (٤٦٠) هـ على يد المعتضد ، ومن رثاء ابن عيطون ، يظهر ان اسمه محمدا وقد استشهد بنهر تاجة سنة (٥٠٣) هـ عند حصار المسلمين طلبيرة ، الذخيرة ق ٣ م ٢ / ٢٨٢ ، المغرب في حلى المغرب ١ / ٢٥٤ .

(٣) الذخيرة ق ٣ م ٢ / ٧٨٣ .

(٤) الذخيرة ق ٣ م ٢ / ٧٨٢ .

يمينُكَ أورى إنْ قدحتَ من الزندِ ووجهُكَ أجدى إنْ قدمتَ من السعدِ
وعزمُكَ أمضى حينَ يشتجرِ القنا من الأسمرِ الخطيِّ والأبيضِ الهندي
نهجتَ سبيلَ المجدِ مِنْ بعدِ ماعفتْ (ومحّتْ كما محّتْ وشائعُ مِنْ بردِ) (١)
فلا يتعاموا أو فلا يتواكلوا فقدْ عرفوا كيفَ الطريقُ إلى المجدِ
ودِ وشيمُ غليقتدوا بابنِ حُرّةٍ أشاعَ الفعالَ الحرَّ في الزمنِ العبدِ (٢)

وقد كانت صورة البطل متعددة الجوانب ، فأظهر الشعراء كرم أصله ورفعة شأنه ،اذ طيب نسبه من مقومات بطولته ومن عناصر شخصيته ، قال ابن رحيم يمدح الامير أبا اسحاق ابراهيم بن يوسف ويذكر شرف محتده (٣) :

ولولا واحدٌ لسددتُ عيني فلم تفتحْ على شخصٍ سريّ
هو الطلقُ المحيّا مِنْ طهوانٍ ينيرُ بهمْ سنا الافقِ السنيّ
تحلّى ملكُهُ بعلى نهاهُ كما ازدانَ المقلّدُ بالحليّ
تُدارُ عليهِ أكواسُ المعالي فتأخذُ من هزبرٍ أريحيّ
أبا اسحاقَ يا ابنَ أميرِ ملكٍ يقصّرُ عنهُ ملكُ التبعيّ (٤)

ويرتفع ابن خفاجة بنسب أبي الطاهر تميم حتى يجعله من قريش ، فيقول :

إمامٌ في الذؤابةِ مِنْ قريشٍ وحسبُ المجدِ في عودٍ صليبِ

---

(١) عجز البيت لأبي تمام ، ديوان ابي تمام ٢ / ١٠٩ .
(٢) ديوان التطيلي / ٢٨ .
(٣) أبو بكر محمد بن احمد بن رحيم ، اديب بليغ من أهل بيت وزارة ، قال عنه ابن خاقان انه رجل الشرف سؤددا وعلاء وواحده اشتمالا على الفضائل واستيلاء ، قلائد العقيان / ١١٥ ،بغية الملتمس/ ٥٢ ، المغرب في حلى المغرب ٢ / ٤١٧ .
(٤) انظر: قلائد العقيان / ١٢٤ — ١٢٥ ، وانظر أيضا : خريدة القصر ٣ / ٤٠٣ — ٤٠٤ .

تشيمُ بصفحتيهِ بروقَ بشــــرٍ　　تحيدُ بشاشةَ الروضِ الجديــبِ(١)

ومع أن قبيلة لمتونة التي ينتسب اليها أبو الطاهر تميم هي فرع مــن قبيلة صنهاجة وهذه تنتسب الى حمير بن سبأ (٢) الا أن اعجاب الشاعــر بالممدوح وتجسد آمال المسلمين فيه حدى به الى ان ينسبه الــى قريش .

وقد أكثر الشعراء من نسبة هؤلاء الابدال والقادة الى صنهاجة ، قال ابن الصيرفي في تاشفين بن علي :

وفي الذؤابةِ من صنهاجةٍ ملِكٌ　　أغرُّ أبلجُ يُستسقى بهِ المطــرُ (٣)

(١) ديوان ابن خفاجة / ٩٢ .

(٢) تاريخ الملوك والرسل / ٢٠٧ ، الانيس المطرب / ١٢٠ . وقــد قال الشاعر عبد العزيز الملزوزي (٦٦٧) هـ في نسبهم :

مرابطون أصلهم من حميـــر　　قد بعدت أنسابهم عن مضــر
كانوا ملوكا في الزمان الاول　　أمورهم وحالهم لم يجهــــل
وقد رأيت في كتاب النســب　　قولا به أعجز أهــل الادب
بأن صنهاج سليل حميــــر　　هو ابنه لصلبه لا العنصــــر
أكرم به من نسب صريـــح　　فقله لا تخف من التصريــــح
عدلهم وفضلهم مشهـــور　　وجدهم وسعدهم مذكـــور
قد خلقوا من بعدهم حسن الثنا في غربنا وُلقّنوا حسن المنـا

انظر : قبائل المغرب / ٣٢٨ — ٣٣٥ .

(٣) الاحاطــة ٤ / ٤٠٨ .

كما نسب أبو عامر بن أرقم عبد الله بن مزدلي الى ملوك حمير من التبابعة والأذواء فقال :

لمزدليٍّ لواءٌ كانَ يرفعُهُ ... مناسبٌ كالضحى والشمس في الحَمَلِ
خيرُ التبابعِ والأذواءِ مِنْ يمنٍ ... الغالبينَ على الآفاقِ والطللِ
يسودُ في آخرِ الأعصارِ آخرُهُمْ ... وسادَ أولُهُمْ في الأعصرِ الأولِ (١)

ويجعل ابنُ الزقاق ابنَ غانية من أعلى الفروع من حمير إذ يقول :

يا مَنْ تفرّعَ مِنْ ذؤابةِ حميرٍ ... وحميرٍ نشرَ العلا المتأرِّجُ (٢)

ولما يتمتع به البطل من صفات لا يشاركه فيها غيره فقد جعله الشعراء غوثاً ورجاء اذا حزب الأمر واشتدت النوائب ، قال عبد الحق بن عطية في علي ابن يوسف بن تاشفين عند سقوط جزيرة ميورقة :

لنا اللهُ والطَّوْدُ الذي نرتجي بهِ ... مِن الزمنِ المذنابِ رجعةَ تائبِ
هو الغوثُ فاعدافُهُ علينا بنظرةٍ ... مِن الحزمِ نحثوا في وجوهِ النوائبِ
هو دناهُ يقرى الضيفَ قبلَ نزولِهِ ... ويلبسُ وقتَ السلمِ درعَ المحاربِ
فلا زالَ جيشُ النصرِ يقدُمُ جيشَهُ ... وتلقاهُ بالبشرى وجوهُ العواقبِ (٣)

وفي هذا المعنى قال ابن الزقاق متحسراً على أرقم بن لبّون وقد غالته المنون بعد أن كان المسلمون يرجونه للشدائد والصعاب :

إنّ الذي كانَ الرجاءُ مشيّداً ... بوفائِهِ غدرتْ بهِ الأيامُ
أعززْ عليَّ بضيغمٍ ذي سطوةٍ ... أجماتُهُ بعدَ الرماحِ رجامُ

(١) قلائد العقيان / ١٣٣ .
(٢) ديوان ابن الزقاق / ١٢٠ .
(٣) قلائد العقيان / ٢١٣ .

أعززْ عليَّ بزهرةٍ ما الولـــــــةِ   أمستْ ولا غيرَ الضريحِ كمـــــامُ
أعززْ عليَّ بمَنْ يعزُّ على العلا   إنْ غيلَ قسورُ غيلِها الضرغـــامُ
يا عَيْنُ شأنَكِ والمدامعَ فاسمحي   ولتعلمي أنَّ الهجوعَ حـــرامُ(١)

وقد كان المسلمون يأملون من البطل أن يحميهم ويحمي أرضهـــــم وأن يحقق لهم ما يطمحون اليه من الانتصار ، قال ابن خفاجة فـــــي أبي الطاهر تميم عندما ولي مرسية :

تطلّعَ للعيونِ وكلُّ قلـــــبٍ   شعاعٌ يستطارُ من الوجيـــبِ
لمعضلةٍ تشيبُ لها النواصـي   فما تلقى هنالِكَ غيرَ شيـــبِ
فقلتُ وقدْ زجرتُ الطيرَ مهـلاً   فغربانُ العدوِّ إلى نعيـــبِ
وقدْ غنّى الحسامُ يصلُّ ترحـاً   وأفضى بالعدوِّ إلى النحيـبِ
فأضحكَ من نجاةِ الثغرِ ثغراً   ونفّسَ من حماهُ عنْ كئيـــبِ
فقرَّ وكانَ أخفقَ من جنـاحٍ   ونامَ وكانَ أرعى من رقيـــبِ(٢)

وقد كانت الشجاعة من أهم صفات البطل ، لأنها الاساس الـــــذي تقوم عليها شخصيته وشهرته ، قال التطيلي يمدح علي بن يوسف ويصـــف شجاعته وبأسه :

إذا حدّثتَ في الهيجاءِ عنـهُ   فإنَّ حديثَهُ فيها شجـــونُ
حساماً ما انتضاهُ الدهرُ إلاّ   ليعلمَ من يفي ممّنْ يخـــونُ
صقيلَ المتنِ رونقُهُ الاماني   وماضي الحدِّ جوهرُهُ المنـونُ
سطا أسداً وأشرقَ بدرَ تـمٍّ   ودارتْ بالحتوفِ رحىً طحـونُ

---

(١) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٣ .
(٢) انظر : ديوان ابن خفاجة / ٩٢ - ٩٣ .

وأحدقت الرماحُ به فأعيا   عليَّ أهالةٌ هيَ أمْ عرينُ (١)

ولظهور شجاعته فان بأسه غير منكر في ساحة القتال ،فهو مباشر عندما تشتد المعركة متقدم اذا أحجم الآخرون ، قال التطيلي :

قادَ الجيادَ اليهمْ مِنْ مرابطِها   ماضٍ إذا عرّدَ (٢) الهيّابةُ الوكلُ
يغشى القتالَ فإنْ تضللْهُ فالتقِهِ   حيثُ الحتوفُ على الأرواحِ تقتتلُ
ايّاكَ مِنْ أسدٍ تشقى الأسودُ بهِ   في كفّهِ غُلّةٌ تروى بها المقَلُ (٣)

ومثل هذه الصورة نجدها لدى التطيلي أيضا عند مدحه لأبي العلاء بن زهر ، اذ يجعله بطلا قائدا ذا أثر فاعل ،يقول :

ردءُ الكتيبةِ خلفَها وأمامَها   كالموتِ تلقاهُ بكلِّ مكانِ
واري الزنادِ بدفعِ كلِّ ملمّةٍ   متصرفٌ في صرفِ كلِّ زمانِ
ركّابُ أهوالٍ قريبٌ حوادثٍ   طلّابُ أوتارٍ رفيعُ مبانِ (٤)

وقد صوّر النثر البطولة أيضا ،فمن ذلك ما قاله عبد الحق بن عطية يرثي محمد بن مزدلي ويرسم للبطل صورة رفيعة المستوى تنم عن جرأته واقدامه ـ قال : " إنه فرد يفدّى بالخميس العرموم ،ولله دره حين ألتفت عليه الفوارس . . (فقد) رأى المنية ولا الدنية ، وجن الحمام ولا النجاة برأس طمرّة ولجام ، فشمر عن أكرم ساعد وبنان ، وقضى حق المهند والسنان ،ولبس قلبه فوق درعه ،ولم يضق بالجلاد رحب ذرعه " (٥) ، وبذلك تظهر لنا أهمية البطل

---

(١) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .
(٢) عرّد : فرّ ، لسان العرب ٣ / ٢٨٨ .
(٣) ديوان الاعمى التطيلي / ١١٤ .
(٤) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ١٩٧ ــ ١٩٨ .
(٥) قلائد العقيان / ٢١١ ، وانظر : خريدة القصر / ١٩٧ ــ ١٩٨ .

وما يتمتع به من صفات البسالة والشجاعة .

لقد كان البطل عاملا مهما في الجهاد في هذه الفترة ، وقد كان دوره يتعدى تجنيد الجنود وتخطيط المعارك الى قيادة الجيوش والمشاركة في الجهاد ، وبذلك فقد لمس المجاهدون الدور القيادي الذي يقوم به هؤلاء القادة ، وقد كانت هذه المشاركة تبث في نفوس المجاهدين التصميم على مواصلة البذل والتضحية ، ولم نجد استثناء لمشاركة القادة جيوشهم في لقاء أعدائهم الآ ما قاله يوسف بن تاشفين سنة (٤٨٣) هـ[1] عندما قدم الاندلس للمرة الثالثة حيث قال : " لست ألقاه (يعني الفونسو السادس) أبدا .. (وقد) كان .. هذا (منا لقاؤه) .. سنة الزلاقة ، ولكن أخرج اليه قوادي بأنجاد أجنادي ، فان قدّر الله بانهزامهم كنت ردءاً لهم من ورائهم "[2] ، ويظهر أن يوسف بن تاشفين لم يكن محجما عن اللقاء خوفا أو جبنا ، فهو من هو شجاعة ونجدة [3] ، ولكنه أراد أن يجنب المسلمين الهزيمة فيما لو قدر له أن يستشهد في احدى المعارك ، اذ كان يعرف أهمية وجود القائد بالنسبة للمجاهدين .

ومن مظاهر شجاعة البطل اقدامه في ساحات المعارك ، قال ابن خفاجة :

متقدم في صدر كل كتيبة   شهباء يندى جانباها بالدم

---

(١) البيان المغرب ٤ / ١٤٣ .
(٢) تاريخ الاندلس / ١٠٧ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ٤٧ .

يثني بها عطفيه كلُّ مثقَّف لدنٍ ويضحك كلُّ أبيض مخذمِ (١)
فإذا استجرْتَ به استجرتَ بهضبةٍ مأوى الطريد بها وكنزُ المعدمِ
لا تعثرُ الأحياءُ دونَ طروقِه إلاّ بشوكةِ لهذمٍ أو ضيغمِ (٢)

والبطل لا يهاب عند اشتداد المعارك وتراجع الفرسان فهو جريء مقدم ، قال ابن الزقاق يمدح يحيى بن غانية :

للهِ أنتَ إذا الفوارسُ أحجمتْ واندقَّ في الثغرِ الوشيجُ الأعوجُ
والبيضُ تبسمُ والجيادُ عوابسٌ والسمرُ بالعلقِ المارِ تضرّجُ (٣)

وصوّر ابن خفاجة البطل وقد تسربل بالحديد وامتطى جواده وأقدم في المعركة - وقد ثار عجاجها - غير هايب ولا وجل فقال :

وأغرّ يسفرُ للعوالي الصمّ عن حرِّ وجهٍ بالحياء ملثّمِ
جذلانَ تحسبُ وجهَهُ متهللاً في هبوةِ الهيجاء غرّة أدهمِ
زرَّ الحديدَ عليهِ جيبَ غمامةٍ زرقاءَ في غبشِ العجاجِ الأقتمِ (٤)

ومن جوانب صورة البطل أيضا إجابة الصريخ ، وهي صفة تدل على مروءته وشعوره بالمسؤولية ، قال ابن خفاجة يصف المرابطين بهذه الصفة في معرض مدحه للامير أبي بكر بن ابراهيم المعروف بابن تيفلويت :

يتتابعونَ إلى الصريخ كأنّهمْ أمواجُ بحرٍ قدْ طمى زخّارِ
كمْ مطلقٍ لنداهمُ وظباهمُ منْ قدٍّ (٥) إعسارٍ وقيدِ إسارِ (٦)

---

(١) المخذم : القاطع ، لسان العرب ١٢/١١٨ .
(٢) ديوان ابن خفاجة /٩٧ .
(٣) ديوان ابن الزقاق /١٢٠ .
(٤) ديوان ابن خفاجة /١٣١ .
(٥) القد : السير الذى يقد من الجلد ، لسان العرب ٣/٣٤٤ .
(٦) انظر : ديوان ابن خفاجة /٣٨ — ٣٩ .

والبطل واثق بنفسه في ساحات المعارك ، يثبت للعدو لا يفر ولا يدبر ، وفي ذلك يقول ابن عباد في يوسف بن تاشفين وقد أبلى بلاء مشهودا في معركة الزلاقة :

ثبتّ هناك وإن القلوب بين الضلوع لتأبى القرارا
رأينا السيوف ضحىً كالنجوم وكالليل ذاك الغبار المثارا
فلله درّك في هولها لقد زاد بأسك فيه اشتهارا
تزيد اجتراءً إذا ما الرماح عند التناهر زدن اشتجارا (١)

وهو مقتدر على صد العدو وحسم دائه ، ومقتدر على حماية أرض المسلمين ، قال ابن خفاجة في الامير أبي اسحاق ابراهيم بن يوسف عندما توجه الى شرق الاندلس بعد أن افتتح قورية وطرد ابن ردمير منها :

ألمْ ترَ ما كانَ مِنْ بأسِهِ بقوريةَ يومَ غامَ البطلْ
وغارَ الابيُّ وخرَّ الكميُّ وجدَّ الجلادُ وقلَّ الجدلْ
وصدَّ ابنَ ردميرَ عن نصرها تلظّي حرابٍ وحامي المقلْ
ولمّا شفى الغربَ فيما شفى ولّى به الغربُ ما أملْ
أتى الشرقَ يهفو جناحُ السرى به وتهبُّ رياحُ العجلْ
وأطمعَ في حسمِ داءٍ دهى وإقشاعِ عارضِ همٍّ أظلْ (٢)

والبطل لقوته وشدته يواصل قتاله لا يني ولا يفتر ، يجير سيفه من يمينه بشماله ان شكى أو تألم من كثرة الضرب ، قال التطيلي يصف السيف في يد علي بن يوسف :

---

(١) انظر : ديوان المعتمد / ٩٧ — ٩٨ .
(٢) انظر : ديوان ابن خفاجة / ١٠٣ — ١٠٤ .

مشكّلٌ الفحل بينَ ماءٍ ونـارٍ　　بدعةٌ في الاضدادِ والاشكـــالِ
هزّه كلُّ محجزِ الاخذِ والتر　　كِ مشينِ الادبارِ والاقبـــالِ
بيمينٍ اذا تألّمَ منها الس　　يفُ عدّ الحسارة بشمـــالِ
بينما السيفُ كالمجرةِ في قب　　ضةِ يمناهُ غابرٍ مثلَ الهـــلالِ (١)

وهو خبير بلقاء عدوه ، لا يلقاه الا وينتصر عليه ، قال التطيلي :

أنتَ الذي لمْ يَقُدْ جيشاً لمنزلةٍ　　إلّا وزُلْزِلَ عنها البدو والحضرُ
إنْ كانَ صوّرَ هذا البأسُ في صفةٍ　　فأنتَ لا شكّ منها النابُ والظافرُ (٢)

ولشدة اثخانه في الاعداء واكثاره من قتلهم لا تسعهم الارض بمــــا رحبت ، يقول التطيلي في ابن تيفلويت :

ومن منايا الاعادي إذ فرغتَ لهـمْ　　ألّا يواريهمْ سهلٌ ولا جبـــلُ
ومنْ دلائلِ ما أُعطيتَ من ظافـرٍ　　ألّا يكونَ لهمْ رزقٌ ولا أجـــلُ
وإنّ سيفكَ لا يثني جهالتَـــهُ　　حتى يبيّنَ للجهـالِ ما جهلـوا
نارٌ تسوقُ العدى من حيثما حشروا إلى الثرى وهوَ مأواهمْ إذا قتلوا (٣)

والبطل يغزو الاعداء في عقر دارهم فيقتلهم ويذلهم باتلاف أرضهـــم وتحطيم معالم شركهم ، قال ابن الزقاق :

يا أيُّها الملكُ الذي هنديّــةٌ　　يومَ الطعانِ كشعلةِ النيـــرانِ
كمْ جبتَ فيه بحزمةٍ أرضَ العدى　　فتركتَها قفـــراً بلا عمـــرانِ
وهدمتَ منْ بيعٍ لهمْ وكنائـــسٍ　　وكسرتَ من صُلُبٍ ومن صلبـــانِ
وجررتَ أذيالَ الكتائبِ رافــلاً　　بينَ الصوارمِ والقنا الريّـانِ (٤)

---

(١)　ديوان الاعمى التطيلي / ١٠١ .
(٢)　ديوان الاعمى التطيلي / ٦٥ .
(٣)　انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ١١٢–١١٣ .
(٤)　ديوان ابن الزقاق / ٢٦٩ .

وصورة المجاهد الموغل في أرض العدو أكدها التطيلي فوصف علي بن يوسف - وقد دخل أرض النصارى غازياً - قائلا :

ثلّ عرش العدوّ من دونه حدّ المضاهي وحيلةُ المحتالِ
موغلاً في البلادِ محتكماً في حرماتِ الدماء والأموالِ (١)

والبطل مرهوب الجانب يهزم جيش العدو على الرغم من ضخامته ، ويرسم ابن خفاجة لهذا البطل صورة رائعة فيجعل الجيش المعادي يولي أمامه خائفا مرعوبا ، ويقول في ابي اسحاق ابراهيم بن يوسف عند محاصرته لحصن الموريلة :

ويا ربّ جيشٍ للعدوّ كأنّه عبابُ خضمٍّ قدْ طمى يتدفّعُ
عرضتَ له واللّيثُ دونكَ جرأةً فأجفلَ اجفالَ النعامِ تجزعُ
ولفّته ريحٌ للمهابةِ بسارحٍ فأقلعَ اقلاعَ الغمامةِ تقشعُ
وأدبرَ لا يلوي على متعذّرٍ حذارَ فتىً يسري إليه فيسرعُ (٢)

ويمنح يحيى بن بقي بين صورة البطل وصورة النصارى ، فيبالغ في شجاعته مقابل جبنهم وغرورهم فيقول :

منْ لي بهِ والوغى شهباءُ منْ أسلٍ في صهوةٍ منْ أقبّ البطنِ منجردِ
يُردي ويصرعُ أقواماً عيونُهمُ حمرٌ منَ الروعِ لا حمرٌ من الرمدِ
بكلّ غصنٍ من الخطّيّ منعطفٍ بطائرٍ من سنانٍ ليسَ بالغردِ (٣)

لقد كان المسلمون يتطلعون الى قائدهم ليكون قائد معركة وبطل انتصار ، الاّ أن ذلك لم يمنع أن يتصف هذا القائد بصفات حميدة أخرى

---

(١) ديوان الاعمى التطيلي / ١٠٢ .
(٢) ديوان ابن خفاجة / ٨٨ .
(٣) الذخيرة ق ٢ج ٢ / ٦٢١ .

تكمل صفات البطولة الحربية لديه لتجعلها بطولة كاملة ، وقد تنبه الشعراء الى ذلك فمزجوا الشجاعة بصفات أخرى استكمالا لصورته ، فهو اضافة الى بسالته وشجاعته بعيد الهمة طامح الى العلا ، قال ابن خفاجة في ابن تيفلويت :

ضافي رداء المجد طماح العلا   طامي عباب الجود رحب الدار
جرار أذيال المعالي والقنا   حامي الحقيقة والحمى والجار
طارد القنيص بكل قيد طريدة   زجل (١) الجناح مورد الاظفار (٢)

وهو كذلك يجمع الكرم والشجاعة ، وقد أكثر الشعراء من الجمع بين هاتين الصفتين ، وذلك لان جماعهما هو البذل والعطاء ، فان كان الكريم يجود من ماله على المحتاجين فان بطل المعركة يتحمل المشقة ويجود بدمه وروحه في سبيل تحقيق الامن والحماية للمسلمين ، فهو كريم يجود في السلم وفي الحرب ، قال ابن خفاجة في أبي الطاهر تميم :

تقسمه جود يفيض وهمة   فمن منهل عمر ومن جبل وعر
ولا كف إلا للأمير كريمة   تبسم فيها النصل عن مبسم النصر
ومهب بها يمضي فيهوي كأنما   شهاب به ينقض أو قدر يجري
تلوذ المنى منه بأصيد أمجد   صقيل فرند الحمد والمجد والبشر
وأبلج منصور اللواء اذا سرى   أظلت عقاب النصر أجنحة النسر
عليه يمين أن تغيض يمينه   وألا يغض السيف جفنا على وتر
يعب عباب البحر في السلم والوغى   ببذل اليد الخرساء والفتنة الباسر

---

(١) زجل الجناح : قوي الجناح يرمي به من يضربه ، لسان العرب ١١ / ٣٠١ .

(٢) ديوان ابن خفاجة / ٣٥ .

وعزمٌ يردُّ الطودَ هدّاً ونجدةٌ   تهزُّ قدودَ السمرِ في الحللِ الحمرِ
فهزّتْ إليه عداتها كلَّ رايةٍ   تهزُّ عليه الغصنَ في الورقِ النضرِ (١)

واقتران الشجاعة بالكرم نجده في تصوير التطيلي لابي الطاهر تميم نفسه ، وذلك عند احرازه النصر في موقعة أقليش (٥٠١) هـ ، ويمعن التطيلي في توضيح هاتين الصفتين لدى البطل فيجعله أسداً في القتال والشجاعة وغيثاً في الكرم والجود ، يقول :

مدحتَ قطوراً قيلَ كالمدارِ الحيا   نوالاً وطوراً قيلَ كالاسدِ الوردِ
كأنْ لمْ يروا تلكَ المواهبَ كالمنى   ولا شهدوا تلكَ الخلائقَ كالشهدِ
ولا آنسوا نا رباه للحربِ والقرى   يمينكَ في كأسٍ ويسراكَ في زندِ
تراهمْ على ضيقِ المجالِ ورحبِهِ   يهلّونَ من مثنى إليهِ ومن فردِ
إلى ماجدٍ لا يُقبلُ المالَ نظرةً   إذا لمْ يكنْ منهُ نصيبٌ لمستجدي
حسامٌ ولكنْ ربّما ذكرَ الندى   له فثنى عطفي قضيبٍ من الرندِ (٢)

ويزيد ابن خفاجة هذا المعنى وضوحا عندما يمدح أبا الطاهر أيضا فيجعله غماما صيّبا اضافة الى شجاعته واجابته دعوة الصريخ ، يقول :

إذا استمطرتَ منهُ غمامَ رُحمى   أو استنصرتَ في يومٍ عصيبِ
ملأتَ يديكَ يسراها بيسرٍ   ويمناها بمخترطٍ خشيبِ
فإنَّ الغيثَ في بيضِ الأيادي   وإنَّ الغوثَ في النصلِ الخضيبِ (٣)

والبطل جاد مهتم بأمر المسلمين وبالدفاع عنهم يفضل ساحة الجهاد على التمتع والراحة ، قال ابن الزقاق في يحيى بن غانية :

---

(١) انظر : ديوان ابن خفاجة / ٢٥ — ٢٦ .
(٢) ديوان الاعمى التطيلي / ٢٩ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ٩٢ .

للرمح حسام طاهر مرتــــدٍ بحسام هندٍ والوغى تتوهــــجُ
يسبيهم طرفُ السنانِ وأجرة طرفٌ ولا يسبيهم طرفٌ أدعـــجُ
والبيض تذهله عن البيض الدُمى حتى لقد حسد القراب الدملـجُ
يشجوه مسراه الا سود صبابة مهما شجا الركب الكثيب ومنعجُ(١)(٢)
فيصون من شغف عليه كلّما عاجوا على مغنى الخليط وعرّجوا (٣)

ويظهر الشعراء جدّه بالمقارنة مع لهو غيره ، فهو مصمم نحـــو عدوه غير لاه ولاعابث بما يلهو به الآخرون ، وهو أيضا معرض عن نعيـــم الحياة الدنيا وملذاتها محتسب ذلك عند ربّه ، قال أبو عامر بن أرقـــم في عبد الله بن مزدلي :

إذا الطواف ينام في مضاجعهم يستحسنون بهاء الحلي والحلـلِ
لله صومك براً يوم فطرهـــمُ وما توخيت من وجه ومن عمـــلِ
نحرت فيه الكماة الصيد محتسباً وحسب غيرك نحر الشاء والإبـلِ
إذا صرير المداري هزهم طرباً ألهاك عنه صرير البيض والأسـلِ
وإن ثنتهم عن الاقدام عاذلة مضيت قدماً ولم تأذن إلى العذلِ
كم ضم ذا العيد من لاه به غزلِ وأنت تنشد أهل اللهو والغـزلِ
ظلت يومك لم تنقع به ظمأ وظل رمحك في علٍّ وفي نهـــلِ
وكلما رامت الروم الفرار أتت من كل صوب وضمّتها يد الاجلِ (٤)

---

(١) الكثيب : قرية لبني محارب بن عمر بن وديعة من عبد القيـــس بالبحرين ، معجم البلدان ٤/٤٣٨ .
(٢) منعج : بالفتح ثم السكون وكسر العين والجيم ، واد بين حفـــر أبي موسى والنباج من بلاد غطفان ، معجم البلدان ٥/٢١٣ .
(٣) انظر : ديوان ابن الزقاق ١١٦/ — ١٢٠ .
(٤) خريدة القصر ٣/٤١٦ .

ويؤكد محمد بن رحيم هذه الصورة فيمدح أبا اسحاق ابراهيم بن يوسف بأنه بعيد الهمة دائم العمل والجد في سبيل حماية المسلمين ، يقول :

يطاردُ بالضحى خيلَ الاعادي ويأوي كلَّ وفدٍ بالعشيِّ
لابراهيمَ عندَ اللهِ سرٌّ بدقَّ به عن الناظرِ الخفيِّ
درتْ صنهاجةٌ ولها علاها بأنَّ علاهُ مفتخرُ النديِّ
وتعلمُ انهُ السيفُ المحلّى لدفعِ الخطبِ أو قرعِ الكميِّ
أيا ليثَ الخطوبِ ومَنْ تردّى رداءَ الفضلِ والخلقِ الرضيِّ
سواكَ يرينُ مِنْ وخدِ المطيِّ ويقصرُ عن مدى الأسدِ القصيِّ
وأنتَ تعادمُ العلياءَ لمّا غدتْ لكلِّ غتيٍّ علميِّ
تعادرُ كلَّ معضلةٍ نؤودٍ (١) متى هجمتْ بصدرِ السمهريِّ
وتكشفُ كلَّ غماءٍ بهديٍ حكى هدى النبي الهاشميِّ (٢)

وهو دائم الاستعداد يتخذ للظفر أسبابه ووسائله ، قال ابن خفاجة في الأمير أبي اسحاق ابراهيم بن يوسف :

لهُ من صدورِ الأعوجيةِ والقنا شفيعٌ الى نيلِ الأماني مشفّعُ
وظفرهُ في ملتقى الخيلِ ساعدٌ ألفٌّ وقلبٌ بينَ جنبيهِ أصمعُ
وأبيضُ يتلو سورةَ الفتحِ منتضىً ويستقبلُ القرنَ الكريمَ فيركعُ
ومنجردٌ ضخمُ الجزارةِ (٣) أوحدٌ تطيرُ بهِ تحتَ العجاجةِ أربعُ
وخضراءُ تزري بالسنانِ حصينةٌ ووجهٌ وقاحٌ (٤) بالحديدِ مقنعُ (٥)

---

(١) نؤود : داهية ، لسان العرب ٣/٤١٣ .
(٢) قلائد العقيان /١٢٥ ، خريدة القصر ٣/٤٠٣ .
(٣) الجزارة : اليدان والرجلان والعنق ، لسان العرب ٤/١٣٤ .
(٤) وقاح : صلب ، لسان العرب ٢/٦٣٧ .
(٥) ديوان ابن خفاجة /٨٦ .

وهو لاستعداده الدائم وتحفزه للقاء عدوه دائم والاستصحاب لسلاحه لا يفارقه ، قال ابن خفاجة :

اذا رابَ خطبٌ خفّرتني ثلاثةٌ سنانٌ وعضبٌ صارمٌ وجوادُ
فبتُّ ولا غيرَ الحسامِ مضاجعٌ ولا غيرَ ظهرِ الأعوجيّ مهادُ (١)

ويجمع البطل الى استعداده وتحفزه صفة المجاهد العابد التقي ، قال أبو الحسن بن أضحى في عبد الله بن مزدلي :

شعارُهُ البرُّ والتقوى ومؤنسُهُ في ليلِهِ رمحُهُ والصارمُ الذكَرُ (٢)

واصابة الرأى من صفات البطل ، وهي تدل على حنكته وقدرته على التنبؤ بمجريات الأمور ، قال ابن خفاجة في ابراهيم بن يوسف يصفه بأصالة الرأي والقدرة على كشف مراوغة ابن رذمير (الفونسو الأول المحارب) حينما حاول الكيد به في قوريسة :

ورامَ النصارى بها حيلةً فلمْ ينجِدِ الرومَ رَوْمُ الحيلْ
فقلْ لابنِ رذميرَ مهما تشزّ يقوّمْ صفاكَ الأميرُ الأجلْ (٣)

ويصف ابن رحيم المدون نفسه بأصالة الرأي وحصافة الفكر فيقول :

يرى غيبَ الأمورِ إذا ادلهمتْ بعينِ الرأيِ والفكرِ البديّ
ويوضعُ كلَّ مشكلةٍ فيرمي بها فيصيبُ شاكلةَ الرميّ (٤)

ويتصف البطل برجاحة العقل والفهم الثاقب حتى في أكثر الاوقات حرجا عند اشتداد المعركة ، قال ابن خفاجة في ابراهيم بن

---

(١) انظر : ديوان ابن خفاجة / ١٣٢ — ١٣٣ .
(٢) قلائد العقيان / ٢١٨ ، خريدة القصر ٣ /٤٩٦ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ١٠٣ .
(٤) قلائد العقيان / ١٢٥ ، خريدة القصر ٣ /٤٠٣ .

يوسف عند محاصرته لحصن الحريطة :

أرأيتَ أمضى أمْ حسامُكَ أقطعُ ومرآكَ أبهى أمْ حديثُكَ أسمعُ
لكَ الخيرُ ما أعداكَ والسهمُ صائبٌ يطيشُ وما أعداكَ والخيلُ تمزعُ
ولا غيرَ أطرافِ الأسنةِ مقولٌ يُبينُ ولا غيرَ الفؤادِ مسمعُ(١)

ولم تكن صورة البطل مقصورة على صفات بطل المعركة كما أسلفنا ، فكثير من صفاته تعبر عن مواقف انسانية وصفات أخلاقية عالية ، وبذلك فقد امتزج هذان الجانبان ليئوتا معا صورة البطولة المتقنة ، اذ البطل هو الرجل الكامل الذي يتصف بمعظم هذه الصفات الحميدة . وهو زيادة على ما مر بنا من صفاته يتصف بالحلم ، قال ابن خفاجة في ابراهيم بن يوسف :

وما هو والحلمُ في طبعهِ هزبرٌ اذا ما حمى أو حملْ
يضيفُ إلى طعنهِ رشقةً هناك وللمزنِ وبلٌ وطلْ
ويكفي ويكفلُ في حالةٍ فيبني المعالي كفى أو كفلْ(٢)

وهو لحلمه يصفح عن المسيء ويعفو عند المقدرة ، قال أحد الشعراء في تاشفين بن علي :

يا أكرمَ الناسِ عفواً عندَ مقدرةٍ وأجملَ الناسِ في خَلْقٍ وفي خُلُقِ(٣)

وهو كذلك عادل لا يجور ولا يظلم ، قال محمد بن رحيم في ابراهيم ابن يوسف :

ركبتَ مناهجَ التقوى ففاتتْ أمورَكَ كلَّ أمرٍ مختلقِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٨٧ .
(٢) انظر : ديوان ابن خفاجة / ١٠٢ - ١٠٣ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ٩٥ .

وسرت بسيرة العمرين عدلاً ولم تقمد مضاءً عن علي (١)

ولم يكن البطل المسلم متعطشا للدماء بل هو لا يدخل الحرب الا اذا لم يجد عنها بدا ، فيوسف بن تاشفين لم يبدأ الحرب مع النصارى الا بعد أن استنفذ السبل الى السلم (٢) ، كما لم يكن البطل عسوفًا ولا غشومًا بل أنّ أبا الحسين بن الجد لَيشبه يوسف نفسه بالخليفة عمر بن الخطاب في رحمته بالمسلمين وعطفه عليهم فيقول :

يرعى الرعايا بطرفٍ ساهرٍ يقظٍ كما رعاها بطرفٍ ساهرٍ عمرُ (٣)

وقد صور الشعراء البطل المسلم بعيدا عن الغرور والطيش ، فهو يجمع الى شجاعته الرحمة وطيبة النفس ، وهو على الرغم من شدته على الاعداء رؤوف بالمسلمين ، قال ابن عبد الغفور في الأمير يحيى ابن سير (٤) :

كالنجم في رجمه عداهُ بكلِّ ماضي الشبا طرير
أرعى من النجم للرعايا أرنُ سامٍ عن النظير (٥)

---

(١) قلائد العقيان / ١٢٥ ، خريدة القصر ٢ / ٤٠٤ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٤١ .
(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٥٧ .
(٤) يحيى بن سير ابن بكر ، أحد قادة المرابطين ، ولي اشبيلية سنة (٥٠٧) هـ وذلك بعد وفاة أبيه وعزل عنها سنة (٥٠٨) هـ ، خريدة القصر ٢ / ٤٢٦ ، البيان المغرب ٤ / ١٠٦ .
(٥) قلائد العقيان / ١٦٠ .

وقد صور التطيلي شدته على الاعداء ورحمته بالمسلمين واحسانه اليهم فقال :

مطلٌ على الاعداء مستجرئ بهم
كما انساب أيمٌ أو كما انقضَّ أجدلُ

طويلُ نجاد السيف ماض غرارُهُ
ألا قلبُهُ أمضى وحدّاه أجزلُ

ولدنٌ مهزّ الرمح رحبٌ مجاله
وقد ضاق ذرعُ الموت فيما يحمّلُ

ونافذُ مرمى السهم دان مرامه
وقد نبت الاقدارُ عمّا يؤمّلُ

وحان على العافين بهش(١) اليهمُ
كما اهتزّ غصنٌ أو كما انساب جدولُ

حبيبٌ ولم يطمع مهيبٌ ولم يخف
ولكنّهُ في كلّ قلب ممثّلُ (٢)

وتعد صورة الانسان التقي المجاهد المدافع عن الاسلام من أكثر الجوانب وضوحا في صورة البطل المسلم ، قال ابو بكر محمد بن سوار في يوسف بن تاشفين :

اسمع أميرَ المسلمينَ وناصرَ الد	ين الذي بنفوسنا نفديه
جوزيتَ خيرًا عن رعيتك التي	لم ترض فيها غيرَ ما يرضيه
أمّا مساعيك الكرامُ فانها	خرجت عن التكييف والتشبيه

---

(١) بهش : مسرع الى المعروف ، لسان العرب ٦ / ٢٦٨ .
(٢) ديوان الاعمى التطيلي / ١٢٨ .

في كلِّ عامٍ غزوةٌ مبـرورةٌ ... تردي عديدَ الرومِ أو تنفيـهِ
تصلُ الجهادَ إلى الجهادِ موفقاً ... ختمَ القضاءُ بكلِّ ما تقضيـهِ
متواضعاً للهِ طاهرَ دينـهِ ... في كلِّ ما تبديهِ أو تخفيـهِ
ولقدْ ملكتَ بحقِّكَ الدنيا وكمْ ... ملكَ الملوكُ الأمرَ بالتمويـهِ
لو رامتِ الأيامُ أنْ تحصي الذي ... فعلتْ سيوفُكَ لمْ تكنْ تحصيـهِ (١)

ولم يكن للبطل هم شخصي أمام الهم العام ، اذ تتضاءل لديـه مصالحه الذاتية ومنافعه الشخصية ، بل انه يجعل امكانياته وقدراتـه من شجاعة وبسالة وغيرهما في خدمة أمته ، حتى ولو أدت ذلك الى المـوت ، قال التطيلي يمدح ابن زهر :

تسمو بهمتهِ والأهوالُ ساميـةٌ ... وللردى ثمَّ سهمٌ غيرُ مغمـورِ
بكرٌ عوانٌ فتاةٌ كهلةٌ ذهبـتْ ... اعجوبةً بينَ تأنيثٍ وتذكيـرِ
تُبلى لها فتكاتٌ في أحبتها ... على اقتدارٍ لهمْ فيها وتنكيـرِ
واهاً لهمْ بينَ جنبيها وأنفسُهُمْ ... تجيشُ بينَ التراقي والخناصيرِ (٢)

ولم يكن البطل مقصورا في بطولته على قبيلة أو جماعة وانمـا كان بطلا اسلاميا يدافع عن العقيدة ، قال التطيلي يمدح ابن حمديـن ويجسد هذه الصورة فيه :

تدفعتَ دونَ الدينِ بحرَ منيّـةٍ ... تموجُ على أعدائهِ وتحـومُ
جميعُ أمورِ الناسِ في كلِّ موقـفٍ ... بهِ الليلُ نقعٌ والرماحُ نجـومُ
حمى حوزةَ الإسلامِ فيكَ محمـدٌ ... بأحمدِ عيشٍ كانَ وهو ذميـمُ (٣)

---

(١) انظر : الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٨٣١ — ٨٣٢ ، الاحاطة ٤ / ٣٥٣ .
(٢) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٥٨ — ٥٩ .
(٣) ديوان الاعمى التطيلي / ١٦٢ .

لقد كانت العقيدة أهم مذكي للجهاد لدى المسلمين ولذلك أكثر الشعراء من ذكرها عند رسمهم لصورة البطل ، قال ابن الصيرفي يمدح تاشفين بن علي ويذكر سعيه لحفظ العقيدة وصيانتها :

لا ضيَّعَ الرحمنُ سعيكَ إنَّهُ ... سعيٌ بهِ الاسلامُ ليسَ يضيَّعُ

نستحفظُ الرحمنَ منكَ وديعةً ... فهوَ الحفيظُ لكلِّ ما يستودعُ (١)

ونجد الفكرة ذاتها لدى ابن سارة الاشبيلي عند مدحه لابن تيفلويت سنة (٥٠٦) هـ حيث يذكر انه مدافع عن الشريعة يصونها ويحرسها ، يقول :

أورتْ زنادَ المسلمينَ لهُ يدٌ ... بالنُجحِ تقدحُ مرخها (٢) وعفارها (٣)

حاشا لأزندِ شرعنا من كبوةٍ ... ويدُ ابن ابراهيمَ توري نارَها

أصفى مواردَها أزالَ سقامَها ... أحيا مواتَ أقالَ عثارَها

أرلي أمةَ أحمدٍ أبهجتها ... مذ صرتَ من جور الحواد ثِ جارها (٤)

ويجعل أبو عامر بن أرقم وجود المسلمين متعلقا بوجود البطل كما يجعل عزّة الدين مرتبطة بحمايته ورعايته ، ويقول في تاشفين بن علي :

ولولاهُ كانَ السرورُ الذي ... أقرَّ العيونَ بها مأتمُ

بني تاشفينَ سلمتمْ لنا ... فمهما سلمتمْ لنا نسلمُ

وأنتَ لدينِ الهدى عصمةٌ ... بها يحتمي وبها يعصمُ

علائقُكُمْ غيرَ مجهولةٍ ... وسرُّ امامتكمْ تعلمُ

---

(١) الحلل الموشية / ١٢٩ ، الاحاطة ٤/٤١٥ .

(٢) المرخ : شجر كثير النار سريع الاشتعال ، لسان العرب ٣/٥٣ .

(٣) العفار : شجر يتخذ منه الزناد ، لسان العرب ٤/٥٨٩ .

(٤) انظر : خريدة القصر ٢/٣٢٦ — ٣٢٧ .

فلو يُخلِقُ اللهُ فينا الجمـــادَ لنا جئنَ أعظمٌ بها زمزمُ (١)

وهو شديد الرعاية للاسلام كما انه شديد الفتك بالكفر ، قـــال ابن الصيرفي في تاشفين بن علي :

أنتَ يا تاشفينُ واللـــهُ واقٍ لَكَ شخصُ العلا ونفسُ الكمـــالِ
وعلى الكفرِ منكَ حرٌّ هجيـــرٍ وعلى الدينِ منكَ بردُ ظـــلالِ (٢)

ويتصف البطل بأسمى صفات البطولة ، اذ يصدر عن هدف سـام هو تحقيق النصر وحماية الاسلام ، قال ابن الصيرفي في تاشفين بـــن علـــي :

سيفٌ به ذُلَّ عرشُ الرومِ واطّأدتْ (٣) قواعدُ الظفرِ واستولى به الظافـــرُ
وأدركَ الدينَ بالثأرِ المنيمِ على رغمٍ وجاءتْ صروفُ الدهرِ تعتذرُ
منوٌّ تنالُ وأيّـامٌ مفضضـــةٌ مذهّباتُ العشايا ليلُها سَمَرُ (٤)

وقد ظهرت كثير من صفات البطل المسلم من خلال فن الرثـــاء ، فأكدت كثير منها الصفات السابقة ، وكان بعضها جديدا ، وقد صـــور الشعراء البطـــل الشهيد بصورة الرجل الكامل المتصف بالشجاعـــة والمروءة والاقدام ، كما صوروا أثر فقده على المسلمين ، اذ انه ليـــس قائدا فحسب بل مجاهد بطل ابتعد عن ساحة الجهاد وترك وراءه فراغـــا لا يسهل ملؤه ، قال ابن الزقاق :

من ذا يسدُّ مكانَه في غـــارةٍ تركتْ سوابقُها الحزونَ سهـــولا

---

(١) الذخيرة ق ٣ م ١/ ٤٠٩ .
(٢) الاحاطة ٤/ ٤١١ .
(٣) اطّأدت : ثبتت ، لسان العرب ٣/ ٢٧٠ .
(٤) الاحاطـــة ٤/ ٤٠٨ .

أو مَنْ ينوبُ منابَهُ لحوادثٍ تذرُ العزيزَ بحكمهنّ ذليلا (١)

وما لا شك فيه أن ايمان البطل بما يقوم به من جهاد هي صفة ترفعه الى مصاف الأبطال الأفذاذ ، ثم أن تضحيته في سبيل ما يؤمن به هي أيضا صفة قد لا تتوفر الا لمن يؤمن بمبدئه ايمانا راسخا ، ولذلك فقد عدت هذه التضحية حياة خالدة وشرفا يضاف الى ما كان يتمتع به الشهيد من شرف أيام حياته وجهاده ، قال ابن عيطون في الشهيد أبي حفص الهوزني :

مازال قدرك ساميا حتى غدا في زمرة الشهداء وهو رفيعُ
ماذقت موتا إذ صُرِعتَ وانّما نلتَ الحياةَ ، وصبريَ المصروعُ (٢)

ويعتقد البطل الشهيد بأن الفرار من المعركة والنجاة الذليلة انما هي الموت بعينه ، ولذلك فهو يقبل على الموت مقدما غير محجم ،اذ يَعُدّ الموت في سبيل الله حياة ، كما يعد الذل والفرار موتا حقيقيا ، فهما نقيضان لا يلتقيان لديه . إن الايمان بالموت وحتميته قد تأخذ مسارين مختلفين : الأول يشد الى الحياة والى الخوف من الموت ، وبالتالي يحجم المرء ويؤثر الجبن على الاقدام ، والثاني يدعو الى الاقدام وخوض غمرات الموت في سبيل تحقيق الحياة العزيزة والانتصار أو التشرف بالموت العزيز وهذا ما ينسجم مع فكر الابطال المجاهدين ، وبذلك صور ابن الزقاق البطل الشهيد بأنه مقدم يأبى الفرار وان توفرت أسبابه ، قال :

البأسُ والاقدامُ أوردك الردى إن كانَ أنجى غيرَكَ الاحجامُ
قدْ كنتَ في ذاك المقامِ مخيّراً لكنْ ثبتَّ وزلّتِ الأقدامُ

(١) ديوان ابن الزقاق /٢٤٥ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م ٢ /٧٨٣ .

لمْ يلقَ فيه سوى الفرار أو الـردى فاختَرت صرفَ الموتِ وهو زؤامُ
وأبت لك الذمَ المكارمُ والعلا والسمهريُّ اللدنُ والصمصامُ (١)

وبذلك يكون البطل منسجما مع ما يعتقد به من أن الدنيا هي دار امتحان وانما الحياة الحقة في الدار الآخرة ، قال ابن الطح يرسم صورة هـذا البطـل :

مهينٌ لدنياه يهانُ حياتَـهُ إذا لمْ يمتْ في اللهِ دارَ بـوارِ
تسنمَ جدرانَ المكارهِ فانتهى مآثرُ لمْ تحجبْ لـهُ بجـدارِ
سقى من قليبِ الحربِ أشجارَ مفخرٍ تدلّتْ لهُ من ساعةٍ بثمـارِ (٢)

والأمة المجاهدة يظهر فيها البطل فيبلغ مكانة لا تطاول وأثـرا لا يقدر ، حتى اذا استشهد بَعُدَ صيتهُ وحسن ذكره وانتشر خبـر استشهاده ، وقد يختلط الحزن بالاعجاب فيتباهى الشعراء بالبطـل الشهيد ويتغنون به بأشعار حزينة ، ومن ذلك ماقاله ابن الزقاق يرثـي أحد الابطال الشهداء من بني داود (٣) :

أبا حَسَنٍ قدْ آبَ كلُّ مـودّعٍ فَمَنْ ضامنٌ للمجدِ انكَ آيـبُ
أنبكيكَ أمْ نبكي أباكَ لخـارقٍ تشنُ فقدْ ضاقتْ علينا المذاهبُ
نوائبُ لمْ يقنعن منكمْ بواحـدٍ وواحدُكمْ عنْ مشهدِ الكلِّ نائبُ (٤)

ويبدي ابن عيطون مثل هذا الحزن في رثائه لأبي حفص الهـوزني الشهيد بالبيرة ، ويبدو لنا ما كان يعنيه وجود البطل من الاهميـة ، يقول :

---

(١) انظر : ديوان ابن الزقاق /٢١٣ - ٢١٤ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م ١/٤٦٤ .
(٣) لم نعرف الا أن اسمه أبو حسن كما ورد في الابيات التي قالهـا ابن الزقاق ، أما اسمه الكامل أو ترجمته فلم نعثر عليهما فيما وصلنا من المصادر .
(٤) ديوان ابن الزقاق /١١٠ .

يا طالعاً في الجيش من طلبيــرة ٍ هلْ آنَ لابن ِالهوزنيِّ طلـــوعُ
أمْ قدْ أطالَ بها الثواءَ ولمْ يحنْ منهُ إلى يوم ِالنشور رجـــوعُ
فغدا نظامُ مؤملِيـــهِ مبـــدداً والشملُ شتّى وهوَ أمسِ جميـــعُ
ماذا أجنَّ التربُ في طلبيـــرةٍ من سؤددٍ لكَ ذكرهُ مرفـــوعُ
جفتْ ينابيعٌ بتاجهٍ (١) إنهـــا سمٌّ لأرواح ِالكــرام نقيـــعُ
أنّى غمرتَ البحرَ وهو غطامطٌ (٢) وطمستَ نورَ البدرِ وهو سطـــوعُ (٣)

وقد أكثر الشعراء من رثاء الأبطال الشهداء ، إذ كان لهذه الشخصيات الأثر الكبير في حياة المسلمين وسير جهادهم ، فافتقاد البطل لـــم يكن أمرا سهلا لعظم الخطر الصليبي المهدد لهم ، ولذلك فقد كـــان غياب البطل مؤثرا على المسلمين ، يقول ابن الزقاق :

الليلُ بعدكَ سرمدٌ لا ينقضـــي فكأنّما ساعاتُـــهُ أعـــوامُ
والأنسُ غمٌّ والسرورُ كآبـــةٌ والنومُ سهدٌ والحياةُ حِمـــامُ
لمنْ أطّرحتَ المجدَ وهو كأنّـــهُ طللٌ تعفيّهُ صباً وغمـــامُ
ولمن تركتَ الصافناتِ كأنّـهـــا موسومةٌ باللؤمِ وهيَ كـــرامُ
كثرَ العويلُ عليهِ بعدَ نعيّـــهِ حتى كأنّ العالمينَ حَمـــامُ (٤)

ويلاحظ أن صورا قد رسمت لأبطال شهداء لم نكن نلاحظها فـــي وقائعهم قبل استشهادهم ، وقد يكون ذلك راجعا الى إبلاء البطـــل في وقعه استشهاده ، أو الى مفاجأة فقده وشدة الأثر الذى تركـــه غيابه ، وقد يصور الشعراء هذا الأثر بمظاهر كثيرة : فيكثر حزن النـــاس

---

(١) هو نهر تاجة ، ينبع من جليقية ويمر بطليطلة وطلبيرة ويصب فـــي البحر المحيط ، الروض المعطار / ١٢٧ .
(٢) بحر غطامط : عظيم كثير الأمواج ، لسان العرب ٧ / ٣٦٣ .
(٣) الذخيرة ق ٣ م ٢ / ٧٨٣ .
(٤) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٤ .

وبكاؤهم ، وقد يبكي عليه حصانه وعدة جهاده ، بل ان ابن الزقاق يجعل بعض المظاهر الكونية تحيد عن طبيعتها حزنا على البطل الشهيد ، يقول :

إنْ كنتَ ودعتَ الحياةَ فانّما — أودعتَ داءً في القلوبِ دخيلا
أو كانَ واراكَ الصفيحُ فانّما — وارى رقيقَ الشفرتين صقيلا
أما الأنامُ : عيونُهمْ وقلوبُهُمْ — فلقدْ مُلئنَ مدامعاً وغليلا
عندي حديثٌ عن وجيبِ قلوبِهمْ — لوكنتَ تصغي للحديثِ قليلا
لمْ تبترِ من ندافرِ المدامعِ قاطرةً — إلاّ وراحَ مصونُها مبذولا
فبكى الحصانُ الأعوجيّ تحمحماً — والهند وانيُّ الجرازُ صليلا
واغرورقتْ عينُ السماءِ وربّما — رفعتْ كواكبُها عليكَ عويلا
وتغيرَّ الصبحُ المنيرُ فخلتُهُ — مما تسربلَ بالشجونِ أصيلا (١)

وقد يكون منشأ الحزن لدى الشعراء هو افتقاد البطل وافتقاد دفاعه عن الدين والعقيدة ، يقول التطيلي في ذلك :

ياحسرةً نشأتْ بينَ الضلوعِ جوىً — ماضرَّ لاعجُها أنْ لا يكونَ ردى
في ذمةِ اللهِ قبرٌ ما مررتُ بهِ — إلاّ اختُلِسْتُ أسىً إنْ لمْ أمتْ كمدا
تضمّنَ الدينَ والدنيا بأسرهِما — والعزمَ والحزمَ والايمانَ والرشدا
ألا لتبكِ قناةُ الدينِ حطمتَها — لماجدٍ لمْ يدعْ في متنِها أودا (٢)

ويظهر لنا أنه على الرغم من التركيز الكبير على صورة البطل الفرد الا اننا لم نعدم صورة البطولة الجماعية ، اذ لم يغفل الأدباء عن تصوير بعض جوانبها المتعلقة بالجهاد ، وقد يكون سبب التركيز على صورة البطل الفرد هو تميز البطولة الفردية وارتفاعها عن البطولة العادية ،

---

(١) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٢) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٢٣ — ٢٤ .

فاذا كان الكثير من المجاهدين أبطالا فان البطل الفرد يعلو في بطولته بطولة هؤلاء ، وقد يكون أثره في احراز النصر من أسباب اهتمام الشعراء به خاصة وان كثيرا من هؤلاء الابطال هم من الامراء وكبار القادة .

ويرسم ابن الزقاق صورة البطولة الجماعية فيصف الابطال بأنهم مثخنون في الاعداء شديدون عليهم ، يقول :

قومٌ رماحُهُمُ في الحرب ناهلــةٌ — والتربُ من فعلها ريّانُ ممطورُ (١)

وهم أبطال شجعان يلقون عدوهم في ساحات المعارك فيهزمونهم ويجعلونهم يولون الادبار ، قال ابن الزقاق :

لا تثبتُ الاقدامُ عندَ لقائهــمْ — ولو أنّهمْ خطوا على ثهلانِ
واذا المنايا استحوذتْ فمناهــمُ — بيعُ النفوسِ بكلِّ سوقِ طعانِ (٢)

وهم كذلك تقاة مدافعون عن الاسلام ، قال التطيلي :

إذا دعوا قامت الهيجاءُ على قدم — كأنّما تنتمي فيهمْ وتنتسبُ
همْ ثبّتوا الدينَ إذْ ضاعتْ مذاهبُهُ — بأنفسٍ صيغَ منها الدينُ والحسبُ
أيامَ جبريلُ داعيهمْ إذا نزلوا — وعزرائيلُ راعيهمْ إذا ركبوا (٣)

وهم أيضا مستبشرون بتحقيق النصر للاسلام آملون بالفوز على الاعداء قال ابن سارة فيهم :

في فتيةٍ تسري إلى نصر الهدى — فتظنهمْ سدفَ الدجى أقمارَها
خضبوا السواعدَ والرقاقَ تفاؤلاً — أنْ سوفَ تخضبُ بالنجيعِ شفارَها

---

(١) ديوان ابن الزقاق / ١٨٤ .
(٢) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٦ .
(٣) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ١٧ — ١٨ .

وتلثّموا صوناً لرقّة أوجهٍ   جَعلَ السماحُ شعارَها ودثارَها
لما لا تراعَ شريعةُ التقوى بهم   وجفونُها منهم ترى أنصارَها (١)

ويؤكد ابن خفاجة صورة البطولة الجماعية فيضيف اليها صفات أخرى كالكرم واجابة الصريخ، فيقول فيهم في معرض مدحه لابن تيفلويت :

مِنْ معشرٍ تَدْمى بهمْ يومَ الوغى   بيضُ السيوفِ وأوجهُ الكفّارِ
من كلِّ غيثٍ للسماحةِ واكفٍ   يهمي وقرمٍ في الوغى هدّارِ
يتتابعونَ إلى الصريخِ كأنّهمْ   أمواجُ بحرٍ قدْ طمى زخّارِ (٢)

وبذلك يظهر لنا أن الأدباء في تركيزهم على صورة البطل كانوا يهتمون بضرورة وجوده وطيب نسبه وأخلاقه وما يتصف به من حميد الصفات الحربية — كالشجاعة والاقدام والاثخان في الاعداء وشدة البأس والشعور بالمسؤولية والدفاع عن العقيدة والجد والاستعداد واصابة الرأى — وغير الحربية — كالكرم والحلم والعدل والعطف على المسلمين، الاّ اننا لم نجد وصفا للبطل من حيث المظاهر الجسمي. ويلاحظ أن الصفات التي يتصف بها البطل في أكثرها صفات حقيقية وليست من قبيل التصور، والاّ لما استحوذ البطل على مثل هذه الصورة الرائعة، وحتى لو لم تكن بعض هذه الصفات ملموسة فيكفيها انها صفات يتمنى الأدباء وجودها في البطل، وما من شك بأن الأدباء حينما يخلعون هذه الصفات عليه فهم بذلك يستوحون قيم المجتمع ومثله العليا في عصر معين ويحاولون أيضا تقريب صورته من صورة الانسان المثالي في ذلك المجتمع، وقد تدل هذه الصفات على تأثر المجتمع الاندلسي بظروف الجهاد في هذه الفترة .

---

(١) خريدة القصر ٢/٢٢٦ .
(٢) ديوان ابن خفاجة / ٣٨ .

ان الأدب قد قدم لوحة اخرى تعنى بصورة البطل باعتبارها جانبا من جوانب أدب الجهاد ، كما لاحظنا أن عناية النثر برسم صورة البطل لم تكن كبيرة ، لافتقار النثر لعنصري التصوير والتخييل اللذين تتطلبهما عملية رسم الصورة .

صورة الصليبيين في أدب الجهاد :

لقد اهتم الأدباء بعقيدة النصارى اهتماما كبيرا ، فبينوا زيفها ، كما اهتموا بالنصارى أنفسهم فوسموهم بالكفر والإشراك : فكان طردهم من بلنسية سنة (٤٩٤) هـ تطهيرا لها من كفرهم ورجسهم ، قال ابن خفاجة :

وأقشعَ الكفرُ قسراً عنْ بلنسيةٍ ... فانجابَ عنها سحابٌ كانَ منسدلا

وطهّرَ السيفُ منها بلدةً جنباً ... لمْ يجْزِها غيرُ ماءِ السيفِ مغتسلا

كأنّني بعلوجِ الرومِ سادرةً ... وقدْ تضعضعَ ركنُ الكفرِ فاستفلا (١)

ان هذا الوصف الذي أطلقه ابن خفاجة على النصارى مشابه للوصف الذي أطلقه بعض شعراء المشرق عليهم عند استرجاع بيت المقدس بعد معركة حطين سنة (٥٨٣) هـ (٢) ، وهذا يدل على تشابه نظرة المسلمين للنصارى سواء في المشرق أو في الاندلس .

ووصف الشعراء جيوشهم بأنها جيوش ضلال كما هي النظرة الاسلامية اليهم ، فهم ضالون فاسقون قال تعالى : " اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين " (٣) ، وقال

---

(١) انظر : ديوان ابن خفاجة / ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٢) انظر مثلا : ديوان ابن النبيه / ١٣ — ١٤ .
(٣) سورة الفاتحة الآيتان ٦ ، ٧ .

أحد الشعراء فيهم وقد خرجوا سنة (٥٢٦)هـ قاصدين أرض المسلمين [1] :

ركبت روعها جيوش الضـــلال وسرت من رماحها بذبـــال
حشّ في اثرها الأمير بحقبا ن جياد حوت بأسد رجـــال [2]

وذكر الأدباء زيف تمسكهم بانجيلهم ، اذ لم يحضهم على الثبـــات والبذل ، وفي ذلك قال ابن الصيرفي يستهزئ بالفونسو المحـــارب ويسخر منه حيث انهزم أمام المسلمين :

مابال انجيلك المتروك ما ذمـــرت [3]
نفوس قومك منه الآي والســور [4]

وقد اتسمت الصورة التي رسمها الأدباء للنصارى بالغرور والتغطرس، ويتجلى ذلك في رسالة الفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين والتـــي يطلب فيها أن يبعث اليه بمراكبه ليجوز اليه البحر قائلا : " فانّ كنـــت لا تستطيع الجواز فابعث اليّ ما عندك من المراكب لأجوز اليـــك ، وأنا جزاك في أحب البقاع ، فان غلبتني فتلك غنيمة جاءت اليـــك ، ونعمة مثلت بين يديك" [5] ، ويضيف الفونسو مستهزئا بأمير المسلميـــن " هذا وأنتم تعتقدون أن الله . . فرض على كل واحد منكم قتـــال عشرة منّا ثم خفف عنكم فجعل على كل واحد منكم قتال اثنين [6] منـــا (ثـــم ان)

---

(١) البيان المغرب ٤/٨٥ .
(٢) البيان المغرب ٤/٨٦ .
(٣) ذمـــر : حضّ ودفع ، لسان العرب ٤/٣١١ .
(٤) الاحاطـــة ٤/٤٠٩ .
(٥) الاحاطـــة ٤/٣٥١ .
(٦) اشارة الى الآيتين الكريمتين التاليتين : قال تعالى : " ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكـن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن =

قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار"(١) ، وكان هذا القائد النصراني نفسه قد كتب الى المعتمد — قبيل معركة الزلاقة — متهكما ساخرا ، يقول له : " ان صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحور وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعبا : أمضي اليكم وألقاكم في بلادكم ؛ رفقا بكم وتوفيرا عليكم ". (٢)

وفي أحيان كثيرة عني الشعراء برسم صورة مزدوجة للنصارى ففي الجزء الأول منها يظهر غرورهم وغطرستهم وأملهم بالانتصار ، ثم ما تلبث هذه الصورة أن تزول بفضل ثبات المسلمين وشدتهم فتنقلب الى صورة تتميز بالذلة والهوان ، قال التطيلي يقرّع النصارى ويتهكم بغرورهم في وقعة أقليش ويتوعدهم بما سيحل بهم من بأس المسلمين :

ألمْ تزعموا أنّ الصليبَ وأنّهُ كأنكمْ لمْ تسمحوا بالقنا الملدِ
رويدكمْ حتى تروكيفَ ترتمي بأنفسكمْ بينَ الاجازةِ والسردِ
وحتى تدوسَ الخيلُ أوجهَ فتيةٍ كرامٍ عليها غيرَ شؤمٍ ولا نكدِ (٣)

ومثل هذه الصورة رسمها ابن الزقاق لهم ، فهم بعد أن دخلوا المعركة واثقين من الانتصار ولّوا مدبرين خائفين ، بل ان ما أصابهم فيها من الهول والخوف لينغرس في أذهانهم لا يفارقهم ، يقول :

دلفوا كما دلفتْ أسودُ خفيّةٍ والتفّ الأقرانُ بالأقرانِ

= منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين " سورة الانفال الآيتان ٦٤ ، ٦٥ .

(١) الاحاطة ٤/٣٥١ .

(٢) نفح الطيب ٤/٣٦٣ .

(٣) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٣١ — ٣٢ .

حتى إذا ما النقعُ أظلم أجفلوا — خوفَ انتقامك فيه — كالظلمانِ
فرقوا لطيفك في المنام ففرّقوا بينَ الكرى المعهود والأجفانِ
ولقدْ تروعهمُ الكواكبُ هيبةً لمّا حكينَ أسنّةَ المرّانِ
ولربّما عاشوا فحلأتهمْ عن الـ غُدْرِ اشتباهُ البيضِ بالغدرانِ (١)

وهم أهل غدر لا يؤمن لهم جانب ولا يصدق لهم عهد ، وتظهر صورتهم هذه في أول لقاء للمسلمين بهم ، فقد غدروا بالمسلمين في معركة الزلاقة (٢) أملا في أن يأخذوهم على حين غرّة ، ولم يكن ذلك خدعة حربية ؛ وذلك لاتفاق الطرفين على موعد محدد للقاء (٣) ، وقد عرف المسلمون مكرهم وخداعهم فقال يوسف بن تاشفين في رسالته الى أهل المغرب بعد المعركة : " وعلمنا انهم أهل خدع ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا أحوالهم " (٤) .

وأكد ابن عبد البر (٥) صفة غدرهم وخداعهم فقال : " والتقينا مع الطاغية الباغية الذي أصاب الموت داعيه وأخزى التوفيق مساعيه بعد غدر أبداه وجرى فيه مداه وكنا تواعدنا معه لنلتقي في سواه فأتى والنقض يجرر ذيل مخزاه " (٦) .

وصور التطيلي الفونسو المحارب — وهو في صورته يمثل جماعة النصارى — يفتقر الى التجربة الحربية ويكتفي بالاحتماء بالحصون

---

(١) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٦٦ — ٢٦٧ .
(٢) تاريخ الاندلس / ٩٣ ، البيان المغرب ٤ / ١١٦ ، الحلل الموشية / ٥٧ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ١٣٦ .
(٤) الانيس المطرب / ١٥٠ .
(٥) أبو عبد الله بن عبد البر النمري ، كان كاتبا للمعتمد بن عباد ثم كتب للمرابطين مدّة ، الحلل الموشية / ٦٤ .
(٦) الحلل الموشية / ٦٤ .

معتمدا على ضاعتها التي لا تغني عنه شيئا أمام بأس المسلمين ، فقال ساخرا منه عند افتتاح البيرة سنة (٥٠٣) هـ :

سل الأذفونش أين الحرب منه — وربتما أجاب المستعين (١)
أعدَّ لها الحصونَ مشيَّداتٍ — وما تغني المعاقلُ والحصونُ
ولا ردَّ الجيوشَ ولا تفاها — كسيفٍ لا يحارُ ولا يخونُ
إذا صدقَ الحسامُ ومنتضيهِ — فكلُّ قرارةٍ حصنٌ حصينُ
وما أسدُ العرين بذي امتناعٍ — إذا لم يحمِهِ إلاّ العرينُ (٢)

وقد أكثر الشعراء من ذكر هزيمة النصارى ، فصوروها وأضافوا اليها صورا أخرى من صور جبنهم وفشلهم ، قال ابن بقي :

يا معشرَ الروم قدْ شالتْ نعامتُكُمْ — إمّا من الجبنِ أو من شدةِ الفشلِ
لمْ يكسكمْ من ثيابِ الخزيِ اسبغَها — إلاّ اتقاؤكمُ للصدرِ بالكفلِ
يا ويلكمْ معشراً بلْ ويلُ أمّكُمُ — فإنّها ولدتْ للثكلِ والهبلِ (٣)

---

(١) أحمد بن يوسف (المؤتمن) من أمراء سرقسطة ، تولى الامارة سنة (٤٧٨) هـ ، وقد حاول الفونسو انتزاع سرقسطة منه فحاصر المدينة الآّ ان أنباء دخول المرابطين الاندلس اضطرته الى التراجع ورفع الحصار عنها ، هزم سنة (٤٨٩) هـ في وشقة وقتل من جنده عشرة آلاف ، استشهد في دفاعه عن سرقسطة سنة (٥٠٣) هـ ، فخلفه ابنه عبد الملك (عماد الدولة) ، الانيس المطرب / ١٤٥ ، نفح الطيب ١ / ٤٤١ .

(٢) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٣) الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٦٢١ .

ويصور الشعراء جبن هؤلاء النصارى وخوفهم ، فهم يولون هاربين عندما يعرض لهم المسلمون ، وتصويرهم بهذا الشكل يعطي البطل المسلم صورة أكثر اشراقا ، يقول ابن خفاجة يصف جبنهم وقد تصدى لهم أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف وأنزل بهم الهزيمة :

يا ربَّ جيشٍ للعدوّ كأنّــــهُ عبابٌ خضمٌّ قدْ طامى يتدفّـــقُ
عرضتَ لهُ والليثُ دونَكَ جرأةً فأجفلَ اجفالَ النعامةِ تفزعُ
ولفتهُ بينَ للمهابةِ بـــانٍ فأقلعَ اقلاعَ الغمامةِ تقشــعُ
وأدبرَ لا يلوي على متعـــذرٍ حذارَ فتىً يسري اليه فيسرعُ (١)

ويظهر يحيى بن بقي الاستهزاء بهم والسخرية من جبنهم وعدم صمودهم أمام المسلمين فقال يصفهم ويصف بالمقابل شجاعة البطل المسلم :

لمّا رأوكَ وبحرُ الموتِ ملتطـمٌ ومن حميمِ المذاكي فوقهُ زبــدُ
صلّوا الى سيفِكَ المسلولِ وانحرفوا عن الصليبِ الذي تلقاءه سجدوا (٢)

وبسبب جبنهم وغرورهم فهم خائفون مرعوبون ، فترى رسلهم يحضرون الى البين المهادنة يتملكهم الخوف والفزع ، قال أحد الشعراء يصف رسل النصارى وقد حضروا الى الأمير تاشفين يالبون الصلح :

إذا أتتْ رسلُها جاءتكَ مقبلــةً والسيفُ من غمدِهِ سراً يناجيهـا
لا تسمعُ القولَ إلاّ أنْ يُعرّفهـا ولا ترى الشخصَ إلا أن يناجيها
تملّكَ الرعبُ منها كلَّ جارحــةٍ فما لأعضائِها فعلٌ يواتيهـا (٣)

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٨٨ .
(٢) قلائد العقيان / ٢٧٩ .
(٣) البيان المغرب ٤ / ٨٢ .

وقد رسم ابن خفاجة صورة واضحة لقائد النصارى (الفونسو المحارب) وقد خرج من قورية مهزوما، فصوره خائفا مترددا لا يجيب مستصرخيه، ولا يفكر بالاقدام حتى يحجم، فأظهر خوفه بأسلوب ساخر قائلا :

فما التمسوا الغوثَ إلاّ التوى ولا استنجزوا الوعدَ الاّ مطلْ
ولا أمَّ يقبلُ حتى انثنى حذاراً ولا قام حتى اضمحلْ
ولمْ ندرِ ما عقلتْ خيلُهُ أشكوى الوجى أمْ شكاةُ الوجلْ
بلى خافَ من جورِ سيفٍ عدا مضاءً لكانَ امامٍ عدلْ
فما حانَ عنهُ لعذرٍ بدا ولكنْ لقلبٍ وهى عن وهلْ (١)

ويرسم ابن بسام (٢) صورة جديدة تدل على جبن النصارى، فهم يلبسون الدروع المضاعفة القوية لانهم انها تقيهم من الموت، ولكنها كانت على العكس من ذلك، فقد أثقلتهم وأعاقتهم عن الفرار من ـامـ ـن رماح المسلمين، يقول :

تغامسوا في الدروع زاخرةً يسلموا من حرارةِ الاسَلِ
فيما أفادتهمُ الدروعُ سوى الذ لةِ من خفّةٍ الى ثقلِ
كأنّهمْ والرماحُ تحفزهمْ جريَ فصالٍ سلكنَ في الوحلِ
جاءوا بها زغفاً مضاعفةً قد أخلصتْ بالحديدِ والعملِ
مثلَ عيونِ الدّبى (٣) فصيّرها دمٌ وطعنٌ كأعينِ الحجلِ (٤)

---

(١) انظر : ديوان ابن خفاجة / ١٠٣ — ١٠٤.
(٢) الفقيه القاضي أبو الحسن بن بسام وفي القلائد (ابن زنباع)، كان عالما وقورا، راوية لشعر العرب ورجزها كما كانت له معرفة بالطب، انظر : قلائد العقيان / ٢٢٤ — ٢٢٠، خريدة القصر ٣ / ٥٠٥.
(٣) الدّبى : أصغر ما يكون من الجراد واحدته دباة، لسان العرب ١٤ / ٢٤٨.
(٤) خريدة القصر ٣ / ٥٠٧.

ويغشاهم الرعب في ديارهم قبل أن يصلهم جيش المسلمين على الرغم من ادعائهم الشجاعة واكثارهم من القول دون الفعل ، قال التطيلي يصف جبنهم في معرض مدحه لعلي بن يوسف :

يومَ يغشى ديارهمُ قبلـــــــك الرعبُ على نخوةٍ بها واختيالِ
ووراءَ الحصونِ فلٌّ من القـــو م عيالٌ على بقايا العيـــالِ
نافسوا في الحياةِ واستشعروا الذ لَ ولم يحفلوا بهجر المقـالِ (١)

وهم لضعف همتهم وجبنهم يرضون بالذل من أجل السلامة ، وقد اتضح ذلك من خلال محاصرة المسلمين لحصن شنترين (٢) (٥٠٤ هـ) ، قال ابن عبدون يصف ذلهم ويقول : لقد " ضرسهم الحصار .. ونشيهم البوار ، وأحاط بهم البلاء ، واستشاط عليهم بغضب الجبار القضاء ، ولم يكن لليل بأسهم سحر .. ولا لورد ضرائهم صدر .. (ف) اختاروا الدنية على المنية ورضوا بالاستسلام للعبودية واسلام الأهل والذرية" (٣) .

وقد كانت صورة النصارى تظهر بوضوح بعد المعركة ، اذ تتضح نتيجتها وتبدو حالتهم النفسية تجاهها ، وهي غالبا ما تكون سيئة بفعل الهزائم التي تلحق بهم ، كما وصف الأدباء نتيجة المعركة من حيث كثرة قتلاهم وفرار من تكتب له النجاة منهم ، ففي معركة الزلاقة جمع المسلمون رؤوس القتلى من النصارى وأذنوا عليها شكرا لله ، قال ابن القصيرة : " واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي / ١٠٣ .

(٢) شنترين : مدينة كبيرة حصينة من كور باجة ، وهي الى الغرب من قرطبة على نهر تاجة بالقرب من مصبه في المحيط ، معجم البلدان ٣ / ٣٦٧ ؛ وانظر : الروض المعطار / ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٣) المعجب / ٢٣١ .

عليها ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها .. وتمادى الطالب وراء فرارهم، والذي لا مرية فيه أن الناجي منهم قليل والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع .. مقتول " (١).

ومثل هذه الصورة رسمها أبو عامر بن أرقم للنصارى ، فهم قتلى تناثرت رؤوسهم وسالت دماؤهم قد بدت على قائدهم علامات الجبن والخوف ، فبعد أن حضر المعركة مغرورا فرّ منها مهزوما ، قال :

كأنَّ الجماجمَ بذرٌ لهم ... وسقي الذي بذروهُ الدمُ
فقلْ لرئيسهمُ أينَ ما ... حكمتَ لقدْ ساءَ ما تحكمُ
تعاطى الثبوتَ(٢) على زعمهِ ... فلمْ يغنِ عنهُ الذي يزعمُ
ورامَ الفرارَ فلا مجهلٌ ... يفرُّ إليهِ ولا معلمُ
أتى والبنودُ على رأسهِ ... مهانًا وتحسبهُ مكرمُ
يصرصرُ عقبانُها فوقَهُ ... ويصفر من بينها الأرقمُ
وأضحى ومركوبُهُ أبلقٌ ... فأمسى ومركوبُهُ أدهمُ (٣)

ويصور ابن خفاجة أثر فقد الفارس النصراني على قومه وجماعته اذ تبدو عليهم معالم الحزن والفزع ، فتذرف عليه الدموع وتشق عليه الجيوب ، يقول :

فكمْ ممزّقةٍ من جيبها حاسرًا ... قدْ مزّقتْ بعدهُ من جيبها ثكلا
ورقرقَ الدمعُ في أجفانها رشأً ... تمثّلَ السحرُ في أجفانهِ كحلا

---

(١) الذخيرة ق ٢ م١ / ٢٤١ .
(٢) الثبوت : الثبات نفسه . ثبت الشيء يثبت ثباتا وثبوتا ، لسان العرب ٢ / ١٩ .
(٣) الذخيرة ق ٣ م١ / ٤٠٨ .

قدْ بللّتْ نحرَهُ بالدمعِ جادثةٌ نكراءُ تحسنُ عن أعطافِهِ الكسلا
يفتّن عقدَ لآليهِ وأدمعُهُ في نحرِهِ فتراهُ حاليًا عاطلا (١)

وقد اهتم الشعراء بجانب آخر من صورة النصارى ، فهم يرضون بالعار ويستسلمون الى الفرار ، فقائدهم يفرّ ناجيا بنفسه بعد أن قاده جبنه الى الهزيمة واسلام جيشه الى الهلاك ، وفي ذلك يقول عبد الجليل ابن وهبون يصف فرار الفونسو السادس بعد معركة الزلاقة :

فإنْ ينجُ اللعينُ فلا كعمرٍ ولكنْ مثلما ينجو اللئامُ
فأينَ العُجْبُ يا أذفونشُ مهلًا تجنبتَ المشيحةَ (٢) يا غلامُ
ستسألكَ النساءُ ولا رجالٌ فتخبرُ ما وراءكَ يا غلامُ
أقمتَ لدى الوغى سوقًا فخذها مناجزةً وهونٌ ما تسامُ
رأيتَ الضربَ تصليبًا فصلّبْ فأنتَ على صليبكَ لا تلامُ
أنامَ رجالكَ الأشقونَ ، كلّا وهلْ يعلو بلا رأسٍ حسامُ؟
رفعنا هامَهمْ في كلِّ جذعٍ كما ارتفعتْ على الأيكِ الحمامُ (٣)

ويحاول ابن وهبون أن يصور ما يشعر به القائد النصراني من الخوف والاضطراب ، فيشبهه بالخفاش : يختبئ نهارا ويسير ليلا ، ويصور نفسيته القلقة المفزعة وخوفه من لحاق المسلمين به ، فيتخذ من دروعه ويولّي متمنيا أن يطول الليل ليطمئن الى النجاة ، يقول :

سيعبدُ بعدها الظلماءَ لمّا أتيحَ لهُ بجانبها اكتتامُ
ولا ينفكُّ كالخفاشِ يخفى إذا لمْ يباشرهُ الظلامُ

(١) ديوان ابن خفاجة / ٢٠٦ .
(٢) المشيحة : الجدّ ، لسان العرب ٣ / ٥٠٠ .
(٣) انظر : الذخيرة ق ٢ م ٢ / ٢٤١ — ٢٤٢ .

نضا أدراعه واجتاب ليلاً ... يود لو أن طول الليل عام
وليس أوان للأيم (١) انسلال ... ولكن في ضمائره احتدام (٢)

ويصور ابن خفاجة هذا القائد مهزوما مضطربا تتجاذبه الأفكار ويحلم بالنجاة في جنح الظلام، يقول :

ولرب صفر الكف خال بالحشى ... ألف بأطوار من الأوطار
قد أسبل الظلماء سترا دونه ... وخلا بأبكار من الأفكار
صاحت به الأيام ترفع صوتها ... فكأنما نادته خلف جدار (٣)

وقد صور الأدباء هزيمة الفونسو السادس في معركة الزلاقة، فأشاروا الى ما أصابه من العجز اذ لم يستطع الصمود أمام جيش المسلمين، ولم يتمكن من التخلص الا بالاحتيال، حيث هرب " الى جبل شاهق .. ونظر النهب والنار في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرهما شزرا .. ولا يستطيع عنهما دفعا ولا لهما نصرا " (٤) " فلما جن عليه الليل وأمن من أن تتبعه الخيل انسل انسلال الأرنب أمام ذي المخلب " (٥) و " تسنم قنن الجبال الشاهقة والأوعار الى ان جنه ثوب الظلام فنجا منجى الحارث بن هشام .. ودخل طليطلة .. مع شرذمة من أتباعه قليلة وبقية من طائفة له مخذولة " (٦).

ويرسم ابن الصيرفي للفونسو المحارب صورة مشابهة لصورة الفونسو

---

(١) الأيم : الأفعى ، لسان العرب ١٢/٤١ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م ١/٢٤٧ .
(٣) ديوان ابن خفاجة /٣٨ .
(٤) الانيس المطرب /١٥٠ .
(٥) تاريخ الاندلس /٦٤ .
(٦) الذخيرة ق ٢ م ١/٢٤٦ .

السادس : فقد خلع درعه وانهزم تحت جنح الليل متخفيا عن عيون المسلمين ، يقول :

لقد نجوت طليق الركض من وهن من الاشنق حتى جاءه القدر
خلعت درعاً واعتضت الظلام بها وخاض بحر الوغى مركوبة الغمار (١)

وكان افتقاد النصارى للرحمة — خاصة عند الأذفر — من آكد الصفات التي عرفوا بها ، اذ يحرقون الناس في مدنهم وقد يميتونهم جوعا (٢) ، كما كان التدمير والتخريب الذي ألحقوه بالبلاد الاسلامية (٣) من جوانب صورتهم غير الحضارية التي تدل على قسوتهم وموقفهم المعادي للمسلمين وحضارتهم .

ومع ذلك ، لم تقتصر صورة النصارى على جانب واحد يتصف بالضعف والجبن ، بل انهم كانوا في أحيان كثيرة من القوة والشجاعة بحيث تستعصي مدنهم على المسلمين ، وقد يلحقون الهزيمة بهم ، والادباء بتصويرهم للنصارى بهذه الصورة يشيرون أيضا الى قوة المسلمين ، فهم لا ينتصرون على قوم ضعفاء ، كما أن اظهار النصارى بصورة القوي الشجاع ذو انصاف نابع من الثقة بالنفس ومن الصدق الذي التزموا به . ومن هذه الصور الموسومة بالشجاعة ما ذكره ابن شرف في وصف جيش النصارى في معركة أقليش ، فقد جاءوا " يهطعون الى داعيهم ويهرعون الى ناعيهم في دروع كالبواري ورماح كالصواري ،

---

(١) الاحاطة ٤/٤٠٦ .
(٢) انظر : البيان المغرب ٤/٣١ — ٤٠ .
(٣) قلائد العقيان/٣٠١ ، وانظر : الذخيرة ق ٢ م ٢/٥٥٨ — ٥٥٩ ، وانظر : البيان المغرب ٤/٤٢ ، ٥٢ .

كأنما شجروا باللديد (١) وسجنوا في الحديد .. يتلمظون تلمظ الحيات قد تحالفوا أن لا يتخالفوا وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا الى مقدمتنا وكان هناك القائد أبوعبد الله محمد بن أبي زنغي (٢) مع جماعة فصدمهم العدو بصدور نمرة وقلوب أشرة ، فأنسوا بكلكل وشدوا فما ردّوا وصادروا فما صدروا وتقهقر القائد أبو عبد الله" (٣) ،

ان ابن شرف لم يغمط النصارى شجاعتهم ، فذكر قوتهم ودحرهم لجيش المسلمين وما اتخذوا من عدة الحرب وما اتصفوا به من حسن الاستعداد .

ومثل هذه الصورة التي تتميز بالشجاعة — والاقدام رسمها ابن خفاجة للمقاتل النصراني ،فهو شجاع مقدم يأخذ للحرب أهبتها ، ويزاحم الأقران ويسقطهم في ساحات المعارك ، قال :

فكمْ هناك من ضرغامةٍ سفرتْ	سمرُ العوالي إلى أحشائه رُسُلا
يربى على جمرة الحربِ ملتهباً	تحتَ القتام ويعلو همّةً زحلا
قد كرّ في لأمةٍ خضراءَ تحسبُها	بحراً بلا طمَّ في أعطافه جبلا
وللقنا أعينٌ قدْ حدّقتْ حنقاً	وللظبى ألسنٌ قدْ أفصحتْ جدلا
فزاحمَ النقعَ حتى شدَّ بردتَهُ	وناطحَ الموتَ حتى خرَّ منجدلا
مرسّداً فوقَ نصلِ السيفِ تحسبُه	مستلقياً فوقَ شاطئ جدولٍ ثملا (٤)

ويلاحظ أن الصورة العامة التي رسمها الأدباء للنصارى كانت متصلة بموضوع الجهاد والحرب دون الموضوعات الاخرى ، وقد يرجع ذلك الى

---

(١) اللديد : الروضة الخضراء على جانبي الوادي ،لسان العرب ٣ / ٣٦١ .

(٢) أبوعبد الله محمد بن أبي زنغي : لم أجد له ترجمة فيما وصلنا من المصادر .

(٣) الثغر الاعلى الاندلسي ، ١٢٦ .

(٤) ديوان ابن خفاجة / ٢٠٦ .

اقتصار الاحتكاك بينهم وبين المسلمين على هذا الميدان .

انّ وصف الأدباء للنصارى بمثل هذه الصفات هو في أكثره واقع ملموس ، وقد يكون في قليل منه خيال الأدباء ، وهم برسمهم لصورة النصارى يقدمون جانباً وظيفياً للأدب ، اذ ينبهون المسلمين الى صفات أعدائهم ويدعونهم الى الحذر منهم ، كما انهم يحاولون أن يثيروا الهمم ويقووا العزيمة للتصدى لهم (١) .

وعلى الرغم من تصوير الأدباء للنصارى بهذه الصور الا أنهم لم يلجأوا الى الاسفاف أو الى الشتم والسباب وغير ذلك من أساليب الهجاء المقذع ، واذا كان " أشد الهجاء أعفه .. وما أنشدته العذراء في خدرها (فلم) يقبح بمثلها " (٢) فان وصف الأدباء للنصارى بمثل هذه الصفات - التي يتعلق معظمها بالجانب الحربي - لم يخرج الى حدود الاقذاع أو الافحاش ، بل انهم أنصفوهم عندما نسبوا اليهم بعض الصفات الحميدة كالشجاعة والاقدام والجرأة .

---

(١) صدى الغزو الصليبي / ١٦١ .

(٢) انظر : العمدة ٢ / ١٧٠ - ١٧١ .

الفصـــــل الســـادس

الخصـائص الفنيّــــة لأدب الجهـــاد

الفصل السادس

الخصائص الفنيّة لأدب الجهاد

يرمي هذا الفصل الى تقويم الأداة الفنية التي عبّر بها الأدباء عن مضامين أدبهم ، وقد قسمنا هذا الفصل الى عناوين فرعية تشمل الأقسام المختلفة للدراسة الفنية .

أولا : الشعر :

بناء القصيدة :

عني الشعراء كثيرا بمقدمات قصائدهم ، وذلك لأن المقدمة أول ما يطرق سمع الجمهور من القصيدة ، وهي التي تستميله الى الاصغاء [1] ، وبها يحاول الشاعر تهيئة سامعيه لما سيقوله بعدها .

وقد كانت المقدمات الطللية هي الأكثر شيوعا في قصائد الشعراء القدماء ، فقد كانوا يستميلون بها السامعين لما تحفل به من ذكر الديار [2] واسترجاع الذكريات ، الا أن المقدمة – بشكل عام – لم يعد لها وجود في قصائد الجهاد في هذه الفترة ، اذ أن مثل هذه المقدمات تحتاج الى التأمل والاستحضار الذهني ، وتسبب خروجها على جو القصيدة الجهادية الذي يتسم بالسرعة وشدة الانفعال ، ثم ان هذه المقدمات بعيدة عن موضوع الجهاد وتتصف بالافتعال الذي لا طائل تحته ، ولذلك فقد ابتعد عنها الشعراء .

وبسبب اتصاف شعر الجهاد بالطابع الحربي ، فقد كانت معظم القصائد تبدأ بتقديم تلميحات سريعة تصف عزم القائد وشجاعته

---

(١) الوساطة /٤٨ .
(٢) العمدة ١/٢٦٦ .

أو تصف الجيش وضخامته أو تشير الى ما أصاب المسلمين من الفجيعة بفقد أحد الأبطال ، وقد كانت هذه المقدمات — بشكل عام — مقدمات حربية أو ذات صلة بالحرب : فالتطيلي يبدأ وصفه لمعركة أقليش (٥٠١ هـ) بمدح القائد أبي الطاهر تميم ،واصفا عزمه وقوته ، ومثل هذه المقدمة ذات علاقة بجو الحرب والجهاد ، يقول :

يمينًا أورى إنْ قدحتَ من الزندِ ووجهًا أجدى إنْ قدحتَ من السعدِ
وعزمًا أمضى حينَ يشتجرُ القنا من الأسمرِ العسّالِ والأبيضِ الهندي(١)

فمن المقدمة يبدو جوّ المعركة ،حيث يشيد الشاعر بصفات قائد جيوش المسلمين .

ويبدأ ابن خفاجة قصيدته التي مدح بها أبا اسحاق ابراهيم بن يوسف بتساؤل يرمي به الى تعظيم الممدوح ، يقول :

أرأيتَ أمضى أمْ حسامُك أقاطعُ وترى أبهى أمْ حديثُك أسمعُ (٢)

وقد تبدأ القصيدة بذكر الجيش والدعوة الى مقارعة العدو ، قال ابن الزقاق :

الجيشُ يطوي نصرَهُ الطوانِ فافتحْ بكلِّ مهنّدٍ وسنانِ
واجنبْ إلى الهيجاءِ كلَّ كتيبةٍ واخفضْ إلى الهيجاءِ كلَّ عنانِ(٣)

وقد تبتدىء القصيدة بذكر الحزن والأسى على الشهيد وبالدعوة الى اتخاذ العبرة من الموت الذي يختطف الجمع أفرادا وجماعات ،

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي /٣٨ .
(٢) ديوان ابن خفاجة /٨٧ .
(٣) ديوان ابن الزقاق /٢٦٦ .

يقول ابن الزقاق :

ألا عذلة إنّ الزمانَ خــؤونُ	وإنّ ملمّاتِ الزمانِ فتــونُ
لقدْ آنَ تُجلي الغيابُ عن الحصى	وتُلقى شكوا للمنى ونــونُ
فكمْ قدْ مضتْ من أمّةٍ بعدَ أمّــةٍ	وقرنٍ يليه بعدَ ذاك قــرونُ
فلمْ أرَ إلاّ وافداً قد تحلّلــتْ	عرى رحلِهِ حتى يقالَ ضعيــنُ
ولا فرحًا إلاّ واعقبَ يومـــهُ	من الدهرِ نوحٌ دائمٌ وشجونُ (١)

وقد يشير الشاعر بقصيدته مباشرة ، مثال ذلك ما قاله التطيلــي يمدح علي بن يوسف في أحد جوازاته الى الأندلس حيث يقول :

ألبيعةُ يبشرُ الروضُ الأمــينُ	وذالُ لواءَكَ الفتحُ المبيــنُ
وهزّة رمحِكَ الظافــرُ المواتـــي	ورونقُ سيفِكَ الحقُّ اليقيــنُ
وبعضُ رضاكَ للآجالِ دنيـــا	وشكرٌ نداكَ للآمالِ ديــنُ (٢)

وبدأ ابن الزقاق رثاءه لأرقم بن لبّون مباشرة ودون مقدمـــة — ولا غرابة في ذلك، ففي مثل هذه القصائد يكون الحدث الرئيس فيهـــا طاغيا على غيره من الأحداث الجانبية — باثّاً حزنه متخلا شخصيـــة تحاوره وتلومه — على عادة بعض الشعراء — على تفجعه ، قال :

كذبتْ ظنونُكَ ما العزاءُ جميــلا	أو ما رأيتَ دمَ الهلالِ مالــولا
هذا جوادُ أبي شجاعٍ مقبـــلٌ	أنّ الجوادَ انفضّ عنهُ قتيـــلا
ولطالما لبسَ الدروعَ فلائــلاً	ولطالما جرَّ الرماحَ ذيـــولا
وسرى إلى الغاراتِ وهي كتيبـةٌ	ملءُ الفضاءِ فوارسًا وخيـــولا
واستقبلَ الأمرَ البهيمِ فلمْ يــزلْ	أيامهُ غرراً بهِ وحجـــولا (٣)

---

(١) انظر : ديوان ابن الزقاق /٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٢) ديوان الأعمى التطيلي /٢٨ .

(٣) انظر : ديوان ابن الزقاق /٢٤٢ — ٢٤٣ .

* لقد تخلى الشعراء من المقدمات التقليدية في قصائدهم ، وذلك لانهم لم يروا اليها حاجة ، ولاهتمامهم بالموضوع الرئيس وانفعالهم به ، ولتدفق الحالة الشعورية لديهم ، مما يخلص على أي نوع من أنواع المقدمات الاخرى [1] ، بل اننا أصبحنا نجد مقدمات حربية لقصائد بعيدة عن الحرب كالتهنئة بمولود أو الوصف أو مدح بعض الشخصيات [2] .

* ولم نجد ما يسمى التخلص في قصائد الجهاد ، والسبب هو عدم وجود مقدمات ينتقل منها الشاعر الى الغرض الاصلي . [3]

* أما الخاتمة فهي آخر ما يبقى من القصيدة في الاسماع ، واذا كان أول الشعر (المقدمة) مفتاحا له وجب أن يكون الاخير (الخاتمة) قفلا عليه [4] ، وقد كانت قصائد الجهاد تنتهي — في الغالب — بمدح القادة ، كقول ابن خفاجة عند مدحه لابي اسحاق ابراهيم بن يوسف :

بعثت أيامك التي هي في أيام هذا الدهر غرة في بهيم
علمتنا كيف الطريق إلى المجد فسرنا والحلم بالتعليم [5]

وقوله فيه أيضا :

سفرت بالنجم همته وازدرت بمناه بالديم
أعصمت نفس امرئ علقت منه بالوثقى من العصم

---

(١) للمزيد من النماذج انظر : ديوان ابن خفاجة / ١٠٢ ، ١٠٨ ، وانظر : الاحاطة ٤ / ٤١٠ — ٤١١ ، الحلل الموشية / ١٢٤ .
(٢) انظر : ديوان ابن خفاجة / ١٩٤ — ١٩٧ .
(٣) انظر : العمدة ١ / ٢٣٦ — ٢٣٦ ، وقد كان شعراء العرب يتخلصون ببعض الالفاظ فيقولون مثلا : " دع ذا " و " عد عن ذا " .
(٤) العمدة ١ / ٢٣٦ .
(٥) ديوان الاعمى التطيلي / ١٦٨ .

واستجارتْ من ضيمّه بفناء البيتِ والحرمِ (١)

وقد تنتهي القصيدة بالدعاء للشهيد وذكر حسن جزائه ، قال ابن الزقاق :

فأبشرْ فدارُ الخلدِ منك بموعدٍ وانَّ فيها غبطةٌ ودوامُ
مرَّ الغمامُ على ثراك مصيباً فعلى الغمامِ تحيةٌ وسلامُ (٢)

وقد ينهي الشاعر قصيدته ببيت من الحكمة ذات علاقة بالبطولة والشجاعة قال ابن خفاجة :

وكلُّ حياةٍ إلى منتهى أجلْ ولكلِّ حِمامٍ أجلْ (٣)

ونلاحظ قلة المقطعات في شعر الجهاد حيث كان أكثره قصائد طويلة ، وقد تميزت هذه المقطعات بالوحدة الموضوعية (٤) ؛ وذلك لأنها نفثة شعورية ناتجة عن حالة انفعالية تجاه موضوع من موضوعات الجهاد ، كما تميزت القصائد الطويلة بالوحدة الموضوعية أيضا ، وان تطرقت لموضوعات أخرى فهي ذات علاقة بالموضوع الرئيسي الذي تتناوله القصيدة بشكل خاص أو بموضوعات الجهاد الاخرى بشكل عام (٥) ، ويلاحظ أن هذه الوحدة قد ظهرت واضحة بشكل أكبر في شعر الرثاء ، حتى ان ابن الزقاق قد قصر عدة قصائد على هذا اللون من الشعر (٦) دون أن يتطرق فيها لأي موضوع آخر ، فمن ذلك قصيدته — التي بدأها بمقدمة مناسبة لموضوع الشهادة والاستشهاد — التي يقول فيها :

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٢٧ .
(٢) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٥ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ١٠٥ .
(٤) ديوان ابن الزقاق / ١٢٧ ، وانظر : ديوان ابن خفاجة / ٣٥٤ ، ٢١١ .
(٥) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ٢٨—٣٢ ، ٢٠٠ — ٢٠١ .
(٦) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٤٢ — ٢٤٥ ، ٢٧٦ — ٢٨٠ .

بيني وبين الحادثات خصام فيطا جنته على العلا الأيتام
كسفت هلال سماثها من بعد ما وافاه من كرم الجلال تمام
ورمت قضيب رياضها بتقصف غصناً سقاه من الشباب غمام
فاليوم بستان المكارم ما حل واليوم نور المعلوات ظلام(١)

وعلى الرغم من اتصاف شعر الجهاد بشكل عام بالوحدة الموضوعية الا أن هذا لم يمنع من وجوده جزءاً في قصائد قيلت في غير موضوع الجهاد كالتهنئة أو الشكر أو غيرهما من الموضوعات الأخرى .

الصورة الشعرية :

تستعمل كلمة الصورة للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي ، وقد تقال مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات (٢) ، والصورة هي مجموع الأجزاء والأطار التي تتألف منها الفكرة الشعرية الواحدة (٣) ، وهي التي تجعل القارئ أو السامع يحس بما أراد الشاعر أن يعبر عنه ، وفضلها هو تمكين المعنى من نفس المتلقي ، ويرى الاستاذ أحمد الشايب أن مقياس الصورة هو قدرتها على نقل الفكرة (٤) ، وهذا صحيح الا انه ناقص اذ لابد أن تكون الصورة قادرة على الايحاء فضلا عن قدرتها على نقل الفكرة .

* ويلاحظ أن التصوير الحسي هو السائد في شعر الجهاد ، وهو الذي يراد منه ادراك الموصوف باحدى الحواس كتصوير لمعان السيوف

---

(١) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٦٥ — ٢٦٥ .
(٢) الصورة الأدبية / ٣ .
(٣) قواعد النقد الأدبي / ٥٣ .
(٤) الأسلوب / ٥٢ .

بصفحة الماء وتصوير أسنة الرماح بلهب النار ، وتصوير الجيش بأنه يحجب نور الشمس دلالة على كثرته وكثافته ، وتصوير المعركة بروض مليء بالاشجار والازهار ، وقد أبرز ابن خفاجة ميزة اللون في تصويره للمعركة : فأسنة الرماح زهر أبيض ورأداتها أغصان سوداء والخيول شهباء ملتمعة كالشهب أو شقراء كالجمر تشير النقع بلونه الداكن المعتم ، يقول :

والشهبُ شهبٌ والعجاجةُ سدفةٌ والشقرُ جمرٌ والقتامُ دخانُ
والحربُ روضٌ فيه من خرصانها زهرٌ ومنْ سمر القنا أغصانُ (١)

وقد تكرر لدى الشعراء تشبيه المعركة بعجاجها وغبارها والتماع اسلحتها بليل مظلم تنيره النجوم (٢) .

والصورة الحسية المتركزة على اللون نجدها لدى ابن الزقاق أيضا ، فهو يصور السيف وقد دميت صفحتاه بجدول تحف به شقائق النعمان ، قال :

والسيفُ دامي المضربين كجدولٍ في صفحتيهِ شقائقُ النعمانِ (٣)

ومثل هذه الصورة كثيرا ما ترد في شعر الجهاد (٤) .

ويمزج التطيلي في تصويره للسيف بين اللون والحركة فيجعله نارا لها القدرة على ملاحقة الاعداء وسوقهم الى حتوفهم ، كما يجعلها رداء ملتحمة ، ويتيح الشاعر للمتلقي أن يتخيل صورتها عندما يشبهها بصورة اخرى ممتزجة الالوان تجمع بين الكحل والدمع والاجفان ، قال :

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٣٤٤ .
(٢) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٣١ ، ٢٧١ .
(٣) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٧ .
(٤) قلائد العقيان / ٢٢٨ ، خريدة القصر ٣ / ٥٠٦ .

نارٌ تسوقُ العدى من حيثما حشروا   إلى التراب وهو مأواهم إذا قتلوا
رِداءٌ تضحكُ في الهيجاء عن لمعٍ   كما التقى الدمعُ والأجفانُ والكحلُ (١)

كما شبه ابن خفاجة السيوف بلسان النار ولمح البرق (٢) ، وشبهها ابن الزقاق بالغدران (٣) كما شبهها التطيلي بالمجرة (٤) .

واستخرج ابن خفاجة من فعل السيوف والرماح في الأعداء صورة فنية مرتبطة بالكتابة : فصوّر السيوف تكتب السطور — بضربها الأعداء — والرماح تعجمها ، قال :

تخطّ سطورَ الضربِ يوماً بها الظُّبى   ويعجمُها وخزُ المثقّفةِ السمرِ (٥)

وصوّر ابن خفاجة الرمح فجعله انسانا يلحظ ويرى ويفتك بالابطال ، قال :

يعتمدُ العينَ اعتمادَ الكرى   وينتحي القلبَ انتحاءَ الكمدْ
حيثُ الوغى بحرٌ وبيضُ الظبى   موجٌ وفرسانُ العوالي زبدْ
يضحكُ عن بيضِ حبابٍ طفا   فيه ومن درعِ غديرٍ جمدْ (٦)

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي / ١١٣ .
(٢) ديوان ابن خفاجة / ٢٧١ .
(٣) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٧ .
(٤) ديوان الاعمى التطيلي / ١٠١ .
(٥) ديوان ابن خفاجة / ٢٣ .
(٦) ديوان ابن خفاجة / ١٣٤ .

وصور الشعراء الرماح بصور مختلفة أخرى ،فهي نجوم تضيء ليــــل المعارك ، وهي أدلّة للموت يهتدي بها لأرواح المحاربين (١) ،وهي أيضــا أغصان تتمايل (٢) وأفاع تتلوى (٣) .

وصور ابن الزقاق الدرع فشبهه ببحر يتموّج بفضل حركة الفــارس الذي يرتديه ، قال :

لو كنتَ شاهدَهُ وقدْ شهدَ الوغى   يختالُ في ضافي الحديدِ المسبلِ
لرأيتَ منهُ والحسامُ بكفّــهِ   بحرًا يريقُ دمَ الكماةِ بجدولِ (٤)

وصوره أبو بكر بن بقيّ فشبهه بغدير وشبّه البيض على رؤوس الفرسان بحبب يطفو على وجه الكأس ، قال :

إذا الغديرُ كسا أعطافهمْ حلقًا   طفا من البيضِ في هاماتِهمْ حببُ (٥)

وصوّر ابن الزقاق الدروع بالصورة المعروفة ، فهي غدران تدرّجهــا الرياح ،قال :

والسابغاتُ على الكماةِ كأنّهــا   غدرانُ ماءٍ بالنسيمِ تدرّجُ (٦)

وقد يقلب الشعراء الصورة فيجعلون البحر — وقد التمعت فيــه الشمس وتدرجت صفحته جيشا يلبس الدروع وتلتمع فيه السيوف ، قال ابــن الزقاق :

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي / ١٠٠ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م٢ / ٦٢١ .
(٣) قلائد العقيان / ٢٢٨ ، خريدة القصر ٣ / ٥٠٦ .
(٤) ديوان ابن الزقاق / ٢٤٨ .
(٥) قلائد العقيان / ٢٧٦ .
(٦) ديوان ابن الزقاق / ١٢٠ .

كأنّ البحرَ إذْ طلعتْ ذكـاءٌ ولاحَ بصفحتيهِ منها شعاعُ
جيوشٌ في السوابغِ قد تبدّى لبيضِ الهندِ بينهما التماعُ (١)

ومثل هذا التصوير المقلوب نجده لدى الشاعر نفسه ، فقد شبّه الغدير وقد درجته الرياح وتناثرت فيه الورود بدرع خرّقته الرماح وسالت منه الدماء ، قال :

نثرَ الوردُ في الغديرِ وقدْ درّ جَهُ المهبوبُ نشرَ الرياحِ
مثلَ درعِ الكميِّ مزّقها الطعـ ـنُ فسالتْ به دماءُ الجراحِ (٢)

وشبه الشعراء الفرسان وهم يمتطون خيولهم بأسد تمتطي عقبانا ، تدليلا على شجاعة الفرسان وجرأة خيولهم ، قال أبو بكر بن بقي يصور ذلك :

تلكَ الظباءُ عرابُ الخيلِ دونكُمُ نهدٌ وورد وذيّالٌ ومنجردٌ
من كلِّ سابحةٍ طارتْ بفارسِها كأنّها لقوةٌ في عطفِها أسدُ (٣)

ومثل هذه الصورة رسمها شاعر آخر يصف خيل المسلمين وقد تبعت النصارى اثر هزيمتهم في احدى المعارك سنة (٥٢٦)هـ بقيادة الأمير تاشفين ، قال :

حثّ في اثرِها الأميرُ بعقبا نِ جيادٍ هوتْ بأسدٍ رجالِ (٤)

---

(١) ديوان ابن الزقاق / ١٦٨ .
(٢) ديوان ابن الزقاق / ١٣١ .
(٣) قلائد العقيان / ٢٧٩ .
(٤) البيان المغرب ٤ / ٨٦ .

ويصور ابن خفاجة الجيش وقد اصطف استعدادا للمعركة بسطر كتبت كلماته الخيلُ وأعجمتْ حروفَه أسنةُ الرماح وشكلته ألسنةُ السيوف، قال :

والخيلُ سطرٌ بالأسنةِ معجمٌ وبحمرِ ألسنةِ الظبى مشكولُ (١)

وتبدو لنا الحركة في الصورة التي يرسمها ابن خفاجة للجيش : فيجعله مطرا يمطر الحصن المحاصر غرابا وسهاما ، كما يصوره بطير جارح يضم جناحيه على فريسته حتى تتخالف أضلاعها ، يقول :

وأمطرتَه غيثاً من الغيثِ واكفاً يظاهرُه وبلٌ من النّبلِ يهمعُ
تضمُّ جناحَ الجيشِ حوليه ضمّةً تكادُ بها أضلاعُهُ تتقعقعُ (٢)

ويصّور ابن الزقاق دموع النصرانيات وقد سفحنها على من قتل من رجالهن فيشبهها بالعقود المنتثرة ويقول :

وحكتْ دموعُ الغانياتِ عقودَها لو لمْ يكنْ لعقودِهنّ نظامُ (٣)

كما يشبه ابن وضاح المرسي تفرق خيل المجاهدين عن ابن غانية بالعقد المنتثر ، وهو تشبيه بليغ ساعد في رسم صورة بديعة للممدوح ، قال ابن وضاح :

وقفتَ والخيلُ عقدٌ منك منتثرٌ إلاّ فرائدَ أشياخٍ وشبّانِ (٤)

ويلاحظ أن الصورة الشعرية في شعر الجهاد تتركز في البيت الواحد ، وقد يكون الاهتمام بوحدة البيت والتركيز على جعله مكتفيا

---

(١) ديوان ابن خفاجة / ٢٥٥.
(٢) ديوان ابن خفاجة / ٨٨.
(٣) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٥.
(٤) الروض المعطار / ٤٩.

* بذاته مانعا من اشتراك أبيات القصيدة في رسم صورة شعرية واحدة .

وهناك جانب آخر من الصورة يجب الاشارة اليه وهو العاطفة اذ لا يكفي أن تكون التجربة الشعرية غنية لتكوين الصورة فـ " ليس غناها هو الذي صيّرها الهاما بل لأن هذا الغنى قد أثار احساسا شديدا "(١) عند الشاعر دفعه الى القول وأثار لديه عاطفة قويّة عملت على ايجاد التلاحم بين أجزاء الصورة . ويلاحظ أن العاطفة تضفي طابعها على الصورة وتصبغها بصبغتها ، فالعاطفة الحزينة تساعد على رسم صورة حزينة ، والعاطفة الفرحة تساعد على رسم صورة فرحة ، فتذكر ابن خفاجة لبلده السليب أثار لديه عاطفة الحزن ، وهذه العاطفة طبعت قصيدته بالحزن أيضا ، يقول :

آهٍ من غربةٍ ترقرقُ بثـاً ... آهِ من رحلةٍ تطولُ نواهـا
آهِ من فرقةٍ لغيرِ تـلاقٍ ... آهِ من دارٍ لا يجيبُ صداها (٢)

في حين رسم الشاعر نفسه صورة استرجاع هذا البلد (بلنسية) بصور مليئة بالفرح والسرور ، قال :

الآنَ سحَّ غمامُ النصرِ فانهملا ... وقامَ صغوُ عمودِ الدينِ فاعتدلا
ولاحَ للسعدِ نجمٌ قدْ خوى فهوى ... وكرَّ للنصرِ عصرٌ قدْ مضى فخلا(٣)

وقد يتنقل الشعراء بين عواطف متعددة في قصائدهم(٤) ، اذ لا حدود بين العواطف ، وهذا أمر طبيعي ، فالعواطف من الأمور التي لا يمكن للانسان أن يتحكم بها أو يفصل بينها . الا أنه على الرغم من تعدد العواطف

---

(١) قواعد النقد الأدبي / ٥٠ .
(٢) ديوان ابن خفاجة / ٢٦٥ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ٢١٢ .
(٤) انظر: الحلل الموشية / ١٢٤ — ١٢٩ .

فقد كانت العاطفة الدينية تجمعها بشكل عام[1] . وقد غلب على شعر الجهاد صدق العاطفة وحرارتها — بغض النظر عن المبالغة التي ظهرت في بعض القصائد — وذلك لأن معظم الشعراء كانوا يقولون الشعر دون مطمح مادي وانما بدافع داخلي واستجابة لأحداث الجهاد ، وان كانت استجاباتهم للحدث الواحد متفاوتة لتفاوت القدرة على التأثر .

التأثـر بالتراث :

تأثر أدباء الاندلس بأدباء المشرق وثقافته في مختلف الفترات ، ولم تختلف هذه الفترة عن غيرها من الفترات الأخرى ، فاهتمّ الشعراء بشعر المشرق دراسة واحتذاء ، ورحل العلماء والأدباء اليه ينهلون من علومه وآدابه[2] ، مما حدى بابن بسام الشنتريني الى الشكوى من شدة اهتمام أهل الاندلس بأدب المشرق واهمالهم أدبهم[3] ، قال : "ان أهل هذا الأفق أبوا الاّ متابعة أهل المشرق ، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة[4] حتى لو نعق بتلك الا

---

(١) انظر : ديوان ابن خفاجة / ١٠٢ — ١٠٥ .

(٢) انظر: الصلة ١/ ١٤٣ — ١٤٤ ، ٢/ ٥٥٨ .

(٣) الذخيرة ق ١ م١/ ٣ .

(٤) أبو الخطاب قتادة بن دعامة ابن قتادة بن عزيز بن عمر بن ربيعة السدوسي البصري ، كانت الآراء فيه مختلفة ، فمنهم من قال : انه حاطب ليل ، ومنهم من قال : انه أحفظ أهل زمانه ، روى عن أنس وعن ابن سيرين وعن سعيد بن المسيب وروى عنه أبو حنيفة والأوزاعي ، ت سنة (١١٧) هـ . وكانت ولادته سنة (٦٠) هـ . انظر : تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١ — ٣٥٦ ، وانظر : طبقات الحفاظ/ ٤٧ — ٤٨ .

الآفاق غرابا أو طارَّ بأقصى الشام والعراق ذباب لم يشوا على ذلك صنمسا وتلوا ذلك كتابا محكما "[1]، وابن بسام نفسه — على الرغم من شكسواه هذه — لم يسلم من التقليد ، فهو مقلد لمنهج الثعالبي في "يتيمسة الدهر" ،كما أن قسطا كبيرا من مادة كتابه من أدب المشرق ، وابسن خفاجة يقرّ — كذلك — بتلمذته لشعراء المشرق ، فيقول : انسسه قد فتح عينيه على أشعار الشريف الرضي ومهيار الديلمي وعبد المحسسن الصوري[2] ،فراعه شعرهم واستهوته دارائقهم[3] . وقد كان أدبساء المشرق وشعرائه المثل الاعلى لأدباء الأندلس وشعرائها : فسمّوا ابسن خفاجة صنوبري الاندلس ، المخزومي الأعمى بشار الاندلس[4] وأبسا طالب عبد الجبار متنبي الاندلس . [5]

---

(١) الذخيرة ق ١م١/١٢ .

(٢) أبو محمد عبد المحسن بن محمد أحمد بن غلبون بن غالب الصسوري ، شاعر مجيد ،شعره بديع الالفاظ حسن المعاني ، وهو من أهسل صور مولده ووفاته فيها ، توفي سنة (٤١٩)هـ . انظر : يتيمسة الدهر ١/٢٦٦ — ٣٠٩ ،تتمة اليتيمة ١/٣٥ ، وانظر : وفيسات الاعيان ٣/٢٣٢ — ٢٣٥ ،شذرات الذهب ٣/٢١١ ، وقسد حقق ديوانه مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر ونشرتسه وزارة الاعلام العراقية بجزأين وذلك سنة ١٩٨٠ .

(٣) ديوان ابن خفاجة /٤٦ .

(٤) المغرب في حلى المغرب ١/٢٢٨ .

(٥) المغرب في حلى المغرب ٢/٣٧١ .

وأكثر الشعراء من تضمين (١) قصائدهم الجهادية أشعارا وأبياتا شعرية من شعر شعراء المشرق ، فمن ذلك ما قاله ابن خفاجة ناسجا على منوال قصيدة أبي تمام التي مدح بها أبا سعيد الثغري (٢) التي بدأها ب :

لا أنت أنت ولا الديار ديار خفّ الهوى وتولّت الأوطار (٣)

فأخذ ابن خفاجة صدر هذا البيت وضمنه مقطعة (٤) رثى بها بلنسية عندما أحرقتها جيوش السيد الكمبيطور سنة (٤٩٥) هـ .

وفي ذكره لحادثة سقوط جزيرة ميورقة سنة (٥٠٨) هـ قال أبو الحسين ابن الجد يصف شدة وقع النبأ على نفسه :

تصاممتُ عنها مستريحاً إلى المنى وقلتُ عساها في الأعادي يشربهتانُ
إلى أنْ جلاها الصدقُ عندكِ فهدّني وإنّ قليلاً أنّ تتضعضعَ أركانُ (٥)

وهو متأثر بقصيدة أبي الطيب المتنبي التي يصف فيها حاله اثر سماعه نبأ وفاة أخت سيف الدولة حيث يقول :

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لمْ يدعْ لي صدقُهُ أملاً شرقْتُ بالدمعِ حتى كادَ يشرقُ بي (٦)

---

(١) التضمين : هو ذكر الشاعر للشطر أو البيت من شعر شاعر آخر في قصيدته . العمدة ٢ / ٨٤ .
(٢) أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، طائي من أهل مرو ، كان من قادة حميد الطوسي ، وقد كان مجزلا في العطاء لأبي تمام . أخبار أبي تمام/٢٧٢ .
(٣) ديوان ابي تمام ٢ / ١٦٦ .
(٤) ديوان ابن خفاجة / ٣٥٤ .
(٥) الذخيرة ق ٢ م٢ / ٥٥٩ .
(٦) انظر : ديوان المتنبي / ٨٧ — ٨٨ .

ان اقتداء كثير من الشعراء بأبي تمام وأبي الطيب يعود الى اشتراكهما معهم في الاهتمام بشعر الجهاد ، والى غزارة انتاجهما في هذا الميدان وجودته واعجابهم به ، ثم ان "عنصر الفخامة والضخامة الذي تميز به شعر أبي تمام وأبي الطيب . . وخاصة شعرهما في الحماسة والحرب كان عنصرا يستهوي كل شاعر لا عهد يبحث عن اللفظ المناسب لمادة الحماسة والحرب "(١) .

الا أن تأثر الشعراء لم يقتصر على أبي تمام وأبي الطيب وانما تعداه الى شعراء آخرين ، ومن شواهد ذلك قول ابن خلصة يرثي بلنسية :

لو انّها نطقت قالتْ لقاطنها : بانَ الخليطُ ولمْ يأووا لمنْ تركوا (٢)

فعجز هذا البيت هو صدر البيت الأول من قصيدة لزهير بن أبي سلمى مطلعها :

بانَ الخليطُ ولمْ يأووا لمنْ تركوا وزودوكَ اشتياقاً أيّةً سلكوا (٣)

ولم يقتصر التأثر على تضمين الاشطار والابيات بل وجدناه في معاني بعض الابيات ، قال عبد الجليل بن وهبون يرسم صورة الفونسو السادس وقد انهزم — متخفيا — في معركة الزلاقة :

نجا ادراعه واجتابَ ليلاً يودُّ لو أنَّ طولَ الليلِ عامُ (٤)

وهو قريب من قول أبي العلاء المعري :

---

(١) صدى الغزو الصليبي / ١٩٠ .
(٢) الروض المعطار / ٦٧ .
(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى / ١٦٤ .
(٤) انظر : الذخيرة ق ٢ م١ / ٢٤٧ — ٢٤٨ .

يودُّ أنّ ظلامَ الليلِ دامَ لـــهُ وزيدَ فيهِ سوادُ القلبِ والبصرِ (١)

كما نظم التطيلي قصيدة تأثر فيها بقصيدة أبي العلاء المعـــــــري التي مطلعها :

الا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعــلُ عفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائـــلُ (٢)

فقال التطيلي محاكيا :

خليليَّ مَنْ يجزنْ فانّي جـــازعُ خليليّ مَنْ يذهلْ فانّـيَ ذاهلُ
وفي ذلكَ القبرِ المقدسِ تربـــةٌ عفافٌ واقدامٌ وحـــزمٌ ونائـــلُ (٣)

ويظهر تكلف التطيلي في شعره ، فهو يكرر المعنى الواحد فـــــي شطري البيت الأول ،كما يضمّن قصيدته عجز بيت أبي العلاء .

وقد استحضر بعض الشعراء مواقف مرّ بها شعراء سابقون ، فتأثـروا بها واحتذوها ، فمن ذلك ما استحضره محمد بن سوار الاشبوني مــــــن تجربة أبي فراس الحمداني في أسره ، اذ كرر في قصيدته التي بعث بهـــا من سجنه ــ الى ابي الحسن بن عشرة (٤) ــ يطالب افتداءه من الاســـر ــ ما قاله ابو فراس في احدى قصائده الى سيف الدولة ، والقصيدتان مــــن البحر الطويل ، وكلاهما تبدأن بذكر الهوى والشكوى ، فأبو فراس يشكـــو طول اصطبار سيف الدولة على أسره، يقول :

---

(١) ديوان سقط الزند /١٦ .
(٢) ديوان سقط الزند /٥٦ .
(٣) ديوان الاعمى التطيلـــي /١٤٥ .
(٤) أبو الحسن علي بن قاسم بن عشرة ،فقيه كان عالم أديب بليـــــغ جواد ، كان جده قد ورد على هشـــام المؤيد مجاهدا في جملــــة من أمراء المغرب ، وهو من بني عشرة أعيان مدينة سلا ، بغيـــة الملتمس /٤٢٧ .

أراك عصيّ الدمع شيمتُك الصبـرُ ... أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ؟ (١)

ومحمد بن سوار يشكو طول ليله - في سجون النصارى - إلى ابن عشرة ، اذ لم يعد الليل لديه ليلا عاديا وانما أصبح ليلا بطيئا ثقيلا لما فيه من الاسر والسجن، قال :

وليلٍ كهمّ العاشقين قميصُهُ ... رقبتُ دياجيه ومركبُها وعرُ (٢)

ويرسم محمد بن سوار موقف الاسر بما يشابه موقف الاسر عند أبي فراس مع قليل من الاختلاف : فابن سوّار يذكر احاطة النصارى به ساعة أسره ودنوّ الموت منه وتفضيله له - لو قيّض له - على الاسر، يقول :

وأحدقوا بي والموتُ يكشرُ نابَهُ ... ومنظرُه جهمٌ وناظرُه شزرُ
فأعطيتها وهي الدنيّةُ صاغراً ... وقد كان لي في الموت لو يدّني عذرُ (٣)

بينما يذكر أبو فراس احداق العدو به ومشاورته أصحابه واشارتهم عليه بالفرار وايثاره الردى - لو قيض له أيضا - عليه ، الا أن ذلك لم يتيسّر له فوقع في الاسر ، يقول :

وقالَ أُصيحابي الفرارُ أو الردى ؟ ... فقلتُ : هما أمران أحلاهُما مرُّ
ولكنّني أمضي لما لا يعيبُني ... وحسبُكَ من أمرين خيرُهما الاسرُ (٤)

ويفتخر ابن سوار كأبي فراس بعدم أعدائه يخضّن ثيابه دلالة على

---

(١) ديوان أبي فراس ٢ / ٢٠٩ .
(٢) الذخيرة ق ٢ م٢ / ٨١٥ .
(٣) الذخيرة ق ٢ م٢ / ٨١٦ .
(٤) ديوان أبي فراس ٢ / ٢١٣ .

على شجاعته واقدامه ،وهذا يؤكد تأثره بأبي فراس في قصيدته هذه وان كنا نلاحظ أن نفس الحزن لدى أبي فراس أكثر منه لدى ابن سوار، وقد يكون السبب هو شعور أبي فراس بأنه أمير أسير في حين كان ابن سوار أسيرا عاديا .

ولم يقتصر تأثر شعراء هذه الفترة بمن سبقهم من فحول الشعراء على استيحاء الجو العام واستحضار التجارب وتقليد القافية والموسيقى بل تعداه الى توليد (١) معان جديدة ، فمن ذلك ما قاله أبو محمد عبد الغفور (٢) في الأمير أبي بكر سير وقد عاد من احدى غزواته للنصارى :

سرْ حيثُ شئتَ يحلُّهُ النوّارُ وأراكَ فيهِ مرادكَ المقدارُ
واذا ارتحلتَ فشيعتكَ سلامةٌ وغمامةٌ لا ديمةٌ مدرارُ
تنفي الهجيرَ بظلِّها وتهمُّ بالـ رشِ القتامَ وكيفَ شئتَ تدارُ
وقضى الالهُ بأنْ تعودَ مظفراً وقضتْ بسيفِكَ نحبَها الكفارُ (٣)

فابن عبد الغفور في قصيدته هذه يحتذي احدى قصائد أبي الطيب التي مدح بها سيف الدولة الحمداني والتي يقول فيها :

سرْ حيثُ شئتَ يحلُّهُ النوّارُ واراكَ فيهِ مرادكَ المقدارُ
واذا ارتحلتَ فشيعّتكَ سلامةٌ حيثُ اتجهتَ وديمةٌ مدرارُ (٤)

وهو اضافة الى تضمينه قصيدته ببيت أبي الطيب يصرف البيت الثاني عن معناه الى معنى آخر، وهذا أجود أنواع التضمين (٥) . ويعلق ابن خاقان على أبيات ابن عبد الغفور فيقول : " هذا ما تمناه الولي لا ما

---

(١) التوليد في الشعر هو استخراج الشاعر لمعنى جديد من معنى شاعر آخر، أو أن يزيد عليه ، العمدة ١ / ٢٦٣ .

(٢) أحد كتاب الاندلس المشهورين في هذه الفترة ،نشأ في دولة المعتمد بن عباد ،وقد كان شاعرا كاتبا الا ان الفتح بن خاقان اكثر من ذمه ورماه بالتوعر في الكتابة ولكنه اثنى على نظمه ، انظر: قلائد العقيان / ١٥٦-١٦٢ ، خريدة القصر ٣ / ٤٢٦ وانظر: المغرب في حلى المغرب ١ / ٢٤١-٢٤٢ ، وانظر: نفح الطيب ٣ / ٣٤٥- ٣٤٦ .

(٣) قلائد العقيان / ١٦٢ ،خريدة القصر ٣ / ٤٣٢ ،المغرب في حلى المغرب ١ / ٢٣٧ ،وانظر: نفح الطيب ٣ / ٣٤٥ — ٣٤٦ .

(٤) ديوان المتنبي ٢ / ٨٦ .

(٥) العمدة ٢ / ٨٤ .

تمناه الجعفي فانه قال (يقصد المتنبي) حيث ارتحلت وديمة ، وما تكاد تنفذ معها عزيمة ، واذا سفحت على ذي سفر فما أمراها بأن تصوب عن الظفر ، ونحت بمدرار ، فكان ذلك أبلغ في الاضرار "(١) ، فاستحسان ابن خاقان لهذه الابيات يتركز على المعنى الجديد الذي ولّده ابن عبد الغفور من بيت أبي الطيب المتنبي .

ومن صور تأثرهم بالتراث وتمسكهم به ذكرهم للأحداث الاسلامية الكبرى وربطها بأحداث عصرهم امعانا في اضفاء الطابع الاسلامي على شعرهم(٢) ، ومن ذلك ما قاله ابن أبي الخصال في موقعة كركي :

ابنْ والعبْ بباقي الدهرِ ماضيَهُ فيومُ بدرٍ أقامَ الفيءَ في فدنِ (٣)

ووجدنا في شعر الجهاد ذكراً لاسماء بعض الامكنة في جزيرة العرب(٤) وذكرا لبعض مشاهير الاعلام في المشرق ، قال ابن خفاجة يمدح :

إنْ جادَ جادَ هناك حاتمُ طيء أو صالَ صالَ ربيعةُ بنُ مكدّمِ (٥)(٦)

---

(١) قلائد العقيان / ١٦٢ .
(٢) ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠٥ .
(٣) الاحاطة ٢ / ٣٩٤ .
(٤) ديوان ابن الزقاق / ١١٩ .
(٥) ربيعة بن مكدم بن حرثان من ولد جذل الطعان بن فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، أحد فرسان مضر المعدودين في الجاهلية ، قال عنه عمرو بن معدي كرب : انه أشجع من رأيت ، توفي باثنين وستين عاما ، قبل الهجرة ، سمط اللآلي / ٦١٠ ، تاريخ اليعقوبي ٢ / ٦١ .
(٦) ديوان ابن خفاجة / ٣٧ .

ووردت في شعر الجهاد اشارات لبعض أمثال العرب كقول عبد الجليل بن وهبون يهجو الفونسو السادس ويصف هزيمته في معركة الزلاقة :

ستسألك النساء ولا رجال فتخبر ما وراءك ياعصام(1)

وعجز هذا البيت مثل من أمثال العرب المشهورة هو " ماوراءك ياعصام "(٢) .

وبذلك يظهر لنا تأثر شعراء الاندلس في هذه الفترة بالمشرق وأدبه واتباعهم له ، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه الاتباعية التي برزت لدى كثير من الشعراء كانت اتباعية واعية تدل على ثقافتهم الواسعة وعلى اعجابهم بهذه النماذج الشعرية ، وتدل أيضا على تمسك هؤلاء الشعراء بهذه النماذج واحتذائهم لها ، وهذا جانب من جوانب " الصمود الحضاري أمام التحدي "(٣) الذي يتهدد المسلمين في الاندلس .

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٤٦ ، خريدة القصر ٢ / ١٠٠ .

(٢) مجمع الأمثال ٢ / ٢٨١ ، جمهرة العسكري ٢ / ٢٥٥ ، لسان العرب ١٢ / ٤٠٨ ، والحارث بن عمرو ملك كندة أول من قال هذا القول الذى ذهب مثلا : اذ لمّا سمع بجمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها وذكائها دعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان ، فذهبت الى أبيها ورأتها فرأت منها خلقا وجمالا كبيرين ، فخرجت وهي تقول : ترك الخداع من كشف القناع ثم انطلقت الى الحارث ، فلما رآها قال لها : ماوراءك ياعصام ؟ فقالت له الخبر ، ووصفت له جمال ابنة عوف الشيباني ، مجمع الأمثال ٢ / ٢٨١ .

(٣) صدى الغزو الصليبي / ٢٣٣ .

الأسلــــوب :

يذكر ابن بسام الشنتريني ان الشعراء قد أكثروا من البديـــع وعدّوه " قيّم الأشعار وقوامها وبه يعرف تفاضلها وتباينها "(1) وإذا كان هذا القول وإن انطبق على بعض أغراض الشعر في هذه الفترة فانه لم ينطبق في كثير منه على شعر الجهاد ، اذ ابتعد الشعر - في الغالب - عن التكلف الممقوت ومن تصيّد المحسنات البديعة ، لان جو الحرب والانفعال الشديد به يتنافى مع التكلف والتمحّل ، ومع هذا فلم تعدم بعض أنواع المحسنات التي جاءت عفو الخاطر ، فمن ذلك الجناس ، قال ابن الزقاق يمدح يحيى بن غانية :

يسبيه طارفٌ للسنان وأجـــردٌ ... طِرْفٌ ولا يسبيه طَرْفٌ أدعجُ
والبيضُ تذهلُهُ عن البيضِ الدمى ... حتى لقدْ حسدَ القرابَ الدملجُ (٢)

فجانس الشاعر بين طرف (بفتح الطاء) : طرف العين وطرف (بكسر الطاء) : الكريم من الخيل (٣) ، وبين البيض السيوف والبيض الحسان ، وبذلك فقد وصف الشاعر ممدوحه وأجاد استغلال هذا اللون من المحسنات وأحسن منه " الإفادة مع أنّ الصورة صورة التكرار والاعادة"(٤) .

وجانس عبد الجليل بن وهبون أيضاً في وصفه لهزيمة الفونسو السادس معركة الزلاقة فقال :

لم يهشموا الثغر إذْ عاثت أكفهمُ ... لو يعقلونَ ولكنْ تلكمُ الثغـــرُ

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م١/ ١٦ - ١٧ .
(٢) ديوان ابن الزقاق / ١١٩ .
(٣) انظر : لسان العرب ٩/ ٢١٢ - ٢١٧ .
(٤) أسرار البلاغة / ١٧ .

وليس ما غيّروا إلاّ لأنفسهم كأنما نبّهوا إذ نامت الغِيَرُ (١)

فكان الجناس بين الثغر والثغر، وغيّروا والغير (٢)، ووجدنا كذلك، طباقا (٣) لدى بعض الشعراء، فقد طابق أبو جعفر بن وضاح المرسي في مدحه لابن غانية قائلا :

شمّرت بردَيك لما أسبل الواني وشبّ منك الاعادي نار عيّان
أودى الصميمُ وعاقت عن بقيتهم مقادرٌ أغمدت أسياف شجعان (٤)

فكانت المطابقة بين شمّر وأسبل وأودى بمعنى قتل وعاق بمعنى ترك وأبقى. ونجد الطباق أيضا في مدح محمد بن يوسف للأمير تاشفين بن علي سنة (٥٢٤) هـ اثر مقتل قائد النصارى الملقب بفشتون، قال :

وقد كنتَ بشّرت الأمير بأنها بعيدٌ مسراتٍ تأتي على قرب
فقد أنجز الرحمنُ بالنصر وعده وسهّل أمراً كان في غاية الصعب (٥)

فالطباق في البيت الأول بين بعيد وتجيء على قرب أي قريبة، وفي البيت الثاني بين أنجز ووعد. وطابق أبو عامر بن أرقم في وصفه الفونسو الأول بين مهان ومكرم، قال :

أتى والبنودُ على رأسه مهاناً وتحسبه مكرمُ (٦)

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ١/٥٥٢.
(٢) الغير : أحوال الدهر، لسان العرب ٥/٤٠.
(٣) الطباق وهو جمع الضدين في الكلام أو بيت الشعر، العمدة ٢/٥.
(٤) الروض المعطار /٤٩.
(٥) البيان المغرب ٤/٨١.
(٦) الذخيرة ق ٣ م ١/٤٠٨.

لقد حفل شعر الجهاد بكثير من أمثلة الطباق (١) إلّا أن هــــذه الأمثلة — في أغلبها غير متكلفة .

وكان التقسيم (٢) من المحسنات التي ظهرت في شعر الجهاد ، فمــن ذلك ما قاله عبد الجليل بن وهبون يسخر ، بالفونسو السادس :

أنامَ رجالُكَ الأشقونَ ؟ كــلّا وهلْ يحلو بلا رأسٍ منــامُ ؟ (٣)

وقال ابن عبدون يرثي أبا حفص الهوزني الشهيد بالبيرة سنــة (٥٠٣) هـ فلسفا الحياة وقد أخذته وطأة الحزن :

نغترُّ بالدنيا ويخدعُ بعضُنـا بعضاً بها وجميعُنا مخدوعُ
فسرورُها همٌّ وصفو نعيمِهـا كدرٌ وحبلُ وصالِها مقطوعُ (٤)

فبين الشاعر أن الانسان يغترّ بالحياة الدنيا وما هي الا كدر وهــم وجفاء .

كما كرر الشعراء بعض الكلمات والعبارات في قصائدهم ، وهــي في أغلب الأحيان تؤكد الفكرة العامة للأبيات وتؤكد فيها وحدة الموضــوع ، كما انها تضفي عليها سهولة ووضوحا ، قال ابن الزقاق يرثي أحد الشهداء :

كذا يُكسفُ البدرُ المنيرُ متممــاً كذا يعقبُ الصبحَ المنيرَ دجـونُ
كذا يستضامُ المجدُ وهو مؤثّــلٌ كذا يستخفُّ الطودُ وهو رصيــنُ

---

(١) انظر مثلا : الذخيرة ق ٢ م١ / ٢٥٧ ، البيان المغرب ٤ / ٨٩ .
(٢) التقسيم : هو أن يبتدئ الشاعر فيضع أقساما فيستوفيها ولا يغــادر قسما منها ، أي أن الشاعر يستقصي جميع الاقسام المحتملة لمــا ابتدأ به ، نقد الشعر / ١٤٩ ، العمدة ٢ / ٢٠ .
(٣) الذخيرة ق ٢ م١ / ٢٤٧ .
(٤) الذخيرة ق ٢ م٢ / ٧٨٢ .

كذا يذهب الجود الحلال وترتمي نوىً بالسجايا الطاهرات شطونُ
كأن لم تكن تلك الصوارم والقنا بأعتق يوم الهياج تدينُ
كأن لم يكن للدهر عنك مضنّة تحلّى به أيامه فتزينُ
كأن لم يكن في رمحه وسنانه منايا العدى تدنو به وتحينُ (١)

ان مثل هذا التكرار تطبيه العاطفة المتأججة والشعور الثائر ، ونجد أمثلة أخرى لهذا التكرار لدى ابن خفاجة (٢) وابن الزقاق (٣) .

ونلاحظ صفة المبالغة في بعض شعر الجهاد ، وذلك لمناسبة هذه الصفة لمثل هذا الغرض الشعري . والمبالغة نوعان : الأولى سببها للافتعال والاخرى سببها الانفعال ، فالاولى هي غلو افتراضي ألفه الشاعر بوعي تام ، وهذا ما لم نجده في شعر الجهاد ، أما الاخرى فهي بتأثير الانفعال الصادق ، وهي تجسيد لنشوة النفس وطربها أمام مشهد البطولة والانتصار . ومن هذا النوع من المبالغة ما قاله ابن أبي الخصال يخاطب تاشفين بن علي ويصف النصارى وقد حاقت بهم الهزيمة في موقعة كركي : فصور رماحهم لاتقتصر على الطعن وسيوفهم لا تستطيع القطع لكلا لبها ونبوها ، ثم صورهم قتلى أتخمت الطير والوحوش مما أكلت من لحومهم حتى لم تستطع حراكا ، قال :

فطاعنوكم بأرماح وما طعنت وضاربوكم بأسياف ولم تصل
تعجّل النصر فيهم قبل موسمه وقدّم الهدي منهم كلّ ذي نسك
فالطير عاتقة والوحش واقفة قد اثقلتها لحوم القوم عن حراك (٤)

---

(١) انظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٢) ديوان ابن خفاجة / ٢٦٥ .
(٣) ديوان ابن الزقاق / ٢٦٣ .
(٤) الاحاطة ٢ / ٣٦٣ .

ويلاحظ ان هذه المبالغة ليست مبالغة مفتعلة وانما هي مبالغة مقبولة سببها انفعال شديد وشعور صادق بالنصر أحس به الشاعر .

الألفاظ :

لقد استمد شعر الجهاد بعض ألفاظه من القرآن الكريم ، فكان القرآن مصدرا تأثر به شعراء هذه الفترة : فمن ذلك ما قاله أبو محمد ابن عبد الغفور مشبها خيل الجهاد الضامرة بالعرجون ، قال :

وشنّ غاراتِها عليهمْ مثلَ العراجينِ في ضمورِ(١)

وهذا مستمد من قوله تعالى : " والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم "(٢) واقتبس ابن خفاجة من القرآن الكريم في وصفه لقائد النصارى المنهزم عندما قال :

قدْ أسبلَ الظلماءَ ستراً دونه وخلا بأبكار من الافكارِ
صاحتْ به الايامُ ترفعُ صوتَها فكأنّما نادتْهُ خلفَ جدارِ(٣)

فالبيت الثاني مقتبس من قوله تعالى : " انّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون "(٤) .

وقد كانت الألفاظ اللغويّة في قصائد الجهاد دالة معبّرة عن المواقف الحربية ، وقد أكثر الشعراء من ذكر الفاظ الجهاد : فذكروا الاسلحة ومرادفاتها وأوصافها ، فذكر السيف يلازمه ذكر مفردات متعددة كالدم والحلق والهام والخضب والظافر والنصر والهند

---

(١) خريدة القصر ٣ / ٤٣١ .
(٢) سورة يس آية ٣٦ .
(٣) ديوان ابن خفاجة / ٣٨ .
(٤) سورة الحجرات آية ٤ .

والبيض والبرق والتأجج والنصل والصماد ولسان النار والمجرّة(١) وغيرها ، والرماح يتبعها ذكر مفردات أخرى ذات صلة بها كالذوابل والنار والمصابيح والسرج والنجوم والكواكب والقدح والقنا والسمهرية والطعن والنصل والصل (٢) وغيرها ، والدروع يتبعها ذكر الحديد والغدران والبطاح ونسج الحديد والغلائل وصفحة البحر(٣) ، ويقترن ذكر الخيل بمفردات عديدة كالسوابق والجرد والضامرة والقب والعتاق والبلق وآرام الضريمة(٤) ، ويتبع لفظة النصارى ألفاظ أخرى كالعلوج وعلوج الروم والاعداء وبني الاصفر والكفرة والمشركين والنكوص والادبار والرعب والانثناء والمطل والخوف والجبن والغدر (٥) .

ويلاحظ أن شعر الجهاد يتصف ببساطة ألفاظه وبعدها عن التكلف ، ويظهر ذلك جليا في المقطعات(٦) ، وذلك أنّ هذا الشعر

---

(١) انظر: ديوان الاعمى التطيلي / ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٢٤ ، وانظر: ديوان ابن خفاجة / ١٠٤ ، ١٠٩ ، ٢٥٢ ، ٢٧١ ، وانظر : ديوان ابن الزقاق / ١١٨ — ١١٩ .

(٢) انظر: ديوان الاعمى التطيلي / ١٠١ ، ٢٥٢ ، ديوان ابن خفاجة / ١٠٢ ، وانظر: ديوان ابن الزقاق / ١٢٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٤٢ .

(٣) انظر : ديوان ابن الزقاق / ١٦٢ ، ٢٤٢ .

(٤) ديوان الاعمى التطيلي / ٢٠٠ ، وانظر : ديوان ابن خفاجة / ٨٩ ، ٢٠٨ ، وانظر : ديوان ابن الزقاق / ١٦٢ ، ١٧٥ .

(٥) انظر : ديوان الاعمى التطيلي / ١١٤ — ١١٦ ، ٢٠٢ — ٢٠٤ ، ٢٥٢ ، وانظر : ديوان ابن خفاجة / ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ — ١٠٤ ، ٢٠٨ — ٢٠٩ ، وانظر : ديوان ابن الزقاق / ٢٤٢ — ٢٤٤ .

(٦) انظر : ديوان ابن خفاجة / ٢٧٠ ، ٢٧١ ، وانظر : ديوان ابن الزقاق / ١٧٥ ، ٢٥٨ .

– في أغلبه – ردّة فعل لمواقف الجهاد تبتعد عن التمطي والتكلف ، ثم أن هذا الشعر موجّه الى جمهور المسلمين ، وعليه وجب ان يتجنب التعقيد والتوعر . وقد أتاحت هذه البساطة الفرصة لاظهار الانفعال الشديد والعاطفة التي كان الشعراء يحسون بها × ومع ذلك فهذا لم يمنع وجود بعض القصائد التي اتسمت بصعوبة ألفاظها خاصة لدى الشاعر التطيلي [1] والكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال [2] .

× كما وردت في شعر الجهاد بعض الالفاظ الأجنبية كذكر بعض أسماء قادة النصارى ومدنهم [3] .

لقد اهتم النقاد العرب منذ القديم بمسألة اللفظ ، بل قدمه بعضهم على المعنى ، وفي ذلك يقول الجاحظ : " اعلم .. أنّ حكم المعاني خلاف حكم الالفاظ ، لان المعاني مبسوطة الى غير غاية وممتدة الى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة " [4] ، وأكد أبو هلال العسكري ما ذهب اليه الجاحظ من تفضيل اللفظ وتقديمه فقال : " وليس الشأن في ايراد المعاني لأنّ المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وانما هو في جودة اللفظ " [5] ، ونحن وان كنا نوافق الجاحظ وأبي هلال فيما ذهبا اليه من العناية باللفظ الا اننا لا نوافقهما في كون المعاني مبذولة في الطريق رخيصة في متناول الجميع ؛ فالفن

---

(١) انظر : ديوان الاعمى التطيلي /١٤٧ — ١٦٠ .
(٢) انظر : الاحاطة ٢ /٣٩٣ — ٣٩٤ .
(٣) الذخيرة ق٢م١ /٢٤٧ ، وانظر : البيان المغرب ٤ /٣٥ ، ٨١ ، وانظر : ديوان ابن خفاجة /١٠٣ — ١٠٤ .
(٤) البيان والتبيين ١ /٧٦ .
(٥) انظر : كتاب الصناعتين /٥٧ — ٥٨ .

الأصيل يوائم بين اللفظ والمعنى والشكل والمضمون ، وقد تنبه شعراء الجهاد لذلك ، فكانت ألفاظ قصائدهم منسجمة مع معانيها دالة عليها .

وقد كان للألفاظ أثر كبير في احداث الموسيقى الداخلية في الشعر ، وذلك من خلال الأصوات التي تتكون منها ، اذ أن " الصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف "(١) والاهتمام باللفظة الشعرية يعني الاهتمام بالموسيقى الذي تحدثه هذه اللفظة بنفسها ومن مجاوراتها من الألفاظ ، وهذا يؤثر في معنى القصيدة " الذي يثيره بناء الكلمات كأصوات اكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان "(٢) اذ أن تأثير الكلمة في النفس لا يتأتى بفضيلة المعنى بقدر ما يأتي من الطاقة الايحائية التي تنطوي عليها اللفظة في جرس حروفها وأنغامها ، وهو ما يخلق الموسيقى الداخلية للقصيدة ، وخير مثال على ذلك قصيدة ابن الصيرفي التي قالها في تاشفين وقد ثبت للنصارى عندما ولّى جيشه عنه وذلك سنة (٥٢٨ هـ) :

يا أيها الملأُ الذي يتقنّعُ	مَنْ منكمُ البطلُ الهمامُ الأروعُ
ومَن الذي غدرَ العدوُّ به دجىً	فانفضَّ كلٌّ وهو لا يتزعزعُ
تمضي الفوارسُ في الطعان ويصمدُ ما	عنه ويدعوها الوفاءُ فترجعُ
والليلُ مِنْ وقعِ السنابكِ بينهمْ	صبحٌ على هامِ الكماةِ ملمّعُ(٣)

وهكذا تمضي القصيدة متساوقة الألفاظ منسجمة الأصوات ، ذات موسيقى داخلية موحية ، فالصوت المجهور لحرف العين(٤) داخل الأبيات وفي

---

(١) البيان والتبيين ١/٧٩ .
(٢) الشعر والتجربة/ ٢٣ .
(٣) الاحاطة ٤/٤١١ ، الحلل الموشية / ١٢٤ .
(٤) لسان العرب ١٣/٣٠٨ .

قافيتها أضفى على القصيدة جوّا من أجواء الحرب وقرع الأسلحة . وبذلك فقد كانت موسيقى هذه القصيدة مؤثّرة بحيث زادت من معناها وإيحائها .

ونجد الموسيقى الداخلية في قصيدة لابن سارة الشنتريني (٥٠٠ هـ) قالها في أبي يحيى بن ابراهيم وقد قدم واليا على غرناطة (١)، ففي هذه القصيدة تتداخل الاصوات بعضها بالبعض الآخر وتتناوب فيها حروف قريبة المخارج كالراء والسين والشين والصاد والضاد ، فتزداد الموسيقى الداخلية وضوحا وانسيابا :

اليومَ أخمدَ حر الضلالةُ نارها	فاسترجعتْ دارُ الهدى وعمّارَها
واستقبلتْ حدرُ الورى غرناطةً	وهي الحديقةُ فوّقتْ أزهارَها
وكأنّ تشريناً بها نيسانُهُ	يكسو رباها: وردَها وبهارَها
في غبّ سارية ترقرقُ أدمعاً	يحكي الجمانُ صغارَها وكبارَها
ماشئتَ من نهر كصدر عقيلة	شقتْ أناملُها عليه صدارَها
أو جدول كالنصلِ في يدِ ثائر	أمهى (٢) صفيحتَهُ وهزّ غرارَها (٣)

ومن احصائنا لبحور الشعر تبيّن أن شعر الجهاد قد تركز في البحور الطويلة ، فكان البحر الطويل اكثر البحور التي نظم عليها الشعراء يليه البحر الكامل ثم البحر البسيط ،في حين وردت البحور الاخرى أقلّ استعمالا . وقد يكون سبب اكثار الشعراء من استعمال البحور الطويلة هو قدرة استيعابها للفخر والحماسة . ومن الملاحظ أن بحر الرجز كان قليل الاستعمال في شعر الجهاد على الرغم من سهولة القول فيه ،فلم يرد عليه الاّ قصيدتين ،واحدة للتطيلي (٤) والاخرى لأبي طالب عبد الجبار المعروف بمتنبي الأندلس(٥) .

---

(١) خريدة القصر ٢/ ٣٢٥ .
(٢) أمهى : أحدّ ، والمهي ترقيق الشفرة ،لسان العرب ١٥/ ٢٦٨ .
(٣) انظر: قلائد العقيان/ ٢٦٣—٢٦٤ ، وانظر: خريدة القصر٢/ ٣٢٥-٣٢٧ .
(٤) انظر: ديوان الاعمى التطيلي / ١٤٧ — ١٦٠ .
(٥) الذخيرة ق ١ م٢/ ٦٤٤ .

ثانيا : النثـــــر :

حظي النثر بعناية الأدباء ومؤرخي الأدب في هذه الفترة ، حتـــى أن أبا عبد الله بن أبي الخصال - وهو الكاتب المشهور - قد تهيّـــب ارسال شيء من نثره الى ابن بسام الشنتريني ليضمّنه كتاب الذخيـــرة (١) ، وقد كان الأدباء شديدي العناية بالنثر عامة وبالرسائل وأساليبها خاصـــة ، اذ كان أهل الأندلس كثيري الانتقاد لأساليب الكتاب في رسائلهـــم (٢) ، وقد ظهر ان أغلب رسائل الجهاد اما صادرة عن ديوان أمير المسلميـــن في مراكش أو واردة اليه والى ديوان واليه وقادته في الأندلس ، وفـــي كلتا الحالتين كان كتاب الرسائل من كبار الأدباء والفقهاء والعلماء ، وبذلـــك فقد توافر للرسائل عاملان مهمان ساعدا على ازدهارها والعناية بهـــا ، العامل الأول : توفر القدرة على الإنشاء لدى هؤلاء الكتاب ، والعامـــل الثاني : اهتمام الكتاب بتمحيص رسائلهم ، اذ لا يكاد الناس يغفلـــون عن عثرات الكتاب لحظة (٣) ، وقد يكون هذا الأمر سببا من أسبـــاب تهيب ابن أبي الخصال الكتابة لابن بسام .

البنـــاء الفنـــي :

لقد أخذت الرسائل - في بنائها - شكلا جديدا يختلف في بعـــض جزئياته عمّا ألفناه في الرسائل التي كانت تبدأ في الغالب بالبسملـــة والتحميد ، فصارت تبدأ بالدعاء للمرسل اليه ، وقد أشار الكلاعـــي - وهو معاصر لهذه الفترة - الى هذه الطريقة من التقديم (٤) فمـــن

---

(١) انظر : الذخيرة ق ٣ م ٢/ ٧٨٨ - ٧٩٠ .
(٢) نفح الطيب ١/ ٢١١ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) انظر : احكام صنعة الكلام / ٥٨ - ٥٩ .

ذلك ما كتبه ابن شرف على لسان أبي الطاهر تميم بعد انتصاره في أقليش، اذ قدم رسالته بالدعاء لأمير المسلمين علي بن يوسف قائلا : " أدام الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين، عماد الأنام، وعتاد الاسلام، السعيد الأيام، الحميد المقام، كبيري بالقدر، ظهيري على الدهر، الذي أجله بحقه، وأقر له بسبقه، وأدام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة، مديد النمو والزيادة "(١)، فالمقدمة هي دعاء للمرسل اليه . وقد لاحظنا أن معظم هذه المقدمات تتصف بالاسهاب والتطويل كما هو في النموذج السابق، ويتأكد ذلك في نماذج أخرى كثيرة، فمن ذلك مقدمة رسالة كتبها الفقيه الكاتب عبد الحق بن عطيّة الى ابن خلف(٢)، وكان قد أرسلها اليه من بلنسية قاصدا سرقسطة في جيوش الجهاد، قال : " أستوهب الله للفقيه الأجل قاضي الجماعة، سيدي وعمادي، شمول نعمه وأياديه، واتصال روايح عز الطاعة وغواديه، واتصال خواتم الطاعة بمباديه، والتئام عوالم السعد بهواديه، ولا زال ضهل سحاب العدل، ممتد أطناب الظل، مخضر جوانب الفضل، لا يقرع باب أمل الا ولجه، ولا يعن لما تكره النفوس من أمر الا فرّجه "(٣).

وقد يعقب الكاتب دعاءه للمرسل اليه بالتحميد والصلاة على النبي(٤) صلى الله عليه وسلم . وقد لا نجد للرسالة مقدمة أو تحميدا خاصة عند المراسلة بين المسلمين والنصارى(٥) وانما تقتصر على عبارة من فلان الى فلان .

---

(١) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٢ .

(٢) أبو سعيد خلوف بن خلف، كان قاضيا للجماعة في الاندلس، قلائد العقيان / ٢١٤ .

(٣) قلائد العقيان / ٢١٤، وللمزيد من النماذج ارجع الى : قلائد العقيان / ٢١١، المعجب / ٢٢٩ .

(٤) المعجب / ٢٢٩ .

(٥) انظر : الحلل الموشية / ٣٦ — ٤٣ .

ويختم الكتاب رسائلهم — في الغالب — بتأكيد الدعاء للمرسل اليه (١) أو بالشكر لله وحمده (٢) أو بتذييل الرسالة بعبارة "والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" (٣) .

أما التخلص من المقدمات الى الغرض فيجعله الكلاعي على الوجهين : الاول هو ابتداء الخطاب (٤) ، أي أن يبدأ الكاتب بذكر مفردات أو عبارات تدل على ابتدائه بالخطاب ، كقول عبد الحق بن عطية : "كتبته — ادام الله بالطاعة عزّك — من حضرة بلنسية — حرسها الله — يوم كذا من شهر كذا" (٥) ، والثاني هو ردّ الجواب (٦) ، أي أن يذكر الكاتب انه يرد على كتاب المرسل اليه ، فمن ذلك قول أبي عبد الله بن أبي الخصال : "وصل من السيّد المسترق والمالك المستحق — وصل الله أنعامه لديه — كتابه البليغ" (٧) ، وقد يداخل الكاتب بين ابتداء الخطاب ورد الجواب كقول أبي مروان بن أبي الخصال — على لسان أمير المسلمين علي بن يوسف — الى قائد جند المرابطين في القلاعة : "كتابنا — وفّق الله رأيك وحسّن هديك — من حضرة مراكش . . وقبله وافى كتابك تذكر فيه الميلة التي كانت للعدو عليك" (٨) .

---

(١) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٤٠ .
(٢) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣١ ، خريدة القصر ٣ / ٤٣٢ .
(٣) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٧ .
(٤) احكام صنعة الكلام / ٦٦ .
(٥) قلائد العقيان / ٢١٤ .
(٦) احكام صنعة الكلام / ٦٦ .
(٧) انظر : الذخيرة ق ٣ م ٢ / ٧٠١ — ٧٦٢ .
(٨) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٦ .

وقد يحدد الكاتب تاريخ كتابته لرسالته فيقول : كتبت في يوم كذا أو وافق كتابنا يوم كذا ، فمن ذلك ما كتبه ابن القصيرة مخبرا بنصر الزلاقة قائلا : " كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب وقد أعز الله الدين وأظهر المسلمين "(١) . ومن ذلك أيضا ما كتبه ابن عباد مخبرا بالنصر ذاته " كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفي ٢٠ من رجب وقد أعز الله الدين .. وفتح لهم الفتح المبين "(٢) ومثل هذا التحديد نجده في رسائل أخرى(٣) . وقد لا نجد التحديد في بعض الرسائل ، مثال ذلك ، ما قاله أبو عبد الرحمن بن طاهر مخبرا بسقوط بلنسية حيث اكتفى بتحديد غير كاف للوقت الذي كتب فيه رسالته ، قال : " كتبت منتصف صفر وقد حصلنا في قبضة الأسر " (٤) ومثال آخر من التحديد التقريبي نجده لدى الكاتب نفسه في رسالة أخرى يخبر فيها برجوع بلنسية " كتبت منتصف الشهر المبارك وقد وافى بدخول بلنسية — جبرها الله — الفتح بعد ما غامرها القبح "(٥) .

ونلاحظ كثرة الجمل المعترضة والدعائية في رسائل الجهاد ، ونقصد بالجمل الدعائية الجمل والعبارات التي تعبر من التمنايـم لله سبحانه أو المتضمنة دعاء للمرسل اليه بالعز والسعادة وامتداد السلطان وطول الأجل والتوفيق ، أو التي تدعو الله أن يحفظ المدن الاسلامية ويصونها من الأعداء أو تدعو على العدو بالهزيمة والفناء وغير ذلك من الجمل الدعائية .

---

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ / ٢٤١ .
(٢) نفح الطيب ٤ / ٣٦٩ .
(٣) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٦ ، ١٤٢ .
(٤) الذخيرة ق ٣ م ١ / ٩١ .
(٥) الذخيرة ق ٣ م ١ / ١٠١ .

وقد تكون هذه الجمل دليلا على الرغبة والرهبة وتأكيدا للطاعة عندما تكون هذه الرسائل موجهة من الكاتب الى من هو أعلى منه رتبة ، وقد ترمي الى استمالة المخاطب عندما تكون موجهة ممن هو أعلى الى من هو دونه ، وقد تدل أيضا على موقف الكاتب وعلى نوع العاطفة التي يحسها تجاه المخاطب الذي يكتب اليه أو تجاه الموضوع الذي يكتب فيه أو يعرض له في رسالته ، فعندما يمرّ الكاتب على ذكر العدو يقول مثلا : وقصه الله ، أو هزمه الله وأخزاه ، وعندما يذكر مدينة اسلامية يقول : حرسها الله وصانها ، وهذه مواقف يعبّر عنها الكاتب كلما واتته الفرصة .

وقد كان الكتاب يوردون الشعر في رسائلهم وذلك حسب ما يقتضيه حال الخطاب ، فيأتون به للتدليل على ما يسوقونه من معان أو للتأكيد على ما يبسطونه من أفكار ، وقد جعل الكلاعي هذه الميزة مختصة بالكتاب المبدعين اذ "كان المجيد (منهم) كثيرا ما يضمّن رسائله أشعاره وأشعار غيره "(1) ، وهذا الجمع بين النثر والشعر هو تدليل من الكاتب على قدرته على الجمع بين الفنين ، ومحاولة منه لجلب انتباه القارئ ودفع السأم عنه . وهناك ميزة أخرى تبرر ايراد الشعر في الرسائل وهي قدرة الشعر على تكثيف العاطفة وتركيزها ، فايراده في الرسائل هو اغناء لها بالعاطفة التي يتلاشى قدر كبير منها بفعل التفصيل والتأليف المنطقي .

كما أن للشعر قدرة على تكثيف المعنى وتركيزه في جمل قليلة قد تغني عن تفصيل النثر ، فرسالة ثابت بن عبد الله (2) التي أرسلها

---

(1) احكام صنعة الكلام / ٦٢ .

(2) انظر: الثغر الاعلى الاندلسي /١٣٦ – ١٣٧ .

الى أبي الطاهر تميم - وقد تراجعت جيوشه من سرقسطة - تتركز في معنى واحد هو تحذيره من عاقبة التراجع عن انجاد مسلمي سرقسطة المهددين بالنصارى ، فساق ذلك بتفصيلات توحي بما سيلاقيه المسلمون من سوء المنقلب اذا لم ينجدهم ، وذكّره بمكانه من المسلمين فهو ملاذهم بعد الله ، وذكّره بما ستلاقيه مدن الاندلس الاخرى ان سقطت هذه المدينة ، ثم لخّص تحذيره وركّزه ببيت من الشعر ، فقال له : " ولا تكن كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثمّ لا يرزأُ العدوَّ فتيلا " (١)

وضمّن أبو مروان بن أبي الخصال رسالته الى جيوش المرابطين المنهزمة في القلّاعة أبياتا تلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص ، فالرسالة رسالة تبكيت وتقريع ، والابيات في الموضوع نفسه ، فكان تضمينه مناسبا ومنسجما من الغرض ، قال :

إلا مَ يزيفكمُ الناقدُ يردكم الفارسُ الواحدُ (٢)
ألا هلْ أتاها على نأيها بما فضحتْ قومَها غامدُ (٣)
تمنيتمُ مائتي فارسٍ فردّكمُ فارسٌ واحدُ
فليتَ لكمْ بارتباطِ الخيولِ ضأناً لها حالبٌ قاعدُ (٤)

وأورد الكتاب كثيرا من الابيات الشعرية منثورة في رسائل الجهاد ، فصورة الثبات في المعركة أو الفرار منها اقترنت كثيرا بهجاء

---

(١) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٥ ، والبيت للنابغة ، ديوان النابغة / ٢٠٨ .
(٢) ورد هذا البيت والذي يليه منثورين في رسالة ابي مروان الى الجيوش المنهزمة في القلّاعة ، المعجب / ٢٤٠ .
(٣) ورد هذا البيت في لسان العرب ٣ / ٣٢٧ .
(٤) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين / ١١٧ .

حسان بن ثابت للحارث بن هشام (1) : فمحمد بن مزدلي عندما يثبت للعدو يكون قد "آثر المنية .. وجرع الحمام ولا النجاة برأس طمرة ولجام (2) ، في حين ينجو الفونسو السادس "منجى الحارث ابن هشام برأس طمرّة ولجام (3)" ، وفي كلتا الحالتين الاشارة الى بيتي حسان ابن ثابت في هجاء الحارث — وقد فرّ من معركة بدر (4) — والذي يقول فيهما :

إنْ كنتِ كاذبةَ الذي حدثتنا فنجوتِ منجى الحارثِ بنِ هشامِ
ترك الأحبةَ أنْ يقاتلَ دونَهُمْ ونجا برأسِ طمرّةٍ ولجامِ (5)

ونشر الكاتب الفقيه عبد الحق بن عطية شعرا ضمّنه احدى رسائله الى عبد الله بن مزدلي يصف فيه شجاعة أخيه الشهيد محمد بن مزدلي قائلا : " وهبّ من سيفه مولى نصره لا يجارد "(6) (7) وهذا نشر لعجز بيت العباس بن مرداس السلمي الذي يقول فيه :

---

(1) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي ، شهد بدرا كافرا ، وقتل أخوه فيها ، وقد فر الحارث من المعركة فعيّره حسان بن ثابت بذلك ، الاستيعاب ١/٣٠٧ .

(2) خريدة القصر ٣/٤٩٤ .

(3) الذخيرة ق ٢ م١/٢٤٦ .

(4) عيون الاخبار ١/١٦٦ ، الاستيعاب ١/٣٠٧ ، أسد الغابة ١/٣٥١ .

(5) ديوان حسان بن ثابت /١٠٨ .

(6) أثبت محقق خريدة القصر (قسم المغرب والاندلس) هذه العبارة خطأ على النحو التالي : " وهبّ من سيفه مولى نصله لا يجارد " خريدة القصر ٣/٤٩٤ ، وغفل المنقحون كذلك عن هذا الخطأ الواضح الذي تنفيه القراءة الصحيحة لبيت العباس بن مرداس ، والصواب ما أثبتناه .

(7) خريدة القصر ٣/٤٩٤ .

فحاربْ فإنّ مولاكَ حاردَ (١) نصرُهُ ففي السيفِ مولى نصرُهُ لا يحاردُ (٢)

وهناك نصوص أخرى مشابهة لمثل ما أوردناه .(٣)

وكما ضمّن الكتاب الشعر في رسائلهم فقد ضمنوها الأمثـــال وأخبار السابقين ،قال عبد الحق بن عطية يعزى عبد الله بن مزدلي : " فالعيش طورا شماس وطورا غرّة ، والدنيا ان اخضرّ منها جانب ، فأنـــت ـ أعلى الله يده ـ أثقف قناة وأصلب صفاة ، وأصلب على البري عـــودا ، وأثقب مع الوري زنودا من أن يضعضع الريب لهضبة عزمه ركنا .. فالحيـاة وان أرخى طولها (٤) فتياه باليد ، والمرء وان جمح أمله هامة اليـــوم أو الغد ، وانّما ضربت ـ أدام الله تأييده ـ هذه الامثال . . ـ وان جلبت التمر الى هجر ـ رحرصا على تسلية نفسك العزيزة مـــن طائف الهم ، وتعزيتها من حرّه المؤلم ، فاقصرها .. على العـــزاء .. اذ لا يعتب لجازع الزمن، ولا يرد الفائت الحزن "(٥) .

انّ هذه القطعة على صغرها تحفل بالأمثال ،وهي نوعـــان : الأولى أمثال نثريّة كقوله : العيش طورا شماس وطورا غرّة ، والدنيـــا ان اخضرّ منها جانب جف جانب ، وجلبت التمر الى هجر ،ولا يعتـــب لجازع الزمن ،ولا يرد الفائت الحزن . والثانية أمثال شعريه نثرهـــا الكاتب كقوله : فأنت أصلب من أن يضعضع الريب لهضبة عزمه ركنـــا ، وهو من قول أبي ذؤيب الهذلي :

---

(١) حارد : من الحرد ، والحرد : المنع ،لسان العرب ٣/ ١٤٤ .
(٢) ديوان العباس بن مرداس / ٤٥ .
(٣) الثغر الاعلى الاندلسي . . . /١٢٧ ، الذخيرة ق ٢م ٢/ ٥٥٨ .
(٤) الطول : الحبل الذى يطوّل للدابة فترعى فيه ،لسان العرب ١١/ ٤١٢ .
(٥) انظر : قلائد العقيان / ٢١١ ـ ٢١٢ .

وتجلدي للشامتين أريهم   إني لريب الدهر لا أتضعضع(١)

وكقوله أيضا والحياة وان أرخى طولها فتياه باليد ،وهو من قول طرفة ابن العبد :

لعمرك إنّ الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثنياه باليد(٢)

وكقوله كذلك والمرء وان جس أمله هامة اليوم أو الغد ،أي أنّ الفتى وان طال أجله فالموت آتيه لا محالة ، وهو من قول طرفة - أيضا - الذي يقول فيه :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى   بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد(٣)

ونجد أمثالا أخرى في رسالة أبي مروان بن أبي الخصال يقرّع المنهزمين في القلاعة على لسان أمير المسلمين ضاربا لهم الأمثال قائلا : إنّ النصارى قد "حاربوكم عاما على اثر عام حتى ألزتوكم وتركوكم أسلح من حبارى(٤) وأشرد من نعام(٥)"(٦) ، فأسلح من

---

(١) ديوان الهذليين / ٣٠.
(٢) ديوان طرفة / ٣٧.
(٣) ديوان طرفة / ٤٨.
(٤) ويقال "أذرق من حبارى" ، والحبارى سلاحه سلاحه ، وذلك أن ذرقه مثل الدبق فان قرب منه البازى سلح فدبق جناحه فيسقط البازى حينئذ ، مجمع الامثال ١ / ٣٥٤ ، الدرة الفاخرة ١ / ٢٢٣.
(٥) ويقال أيضا "أشرد من ظليم" ،وهو من البيت الذى يقول :
وهم تركوك أسلح من حبارى   وهم تركوك أشرد من ظليم
مجمع الامثال ١ / ٣٨٨.
(٦) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين / ١١٦.

حيارى وأشرد من نعام مثلان يضربان للتدليل على الجبن والذلّة . ومثل هذه الأمثال نجدها في نصوص أخرى غير ما أوردناه (١) .

انّ التأثر بالتراث الأدبي بهذا الشكل الكبير يدل على سعة ثقافة هؤلاء الكتاب ، ولا غرابة في ذلك فهم نخبة من أدباء العصر ، كما يدل أيضا على اعجابهم بكثير من مشهوري الشعراء وتمسكهم بنماذجهم الشعرية الناضجة .

وكان القرآن ذا أثر كبير في أساليب الكتاب ،فهو مثال البلاغة والفصاحة لدى أي كاتب ،وقد كان قسم كبير من هؤلاء الكتاب يعنى بالقرآن وأساليبه ، ولذلك ظهر أثره في أساليبهم ، فأكثروا من اقتباس آياته ، وقد كان اقتباسهم منه على وجهين : أولهما ايراد الآيات في ثنايا الرسائل بصيغها ، وثانيهما ايرادها دون النص عليها بصيغها ، فمثال الوجه الأول ما ضمّنه يوسف بن تاشفين رسالته الى الفونسو السادس قائلا : " وتمنيتَ أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها الينا ، فقد اجتزناه اليك وجمع الله .. بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك " وما دعاء الكافرين الاّ في ضلال (٢)" (٣) ،فآية وما دعاء الكافرين الاّ في ضلال هي احدى آيات سورة الرعد أوردها الكاتب بنصها . ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن خاقان يصف دخول الفونسو الأول سرقسطة وتخريبه معالمها حيث قال : لما توفي أبو بكر بن تيفلويت أسرع العدو الى سرقسطة " وأقام عليها يمحو رونقها .. ويغيّر جنات من أعناب

---

(١) خريدة القصر ٣/٤٦٤ .

(٢) سورة الرعد آية ١٤ .

(٣) الحلل الموشية /٥٣ .

وزن ونخيل حتى "أصبحت كالصريم"(١) وران الفساد فيها لا يريم"(٢)، فأصبحت كالصريم آية كريمة ذكرها ابن خاقان بنصها .

ومثال الوجه الثاني ما قاله قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله يصف حال المسلمين في المدينة وقد أوشك النصارى على دخولها : "ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى يصرن في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أصبحوا حيارى بل هم سكارى وما هم بسكارى ولكن الكرب الذي دهمهم شديد والضرّ الذي مسهم عظيم جهيد "(٣) (٤) فالكاتب في تصويره لمعاناة المسلمين يستحضر مشاهد يوم القيامة ويقتبس الآيات الدالة عليها دون ذكرها بالنص .

الألفاظ :

اتسمت ألفاظ الرسائل بالسهولة والبعد عن التعقيد والغرابة وعن الصفات الاخرى التي تخلّ بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه أهل البلاغة من تنافر الحروف ووحشية الألفاظ ومخالفة القياس(٥) ، وعلى الرغم من اتسام الألفاظ بهذه الصفات الاّ أن الرسائل كانت بعيدة عن أساليب العامة .

وقد اتصفت بعض هذه الرسائل بالجزالة ، ويجعل ابن الأثير

---

(١) سورة القلم آية ٢٠ .

(٢) قلائد العقيان / ٣٠١ ، وللمزيد من النصوص راجع : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين / ١١٧ .

(٣) اشارة الى الآية الكريمة التي يقول فيها سبحانه :" وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد "سورة الحج الآية ٢ .

(٤) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٣٣ .

(٥) انظر : المثل السائر ١ / ١٦٨ — ١٩٢ .

هذه الصفة مقصورة على وصف مواقف الحروب وقوارن التهديد والتخويف ، ثم يستدرك قائلا : " ولست أعني بالجزل من الالفاظ أن يكون وحشيا متوعرا . . بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته "(١) ، وبالفعل فقد كانت رسائل اللوم والتقريع تتسم بالجزالة مع عذوبتها وفصاحتها التي اكتسبتها بفضل اهتمام الكتاب بالنماذج الشعرية الأصيلة وبالأمثال وبالآيات القرآنية الكريمة .

ومن أمثلة الجزالة في رسائل الجهاد ما كتبه أبو محمد بن عبد الغفور عن أمير المسلمين الى أحد قادته المنهزمين يلومه ". . ولا تكن أول من فر فتحدي بفرارك تثبّت جارك . . (و) لا تؤثر الكتب بما يثير عليك العتب ، ولتأنف من المستأنف "(٢) ، فهذه الالفاظ تتميز بالجزالة والمتانة على الرغم من سهولتها وبعدها عن التعقيد .

وقد كانت ألفاظ الرسائل منسجمة مع موضوعاتها ومعانيها ، فكانت تميل الى المتانة والجزالة في رسائل اللوم والتقريع(٣) والى اللين والسهولة في رسائل الاخبار بالنصر وفي رسائل الاستنجاد (٤) .

ويلاحظ أن الصنعة اللفظية قد ظهرت في النثر بشكل عام في هذه الفترة ، فكان النثر فنيا مسجوعا ، وذلك راجع الى التأثر الواضح بالمقاييس الأدبية السائدة في الأدب آنذاك ، فقد كان

---

(١) المثل السائر ١/١٦٨ .
(٢) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي ، /١٣٩ — ١٤٠ ،
خريدة القصر ٣/٤٣٢ .
(٣) خريدة القصر ٣/٤٣٢ .
(٤) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي /١٣٢ — ١٣١ .

الكتاب يأخذون بالكتابة المتأنقة ويكثرون من المحسنات في رسائلهم . وقد كان السجع أكثر هذه المحسنات شيوعا ، وهو صفة زخرفية لفظية تختص باللفظة المركبة في جملة [١] تتوافق فيه بعض فواصل الكلام المنثور على حرف واحد ، وقد عدّه ابن الأثير ميزة محمود " والاّ فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم " [٢] وحمده الكلاعي أيضا إلاّ أن يدل على تكلف [٣] .

ومثال هذا السجع ما كتبه ابن شرف مخبرا بانتصار المسلمين في أقليش " وأقمنا بقيّة يومنا على ذلك الى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار ، فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغيضت تلك الدماء الهوامر ، وغدا الخميس في الخميس ، مبنيا على ذلك التأسيس ، يجر أذيال الظفر ، في العدد الأوفر ، يشفع الأولى بالتوالي ، ويشتري العلا بالعوالي فأصبحنا في عزّ وأنس ، وأصبحوا لا ترى مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس" [٤] .

لقد ظهر السجع واضحا في رسائل الجهاد ، وقد يكون سبب حرص الكتاب عليه ما يحققه من تنغيم وايقاع صوتي في رسائلهم اضافة الى أنه ميزة الكتابة الفنية في هذه الفترة بشكل عام ، ويظهر مثل هذا التنغيم والايقاع في مثال آخر ، قال ابن القصيرة في رسالة كتبها - عن أهل قرطبة - الى المستعين بن هود : " وقد خاطبتنا المرّة بعد المرّة وكاتبتنا الكرّة بعد الكرة تذكر انك قد خلعت من تلك البلاد يدك ، واصفيت في طاعة أمير المسلمين .. معتقدك .. فما الذي نقلك من هذا الرأي والمذهب السديد ؟ .. ولو كنت - أحسن الله توفيقك -

---

(١) المثل السائر ١ / ٢٦٢ .

(٢) المثل السائر ١ / ٢٦٣ .

(٣) احكام صنعة الكلام / ٢٢٥ .

(٤) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٦ .

طيّاً بالدفاع قديرا على التحصن من أعداء الله الكفرة والامتناع ، لكنت معذورا فيما ترغبه ، وجديرا بأن يخلّى بينك وبين ما تطلبه ، لكنّ العجب كل العجب أن يكون سعيك للكفار ، وتوفيرك للدمار . . ألست تعلم أن النصارى . . قد استولوا على ثغور المسلمين التي بنظرك منوطة ومستقر قدميك محوطة؟" (١) .

ومع أن السجع ظاهرة واضحة في رسائل الجهاد الاّ اننا لم نعدم بعض النماذج التي قل فيها هذا اللون من المحسنات وسار فيها الكتاب على سجيتهم (٢) .

وكان الازدواج (٣) من المحسنات اللفظية التي سادت في رسائل الجهاد ، وقد عدّه أبو هلال العسكري من حميد صفات النثر اذ "لا يحسن منثور الكلام حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ، لانه في نظمه خارج عن كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عن تزاوج . . الفواصل منه ". (٤)

والازدواج له علاقة كبيرة بالسجع ، بل هو قسم من أقسامه اذ لم يكن الكتاب يلتزمون حرفا واحدا في جميع الفواصل وانما كانوا ينوعون بين حروفها ، فاذا اقتصر هذا التنويع على سجعتين اثنتين تكونان على حرف واحد كان ذلك ازدواجا في حين قد يكون السجع

---

(١) انظر : الذخيرة ق ٢ م١/ ٥٤٥ — ٥٤٦ .
(٢) انظر : الحلل الموشية / ٤٣ — ٤٤ .
(٣) الازدواج هو أن تكون كل فاصلتين أو سجعتين على قافية واحدة ، انظر : التبيان في علم البيان / ١٧٢ — ١٧٣ .
(٤) انظر : كتاب الصناعتين / ٢٦٠ — ٢٦٢ .

على فاصلتين أو أكثر . ومثال هذا الازدواج ما قاله ابن شرف : " ونمضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لامه ، والنصر يبلي الينا سلامه ، وتوجهنا الى الله نقتفي سبيله ونبتغي دليله ، فما دفع الفجر عن حبابه ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الاعلام ، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقيض الليل خمسه ، رفض الصبح نفسه " (١) .

أما الجناس فقد لاحظنا قلة أمثلته في رسائل الجهاد ، وان ورد فأكثره جناس غير تام وأقله جناس تام[٢] ، وقد يدل هذا على حرص الكتاب على الابتعاد عن التكلف ، ومن المحتمل انهم اكتفوا بالسجع والازدواج وما يحدثانه من التنغيم والايقاع وعوضوا بهما عن بعض المحسنات الصوتية الاخرى كالجناس مثلا .

المعانـــــي :

ولم يقتصر اهتمام الكتاب باللفظة المفردة بل تعدى ذلك الى الاهتمام بالجمل والعبارات وعملوا على زيادة الانسجام بين الجملة ومعناها بحيث ظهرت أشكال التعبير في الرسالة منسجمة بجملها وعباراتها مع معانيها بوضوح وتأثير ، وقد كان هذا التأثير متنوعا يشمل عواطف متعددة كالفرح بالنصر والحزن في الهزيمة وعند سقوط المدن ، بل أن بعض الرسائل قد اعتمدت على التأثير العاطفي[٣] ، ويجب أن نلاحظ انه على الرغم من تعدد العواطف الآ أن العاطفة الدينية كانت جمعها جميعا كما في الشعر .

---

(١) الثغر الاعلى الاندلسي . . . /١٢٨ .
(٢) قلائد العقيان /٢١٢ .
(٣) المصدر نفسه .

وتبدو المعاني والافكار الاسلامية عند تعرض الكتاب لموضوعات الجهاد في رسائلهم مثال ذلك فكرة التسليم بقضاء الله وقدره عند استشهاد أحد القادة واحتساب ذلك عند الله أجرا وثوابا ، قال أبو عبد الله اللوشي معزيا أمير المسلمين علي بن يوسف : " واذا كانت أقدار الله تعالى غالبة لا تصاول ، وأحكامه نافذة لا تزاول ، فالصبر لراقعها أولى ، والتسليم لجوازها أوجب لرضى المولى ، والتزام أوامره أشرف وأعلى ، وفي كلّ حال أجلّ وأولى "(١) ، وهناك معان اسلامية أخرى بحثناها في الفصل الثالث عند حديثنا عن أثر الجهاد في النثر .

واذا أمعنا النظر في أدوات الأدباء التي يخرجون بها عباراتهم بأسلوب جميل مؤثر وجدنا أن الخيال أكثر هذه الأدوات شيوعا ، ولكن النثر يتصف في أغلب الأحيان بضعف هذا العنصر ، وان وجدت بعض صوره فهي قليلة ، فالتشبيه قليل ، وقد جاءت أكثر نماذجه في الابيات الشعرية والامثال التي ضمّنها الكتاب رسائلهم ، ومن أمثلته قول أبي الحسن بن أضحى يصف عبد الله بن مزدلي ب " أسد فاغر " (٢) تدليلا على قوته وشجاعته .

ومن الوسائل التي اعتمدها الكتاب في نطاق عنايتهم بالمعنى واهتمامهم بالجمل عدد من فنون البديع من أبرزها الطباق (٣) والمقابلة (٤) وقد جمع ابن القصيرة بينهما في مثال واحد عند وصفه لحال المسلمين في احدى

---

(١) انظر : الثغر الاعلى الاندلسي /١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) قلائد العقيان /٢١٨ .
(٣) العمدة ٢/٥ .
(٤) المقابلة هي مجموعة المعاني المتوافقة يؤتى بعدها بما يقابلها على الترتيب ، وقد عدها بعضهم نوعا من الطباق بين الجمل والعبارات وليس بين الألفاظ والمفردات ، انظر : العمدة ٢/١٥ - ١٩ .

رسائله ، قال : " فلم يزل دأبهم الاذعان والانقياد ودأب النصارى التسلط والعناد حتى استصفوا الطريف والتلاد. وأتى على الظاهر والباطن النفاذ " (١) وبذلك فقد طابق الكاتب بين الاذعان والتسلط ، والانقياد والعناد ،والطريف والتلاد ،والظاهر والباطن . وقابل أيضا بين جملة (فلم يزل دأبهم الاذعان والانقياد) وجملة (ودأب النصارى التسلط والعناد) .

ولم تكن رسائل الجهاد على مستوى واحد من حيث الاطناب والايجاز ، فمنها ما تميز بالاسهاب والتطويل ومنها ما مال الى الايجاز والاختصار ، ويجعل الكلاعي الاطناب في الرسائل مختصا باللوم والتقريع والحض على الجهاد (٢) ،ولكننا وجدنا اطنابا في موضوعات اخرى كالاخبار بالنصر (٣) ووصف المدن الساقطة بأيدي العدو (٤) ،وبذلك فالاطناب لا يفرضه الموضوع وحده بل ان الظرف الذي كتبت فيه الرسالة وعاطفة المرسل هما أمران لهما نصيب في مسألة الاطناب والايجاز ، فالشعور بخطر النصارى مثلا يتطلب الاطناب وزيادة التوضيح لاولي الامر لكي يتدبروا شأنهم، ولوم المنهزمين وتقريعهم يصدر في الغالب عن عاطفة ثائرة تحشد الكثير من المعاني التي تقود الى الاسهاب ، والاطناب يقوم على بسط المعاني وتكرارها بعبارات متعددة تهدف الى تأكيد الفكرة وتوضيحها ، مثال ذلك ما قاله ابن شرف في احدى رسائله عن الامير أبي الطاهر تميم :" لمّا وضعني أمير المسلمين — أدام الله نصره — حيث شاء من آلة التشريف ، والحزّ المنيف ، وألحقني من النعماء واسبغ أذيالها ، وصرف إليّ من عدده وبلده ما أولاني نعمه ، وولاني كرمه ،

---

(١) الذخيرة ق ٢ م١/ ٢٤٨.

(٢) احكام صنعة الكلام / ٩٠.

(٣) انظر : المعجب/ ٢٢٩ — ٢٣٢.

(٤) انظر: الذخيرة ق ٣ م١ / ١٠١ — ١٠٣.

حفظت تلك الحرمة ، وشكرت لا ستزيد من تلك النعمة ، وأخذت في الاجتهاد في الجهاد عالقا بسببه ،آخذا بمذهبه ، وهيأت من ماله عندي جيشه الموضى بيدي ، وأجبت داعي الله . . لحزمة بيمينه رأسها وعلى تقواه أساسها "(١) ، فابن شرف يريد أن يخبر أمير المسلمين – على لسان أبي الطاهر – باستعداده للقاء النصارى ، ولكنه ساق ذلك بمعان كثيرة وجمل مكررة قادت الى الاطناب ، وهكذا يمضي الكاتب في رسالته مطنبا في كل فكرة .

ومثل هذا الاطناب نجده في رسالة ابن عبدون الى أمير المسلمين علي بن يوسف يخبره بانتصار الأمير سير بن ابي بكر في موقعة شنترين (٢) .

وقد تكون الرسائل موجزة لا تتعدى بعض الكلمات كرد يوسف ابن تاشفين على الفونسو السادس حيث قال : " الجواب ما تراه بعينك لا ماتسمعه بأذنك والسلام على من اتبع الهدى " (٣) واتبع ببيت أبي الطيب :

ولا كتب إلاّ المشرفيّة والقنا ولا رُسُلٌ الاّ الخميسُ العرمرمُ (٤)

لقد كان الفونسو السادس متغطرسا في رسالته التي بعث بها الى يوسف بن تاشفين (٥) ، فلم يكن أنسب من الرد عليه بهذا الرد المختصر المعبر عن ثقة أمير المسلمين بالانتصار والدال على تصميمه على اللقاء ، وبذلك فقد راعى الكتّاب ظروف انشاء الرسائل ومناسبة الاطناب والايجاز فيها لمقتضى الحال .

---

(١) الثغر الاعلى الاندلسي / ١٢٤ .
(٢) انظر : المعجب / ٢٢٦ – ٢٣٢ .
(٣) تاريخ المغرب العربي / ٢٤٠ ، الحلل الموشية / ٤٣ .
(٤) ديوان المتنبي ٣/ ٣٥٢ .
(٥) تاريخ المغرب العربي / ٢٣٦ .

الخـــاتمــــــة :

لم تكن هذه الفترة من التاريخ الاسلامي في الاندلس على ما وصفها به بعض المستشرقين من الجمود والانحطاط ، بل بالعكس فقد كانت حافلة بمختلف علوم العصر وفنونه وآدابه ، ظهر فيها كثير من الأدباء والشعراء والعلماء وألفت فيها كثير من المؤلفات المشهورة . كما كان للحياة الفكرية في هذه الفترة تأثير في الحيوات الفكرية فيما تلا من العصور ، وما كان هذا التأثير ليطال هذه الحيوات لولا وفره أمراء المسلمين وولاتهم في الاندلس من عوامل الازدهار والاستقرار على الرغم من الظروف الداخلية الصعبة التي واجهت الدولة وعلى الرغم من اشتداد الصراع بين المرابطين والنصارى .

وقد تميز هذا الصراع بالعنف والقوة وأخذ طابع الصراع العقائدي بين الاسلام والنصرانية الصليبية ، وكان المرابطون من جانبهم يدافعون عن العقيدة وعن المسلمين وأرضهم ، في حين كان النصارى يحاولون اقتلاع الحضارة الاسلامية من الأندلس نهائيا : بتنصيرا هلها او طردهم منها واحلال النصارى مكانهم وبهدم المعالم الاسلامية واستبدالها بمعالم النصرانية ، ولذلك فقد وجدنا أن أدب الجهاد في معظمه يصدر عن روح دينية اسلامية صادقة . وقد كان للفقهاء دور بارز في حركة الجهاد ، فكانوا يحضون عليه . ويشاركون فيه وبالمقابل فقد كان للرهبان والقساوسة دور مشابه في الجانب النصراني .

وقد تجلت في هذا الأدب قدرة الأدباء على الابداع في وصف الجيوش والأسلحة والمعارك وفي استنهاض الهمم والدعوة الى الجهاد والتذكير بمجد المسلمين .

وظهر أن كثيرا من نصوص أدب الجهاد كانت تتصل بأحداث تاريخية بارزة في هذه الفترة ، فكان الأدب متابعا للاحداث يسجل أحاسيس المسلمين ومشاعرهم تجاهها في النصر والهزيمة .

وقد لاحظنا عناية الأدباء في رسمهم صورة البطل ، فلم يقصروا جوانب شخصيته على صفاته الحربية بل أضافوا اليها صفات حميدة أخرى تجعل منه بطلا كاملا ، كما لم يقصروا البطولة على البطولة الفردية وانما شملت لديهم البطولة الجماعية أيضا .
وقدم لنا الأدباء أيضا صورة عامة للنصارى تهتم في معظمها بصورة القائد النصراني ،

وقد كانت هذه الصورة تتركز في الجانب الحربي ، وذلك لانحصار الاحتكاك بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة على هذا الجانب •

ومن الناحية الفنية فقد خلا شعر الجهاد من المقدمات واتسم بحرارة العاطفة وصدق الشعور وقرب المعاني والبعد عن التكلف ، وتركزت معظم القصائد في البحور الطويلة ، كما خلت الرسائل أيضا من المقدمات المعروفة وأصبحت تستفتح بمقدمات مناسبة لظروف الجهاد ، وقد كانت الرسائل متسمة بطابع العصر : تحفل بالسجع والمزاوجة وتتميز بالسهولة مع الارتفاع عن مستوى العامة •

وقد ظهر جليا تأثر أدب الجهاد في هذه الفترة بأدب المشرق بشكل عام ، ونحن وان كنا نؤمن بوحدة الأدب العربي الا اننا نلاحظ ان الأدباء وجدوا في هذا الأدب نماذج تستحق الاحتذاء والاقتداء •

فهـــرس الاعـــلام

فهارس القبائل والجماعات

فهرس الأماكن

فهرس الأشعار

صدر البيت	قافيته	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
	ى			
قل للأمير...	الندى	الكامل	٤	٢١٧
ياحسرة...	ردى	البسيط	٤	٢٤٤
	ب			
أبا حسن...	آيب	الطويل	٣	٢٤٢
اذا استمطرت ...	عصيب	الوافر	٣	٢٣١
اذا الغدير...	حبب	البسيط	١	١٣٤، ٢٧٠
اذا دعوا...	وتنتسب	البسيط	٢	٢٤٥
امام في ...	صليب	الوافر	٢	٢٢٠ — ٢٢١
بسعدك شبت ...	والغرب	الطويل	٥	٢٠٣
تخاله منصلتا...	يلهب	السريع	٢	١٢٨
اترى النسر...	والترائبا	الطويل	٢	١٥١
تطلّع للعيون ...	الوجيب	الوافر	٦	٢٢٣
أذو ظمأ ...	يشرب	السريع	١	١٢٩
سروا ما ...	صواحبا	الطويل	٣	١٣٦
طوى الجزيرة ...	الكذب	البسيط	٢	١٩٦، ٢٧٦
عوجاء تمطف ...	تنساب	الكامل	٢	١٣٣
غزو عليك ...	القريب	مجزوء الكامل	٣	١٠٠
فالأرض تقلق ...	وظبا	البسيط	٤	١١٧
لم تعلم ...	العرب	البسيط	١	١٨٢
لنا الله ...	تائب	الطويل	٤	٢٢٢
مقيم فان...	جانب	الطويل	٢	١١٥
وبدد شمل...	الصليب	الوافر	٢	٩٧
وفتية لبسوا...	رسب	البسيط	١	١٢٣

وقــد كنــت ...	قــرب	الطويــل	٢	٢٨٤
وكـل أصـمّ ...	الشعوب	الوافــر	٢	١٣١
وكـل مجـربه ..	ضريب	الوافــر	٣	١٢٦
ومطّهـم شـرق ...	خضابـا	الكامــل	٤	١٤٤
ومـا شجانـي ...	وذ نـاب	الطويــل	١	١٠٢
ونحـو أميـر ...	رغائب	الطويــل	٣	١٩٧
وهـل جمـع ...	لهيب	الوافــر	٣	١١٨
يختـرق النقـع ...	كوكب	السريــع	٤	١٤٣
	ت			
للــه درّ ...	الجمعة	الرجــز	٣	١٨٣
بأهــل ...	سردات	البسيــط	٢	١٧٩
	ج			
للــه أنــت ...	الاعـوج	البسيــط	٢	٢٢٦
للــه منــه ...	تتوهـج	الكامــل	٥	٢٣٢
ـــن آل ...	اعـوج	الكامــل	١	١٣٨
والحـرب قـد ...	تنسـج	الكامــل	٢	١٤٩
والسابقات علـى ...	تـدرّج	الكامــل	١	١٣٤، ٢٧٠
يسبيـه طـرف ...	أدعـج	الكامــل	٢	٢٨٣
	ح			
بأبـي صقـور ...	متاحـا	الكامــل	٤	١٢٤ — ١٢٥
ظلـت تـرن ...	مـرح	البسيــط	١	١٣٣
فدمـت حريـم ...	مباحـا	الكامــل	١	١٠٢
لا فـرق ...	رماحـا	الكامــل	٤	١٣٢
متسربلـي قمـص ...	بطاحـا	الكامــل	١	١٣٤
نشـر الـورد ...	الريـاح	الخفيــف	٢	٢٧١
واستقلوا أفـق ...	جناحـا	الكامــل	٦	١٢٣
وقـد تألـق ...	قـزح	البسيــط	١	١٣٣

بـــــه غلـــق . . .	ونحـــور	الطويـــل	١	١٣١
تحمـى الشكائـم . . .	التنانيـر	البسيـط	٢	١٤٤
تخـــال شملـة . . .	مـسوّار	البسيـط	٢	١٢٨
تخـــط سطـور . .	السمـر	الطويـل	١	٢٦٩
تسمـــو بهمـــك . . .	مضمـور	البسيـط	٤	٢٣٨
تقسمـــه جـــود . . .	وعـــر	الطويـل	٩	٢٣٠ — ٢٣١
ثبـــت هنـــاك . . .	القـرارا	المتقـارب	٤	٢٢٧
خوافـــق قـــد . . .	مطـــار	الطويـل	٣	١٤٥
ســـر حيـــث . . .	المقـدار	الكامـل	٤	٢٨٠
سريت وأصحابـي . . .	سكـــر	الطويـل	١١	١١٩
سيـــف بـــه . . .	الظافـر	البسيـط	٣	٢٤٠
شعـــاره البـــر . . .	الذكـــر	البسيـط	١	٢٣٤
بما فـــي رداء . . .	الـــدار	الكامـل	٣	٢٣٠
طويـــل سبيـب . . .	والظهـر	الطويـل	٢	١٣٨
عاشـــت بساحتك . . .	والنـــار	الكامـل	٤	٩٣ ، ١٩٠
فقال الفـــذارى . . .	البكـــر	الطويـل	٤	١٢٠
قـــد أسبـــل . . .	الافكـــار	الكامـل	٢	٢٨٧
قـــرت بـــه . . .	السـرور	مخلع البسيط	٣	١٤٠ — ١٤١
قولوا للذريـــق . . .	زجـــرا	البسيـط	٢	١٨٥
قـوم رماحهـم . . .	مطـــور	البسيـط	١	٢٤٥
كالنجـــم فـــي . . .	طريـــر	مخلع البسيط	٢	٢٣٦
لا أنـــت . . .	الأوطار	الكامـل	١	٢٧٦
لقـــد نجـــوت . . .	القـــدر	البسيـط	٢	٢٥٨
لـــم يهشمـــوا . . .	الثغـــر	البسيـط	٢	٢٨٣ — ٢٨٤
مـــابـــال . . .	والسـور	البسيـط	١	٢٤٨
مرابطون اصلهـم . . .	مضـــر	الرجـــز	٧	٢٢١

ط

حشـوا مطاياكـم ...	الغـلط	البسيط	٣	١٧
= ...	=	=	٢	١٧٨

ع

أرأيـك امضـى ...	أسمـع	الطويـل	٣	٢٣٥
= ...	=	=	١	٢٤٣
النعمـة العظمى ...	والمقنـع	الكامـل	٢	٢١٨
أنـى فزعتـم ...	المفـزع	الكامـل	٨	٢٠٧—٢٠٨
أهديـك مـن ...	تولـع	الكامـل	٩	١٤٦—١٤٧
حصـن حواشيهـا ...	يشجـع	الكامـل	٢	١٤٦
خليلـي مـن ...	جـازع	الطويـل	٢	٢٧٨
فالمـوت يخترم ...	وشجيـع	الكامـل	٤	٢١٩
فبكيـت مـن ...	مسمـوع	الكامـل	٤	٢١٦
فـي نصـرة...	فتنخـدع	البسيـط	٣	٤١
قبـل التنـاوش...	الأوسـع	الكامـل	٥	١٤٧ — ١٤٨
كـادت تكـون ...	المخشّـع	الكامـل	٢	٢١٣
كـأن البحـر ...	شعـاع	الوافـر	٢	٢٧١
لا ضيـع ...	يضيّـع	الكامـل	٢	٢٣٩
لـه مـن ...	مشفـع	الطويـل	٥	٢٣٣
مـازال ...	رفيـع	الكامـل	٢	٢٤١
نغتـر بالدنيا ...	مخـدوع	الكامـل	٢	٢٨٥
وأمطرتـه عيشـا ...	يهمـع	البسيـط	٢	٢٧٢
وتجلدى للشامتيـن ...	أتضعضع	الكامـل	١	٣٠٠
يـا أيهـا ...	الأروع	الكامـل	٦	٢٠٧
=	=	=	٤	٢٦٠
يـا تاشفيـن ...	يدفـع	الكامـل	٣	٢٠٨
يـارب ...	يتدفـع	الكامـل	٣	١٢٥

يـــــارب . . .	بتدفع	الكامـل	٤	٢٢٩، ٢٥٢
ياطالعـــا . . .	طلـوع	الكامـل	٦	٢٤٣
	ف			
كالجـذع شـذب . . .	سعـف	البسيـط	١	١٣٨
والاسمـر اللـدن . . .	قصـف	البسيـط	٢	١٣٠
والصـارم المضب . . .	مختطـف	البسيـط	٣	١٢٩
يـوم العروبـة . . .	يستوصف	الكامـل	١	١٨٢
	ق			
عرفـت والليـل . . .	الفسـق	البسيـط	٤	٢٠٨—٢٠٩
يـا أكـرم . . .	خلـق	البسيـط	١	٢٣٥
يـا شفقـا . . .	خـلاق	مخلع البسيط	٢	١١٦
	ك			
أبـرح وطالـب . . .	فـدك	البسيـط	١	٢٨١
اللـه اعطـاك . . .	د رك	البسيـط	٤	٢١٠
بـان الخليـط . . .	سلكـوا	البسيـط	١	٢٧٧
فصبحتـم جنـود . . .	مسـاك	البسيـط	٦	٢١٠
فطاعنوكم بأرمـاح . . .	تمـاك	البسيـط	٣	٢٨٦
لـو أنهـا . . .	تركـوا	البسيـط	١	٢٧٧
وروضـة زرتهـا . . .	هلكـوا	البسيـط	٣	١٨٧
وفيـت للصفـر . . .	بالـدرك	البسيـط	٢	٢١١
يـا أيهـا . . .	الملـك	البسيـط	٦	٢١١
	ل			
أذا الملـوك . . .	والحلـل	البسيـط	٨	٢٣٢
اذا عابـد . . .	يجـول	الطويـل	١	١٤٥
الا فـي . . .	نائـل	الطويـل	١	٢٧٨
الآن سـح . . .	فاعتدلا	البسيـط	٤	١٨٨—١٨٩

البـأس والاقدام ...	الاحجـام	الكامـل	٤	٢٤١ — ٢٤٢
الليـل بعـدك ...	اعـوام	الكامـل	٥	٢٤٣
ان الـذى ...	الأيـام	الكامـل	٥	٢٢٢ — ٢٢٣
ان كنـت ...	هشـام	البسيـط	٢	٢٩٨
أنـام رجالـك ...	منـام	الوافـر	١	٢٨٥
أهـل الريـاء ...	المآتـم	الكامـل	٣	٤٢ — ٤٣
بـادرت أجـراك ...	ذمـام	البسيـط	٢	٩٩
بعـض أيامـك ...	بهيـم	الخفيـف	٢	٢٦٥
بينـي وبيـن ...	الأيـام	الكامـل	٤	٢٦٧
تدفعـت دون ...	وتحـوم	الطويـل	٣	٢٢٨
ستسألك النسـاء ...	عصـام	الوافـر	١	٢٨٢
سخـرت بالنجم ...	بالديـم	مجزوء المديد	٣	٢٦٥ — ٢٦٦
سيعبـد بعدهـا ...	اكتـام	الوافـر	٤	٢٥٦ — ٢٥٧
ضـاءت بنـور ...	الاسـلام	الكامـل	٣	٩٨
= = ...	=	=	٤	٢١٢ — ٢١٣
فأبشـر فـدار ...	ودوام	الطويـل	٢	٢٦٦
فـان ينـج ...	اللئـام	الوافـر	٧	٢٥٦
فيـا حسنهـم ...	واستلأموا	المتقـارب	٤	١٢٥
فيـارب ...	ضـا	الطويـل	٥	١٤١
كـأن الجماجم ...	الـدم	المتقـارب	٧	٢٥٥
لا تنكـروا ...	شققتـم	مجزوء الكامل	٢	٤٠
متقـدم فـي ...	بالـدم	الكامـل	٤	٢٢٥ — ٢٢٦
مـن كـان ...	انجـم	الكامـل	٢	١٣٢
ندبتـه أبكـار ...	والاسـلام	الكامـل	٢	٩٨
نضـا أدراعـه ...	عـام	الوافـر	١	٢٧٧
وأبـو لـه ...	والاقـدام	الكامـل	٤	١٠٢

وأغــرّ يسفر ...	ملثم	الكامل	٣	٢٢٦
وحكت دموع ...	نظام	الكامل	١	٢٧٢
ورجال قادة ...	البهم	مجزوء المديد	٥	٢٠١
وصاروا فوق ...	أكام	الوافر	٣	١٥٠
وظلام ليل ...	لهذم	الكامل	٤	١٤٩
وكفى احتماء ...	مريم	الكامل	١	٤٥
ولا كتب ...	العرمرم	الطويل	١	١٥٩، ٣٠٩
ولولاه كان ...	مأتم	المتقارب	٥	٢٣٩—٢٤٠
بييت بوادي ...	فيهما	الطويل	٤	١٤٠
	ه			
آه من ...	نواهما	الخفيف	٢	٢٧٣
اذا أتت ...	يناجيها	البسيط	٣	٣٥٢
أسمع أمير ...	نغذيه	الكامل	٨	٢٣٧—٢٣٨
اليوم أخمدت ...	عمّارها	البسيط	٦	٢٩١
أورت زناد ...	وعفارها	الكامل	٤	٢٣٦
دع الخطّي ...	عليه	الوافر	٢	١٢٣
عيشة أقبلت ...	كراها	الخفيف	٥	١٨٦
في فتية ...	أقطارها	الكامل	٤	٢٤٥—٢٤٦
واقذف نحور ...	ومنارها	الكامل	٤	١١٨
وصقيل مدارج ...	عليه	الخفيف	٢	١٢٧
ياتاشفين ...	يرويها	البسيط	٥	٢٠٤
	ن			
أجام أشبله ...	الخرصان	الكامل	٥	١٢٣
اذا حدثت ...	شجون	الوافر	٥	٢٢٣—٢٢٤
ألا عظة ...	فتون	الطويل	٥	٢٦٤
ألا قل ...	الحرمين	المتقارب	٦	٣٤

المصادر والمراجع والدوريات

المصـــــادر :

١. القرآن الكريم .

٢. الاحاطة في أخبار غرناطة / لسان الدين بن الخطيب : أبو عبد اللـــه محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي ت (٧٧٦)هـ ، تحقيـــق محمد عبد الله عنان . —
المجلد الأول . — القاهرة : دار المعارف ، (د . ت) . (سلسلـــــة ذخائر العرب ، ١٧) .
المجلد الثاني . — القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .
المجلد الثالث . — القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م .
المجلد الرابع . — القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

٣. الاحكام السلطانية والولايات الدينية / الماوردي : ابو الحسن علـــي ابن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت (٤٥٠)هـ . — ط ٣ . — القاهرة : (د . ن) ، ١٩٧٣هـ — ١٩٧٧م .

٤. أحكام القرآن / ابن العربي : ابو بكر محمد بن بن عبد الله بـــن محمد المعافري الاشبيلي ت (٥٤٣)هـ ، تحقيق علي محمد البجـــاوي . — القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م .

٥. احكام صنعة الكلام / الكلاعي : ابو القاسم محمد بن عبد الغفور الاشبيلي الاندلسي (من اعلام القرن السادس الهجري) ، تحقيق محمد رضـــوان الداية . — بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٦ .

٦. احياء علوم الدين / الغزالي : زين الدين ابو حامد محمد بن محمـــد ابن محمد ت (٥٠٥)هـ . — بيروت : دار المعرفة ، (د . ت) .

٧. أخبار ابي تمام / الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى بن عبد اللـــه ت (٣٣٥)هـ ، شرحه وحققه خليل محمود عساكر ومحمد عبده عـــزام

ونظاير الاسلام المهدى . ـ القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.

٨. أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين / البيذق : أبو بكر بن علي الصنهاجي (من رجال القرن السادس الهجرى) . ـ الرباط : دار المنصور ، ١٩٧١.

٩. ازهار الرياض من اخبار عياض / المقرى : احمد بن محمد التلمساني ت (١٠٤١)هـ ،تحقيق سعيد أحمد أعراب . . (وآخرون) . ـ الرباط : صندوق احياء التراث الاسلامي ، ١٩٧٨ - ١٩٧٩.

١٠. الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى / الناصرى : أبو العباس أحمد بن خالد بن حماد الناصرى الدرعي السلاوى ت (١٣١٥) هـ ، تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى (ولدا المؤلف) . ـ الدار البيضاء : (د . ن) ، ١٩٥٤.

١١. الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ابن عبد البر : ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ت (٤٦٣)هـ ، تحقيق علي محمد البجاوى . ـ (القاهرة) : مكتبة نهضة مصر ، (د . ت) .

١٢. أسد الغابة في تمييز الصحابة / ابن الاثير : ابو الحسن عزالدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزرى ت (٦٣٠)هـ . ـ طهران : المكتبة الاسلامية ، (١٣٤٢) هـ .

١٣. اسرار البلاغة /الجرجاني : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ت (٤٧١)هـ ، تحقيق هـ . ريتر . ـ استانبول : وزارة المعارف، ١٩٥٤.

١٤. اعتاب الكتاب/ ابن الابار : أبو عبدالله محمد بن عبد اللهالقضاعي ت (٦٥٨)هـ ،تحقيق صالح الاشتر . ـ دمشق : مجمع اللغة العربية ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

١٥. انباه الرواة على أنباه النحاة/ القفطي : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ت (٦٤٦)هـ ،تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم .ـ القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠.

١٦. الانتصار ممن عدل عن الاستبصار / ابن السيد : أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي (٤٤٤-٥٢١)هـ ، تحقيق حامد عبد المجيد .ـ (القاهرة) : وزارة التربية والتعليم ـ الادارة العامة للثقافة ، ١٩٥٥.

١٧. الانصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم/ ابن السيد : ابو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي (٤٤٤-٥٢١)هـ ، تحقيق محمد رضوان الداية .ـ دمشق : دار الفكر، ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م. (سلسلة دراسات أندلسية ، دون رقم).

١٨. أنموذج القتال في نقل المقوال / ابن أبي حجلة : شهاب الدين أحمد بن يحيى المغربي التلمساني ت (٧٧٦)هـ ، تحقيق زهير أحمد القيسي .ـ بغداد : دار الرشيد ، ١٩٨٠، (سلسلة دراسات ، ٩٥).

١٩. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس / ابن أبي زرع : علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي ت (٧٢٦)هـ .ـ الرباط : دار المنصور ، (د . ت).

٢٠. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس / الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ت (٥٩٩) هـ .ـ القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧.

٢١. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة / السيوطي : جلال الدين ابن عبد الرحمن ت (٩١١)هـ ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم. ـ(د. م) : (د. ن) ، ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م.

٢٢. البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب / ابن عذارى : ابو عبد الله محمد بن احمد المراكشي ت (٦٩٥)هـ . — الجزء الثالث . — باريس : عني بنشره أ . ليفي بروفنسال ، ١٩٣٠ .

٢٣. البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب / ابن عذارى : ابو عبد الله محمد بن احمد المراكشي ت (٦٩٥)هـ . — الجزء الرابع ، تحقيق احسان عباس . — بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٧ .

٢٤. البيان والتبيين / الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر (١٥٠ — ٢٥٥) هـ ، تحقيق عبد السلام هارون . — القاهرة : مكتبة الخانجي ، بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٦٠ .

٢٥. بيوتات فاس الكبرى / ابن الأحمر : ابو الوليد اسماعيل بن يوسف الخزرجي الانصاري النصري ت (٨٠٧) هـ . — الرباط . — دار المنصور ، ١٩٧٢ .

٢٦. تاج العروس من جواهر القاموس (صدر منه خمسة عشر مجلدا) / الزبيدي : محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ت (١٢٠٥)هـ ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج .. (وآخرون) . — الكويت : وزارة الاعلام ، ١٩٦٥ — ١٩٧٥ .

٢٧. تاريخ ابن خلدون / ابن خلدون : ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ت (٨٠٨)هـ . — المجلد الأول . — ط ٢ . — بيروت : مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٦١ ، المجلد السادس . — (د . م) : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩ .

٢٨. تاريخ اسبانيا الاسلامية أو كتاب أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام / لسان الدين بن الخطيب : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي ت (٧٧٦)هـ ، تحقيق وتعليق أ . ليفي بروفنسال . — ط ٢ . — بيروت : دار المكشوف ، ١٩٥٦ .

٢٩. تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ووصفه لابن الشباط / ابن الكردبوس: أبو مروان عبد الملك التوزري ت (أواخر القرن السادس الهجري)، تحقيق احمد مختار العبادي .ـ مدريد : معهد الدراسات الاسلامية، ١٩٧١.

٣٠. تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام/ لسان الدين بن الخطيب : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي ت (٧٧٦)هـ ، تحقيق وتعليق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني .ـ الدار البيضاء : دار الكتاب، ١٩٦٤.

٣١. تاريخ الملوك والرسل / الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤ـ ٣١٠)هـ ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم .ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ (سلسلة ذخائر العرب، ٣٠).

٣٢. تاريخ اليعقوبي /اليعقوبي : احمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح المعروف باليعقوبي ت (٢٩٢)هـ .ـ بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م.

٣٣. تاريخ بغداد أو مدينة السلام / الخطيب البغدادي : ابو بكر احمد بن علي ت (٤٦٣) هـ .ـ القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٩٣١.

٣٤. تاريخ قضاة الأندلس المسمى : كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا / النباهي : ابو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي ت (٧٩٢)هـ .ـ بيروت : المكتب التجاري، (د. ت).

٣٥. التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن / ابن الزملكاني : عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الانصاري ،تحقيق احمد مطلوب وخديجة الحديثي .ـ بغداد : (مطبعة العاني، ١٩٦٤.

٣٦. تتمة اليتيمة / الثعالبي : ابو منصور عبد الملك محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ت (٤٢٩)هـ ،عني بنشره عباس اقبال .- طهران : (د.ن)، ١٣٥٣ هـ .

٣٧. تحفة الانفس وشعار سكان أهل الاندلس / ابن هذيل : أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الفزاري الاندلسي الغرناطي ت (في القرن السادس الهجري) ، اعتنى بنشره لويس مرسي .- باريس : المطبعة الشرقية ، ١٩٣٦ ، (الكتاب بخط مغربي حجري).

٣٨. تدبير المتوحد / ابن باجة : ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ ت (٥٣٣)هـ ،بعناية آسين بلا ثيوس .- مدريد : (د.ن)، ١٩٤٦.

٣٩. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك/ القاضي عياض : عياض بن موسى اليحصبي السبتي ت (٥٤٤) هـ ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي . - الرباط : (د.ن)، (د.ت). (السلسلة التاريخيه ، ١).

٤٠. تسهيل النظر وتعجيل الظفر في اخلاق الملك وسياسة الملك / الماوردي : ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت (٤٥٠)هـ ،تحقيق محيي هلال السرحان .- بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨١م .

٤١. التشوف الى رجال التصوف / ابن الزيات : ابو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي ت (٦٢٧)هـ ،تحقيق أدولف فور .- ط ٢ . - الرباط .- معهد الابحاث العليا المغربية ، ١٩٥٨. (مطبوعات معهد الابحاث العليا المغربية ، ١٢).

٤٢. التعريف بالقاضي عياض / محمد بن عياض : ابو عبد الله محمد بن عياض بن موسى اليحصبي ت (٥٧٥)هـ ، تحقيق محمد بن شريفة .- (د.م) : وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية بالمغرب ، (د.ت).

٤٣. التكملة لكتاب الصلة/ ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ت (٦٥٨) هـ ، عني بنشره وصححه ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني . — القاهرة : (د. ن) ، ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م.

٤٤. تهذيب التهذيب / ابن حجر : أبو الفضل شهاب الدين أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني ت (٨٥٢)هـ . — حيدر أباد الدكن : (د. ن) ، ١٣٢٥هـ .

٤٥. ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب / ابن عبدون (من رجال القرن السادس الهجري) ، تحقيق أ. ليفي بروفنسال . — القاهرة : (د. ن) ، ١٩٥٥.

٤٦. جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس / ابن القاضي : أبو العباس احمد بن محمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي ت (١٠٢٥) هـ . — الرباط : دار المنصور ، ١٩٧٣.

٤٧. جمهرة اللغة (طبعة جديدة بالأوفست)/ ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري ت (٣٢١)هـ . — بيروت : دار صادر ، (د. ت).

٤٨. الحسبة في الاسلام / ابن تيمية : أبو العباس تقي الدين أحمد ابن عبد الحليم ت (٦٢٨) هـ . — القاهرة : نشره قصي محب الدين الخطيب : (المطبعة السلفية ومكتبتها) ، ١٣٨٧هـ .

٤٩. الحلة السيراء / ابن الأبار : ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ت (٦٥٨) هـ ، تحقيق حسين مؤنس . — القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣.

٥٠. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية/ مؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الثامن الهجري ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة . — الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.

٠٥١ الحلل في اصلاح الخلل من كتاب الجمل / ابن السيد : ابو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي (٤٤٤ — ٥٢١)هـ ، تحقيق سعيد عبد الكريم سعودى . — بغداد : دار الرشيد ، ١٩٨٠ . (سلسلة كتب التراث ، ٩٤) .

٠٥٢ حلية الفرسان وشعار الشجعان / ابن هذيل : أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزارى الأندلسي الغرناطي ت (توفي في القرن الثامن الهجرى) ، تحقيق محمد عبد الغني حسن . — القاهرة : دار المعارف ، ١٩٤٩ . (سلسلة ذخائر العرب ، ٦) .

٠٥٣ خريدة القصر وجريدة العصر — قسم شعراء المغرب والاندلس / العماد الأصفهاني : ابو عبد الله محمد بن محمد صفي الدين ت (٥٩٧)هـ ، تحقيق آذرتاش آذرنوش ، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوى والجيلاني بن الحاج يحيى . — تونس : الشركة التونسية للنشر ، المجلد الأول . — ط ٢ ، ١٩٧٣ .
المجلد الثاني . — ط ١ ، ١٩٧١ .
المجلد الثالث . — ط ١ ، ١٩٧٢ .

٠٥٤ الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة / الأصبهاني : حمزة بن الحسن ت (٣٥١) هـ ، تحقيق عبد المجيد قطامش . — القاهرة : دار المعارف، ١٩٧١ . (سلسلة ذخائر العرب ، ٤٦) .

٠٥٥ الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب / ابن فرحون : ابراهيم ابن علي ابن محمد ت (٧٩٩) هـ ، تحقيق محمود الأحمدى أبو النور . — القاهرة : دار التراث، (١٩٧٢) .

٠٥٦ ديوان ابن خفاجة / ابن خفاجة : أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة الأندلسي (٤٥١ — ٥٣٣)هـ ، تحقيق السيد مصطفى غازى . — الاسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٦٠ .

٥٧. ديوان ابن الزقاق / ابن الزقاق : أبو الحسن علي بن ابراهيم بن عطية البلنسي ت (٥٢٦) هـ ، تحقيق عفيفة محمود ديراني . — بيروت : دار الثقافة ، (د . ت) .

٥٨. ديوان ابن النبيه / ابن النبيه : أبو الحسن يوسف ت (٦١٩) هـ . — القاهرة : (د . ن) ، ١٣١٣ هـ .

٥٩. ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبرى المسمى بالتبيان في شرح الديوان / المتنبي : ابو الطيب احمد بن الحسين ابن الحسن الجعفي ت (٣٥٤) هـ ، ضبطه وصححه مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . — (د . م) : (د . ن) ، ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦م .

٦٠. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي / أبو تمام : حبيب ابن أوس الطائي ، تحقيق محمد عبده عزام . — القاهرة : دار المعارف ، (د . ت) .

٦١. ديوان أبي فراس الحمداني / ابو فراس الحمداني : الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي ت (٣٥٧) هـ ، عني بجمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه سامي الدهان . — بيروت : المعهد الافرنسي بدمشق ، ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤م .

٦٢. ديوان الاعشى الكبير / الاعشى : أبو بصير ميمون بن قيس ابن جندل ت (٧) هـ ، شرح وتعليق محمد محمد حسين . — القاهرة : مكتبة الآداب ، ١٩٥٠ .

٦٣. ديوان الاعمى التطيلي / الاعمى التطيلي : أبو جعفر احمد ابن عبد الله بن هريرة ت (٥٢٥) هـ ، تحقيق احسان عباس . — بيروت : دار الثقافة ، (د . ت) .

٦٤. ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني / الشماخ : الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني ت (٢٢)هـ ،تحقيق وشرح صلاح الدين الهادي .ـ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨.

٦٥. ديوان العباس بن مرداس السلمي / العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي ت (١٨) هـ ، تحقيق يحيى الجبوري .ـ بغداد : وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٦٨.

٦٦. ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية / المعتمد بن عباد : ابو القاسم ، محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل اللخمي ت (٤٨٨) هـ، جمع وتحقيق احمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد ،اشراف ومراجعة طه حسين .ـ القاهرة : وزارة المعارف العمومية، ١٩٥١.

٦٧. ديوان النابغة الذبياني / النابغة الذبياني : أبو امامة زياد ابن معاوية بن ضباب الغطفاني ت (١٨) ق . هـ ، جمعه وشرحه وكمله وعلق عليه محمد الطاهر بن عاشور . ـ تونس: الشركة التونسية للتوزيع ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٦.

٦٨. ديوان الهذليين (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) .ـ القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م.

٦٩. ديوان حسان بن ثابت / حسان بن ثابت : ابو الوليد حسان ابن ثابت بن المنذر الخزرجي الانصاري ت (٥٤)هـ ، تحقيق سيد حنفي ناصف وحسن كامل الصيرفي .ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

٧٠. ديوان سقط الزند / المعري : ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي (٣٦٣ ـ ٤٤٩)هـ ،شرح وتعليق ن.رضا .ـ بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥م.

٧١٠ ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره / حاتم الطائي : أبو عدي حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج ت (٤٦) ق ٠ هـ ، صنعة يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي ، دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال ٠ ـ القاهرة : (د ٠ ن) ، (د ٠ ت) ٠

٧٢٠ ديوان طرفة بن العبد / طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي ت (٦٠) ق ٠ هـ ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ٠ ـ دمشق : مجمع اللغة العربية ، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ٠

٧٣٠ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام : ابو الحسن علي ابن بسام الشنتريني ت (٥٤٢) هـ ، تحقيق احسان عباس ٠ ـ بيروت : دار الثقافة ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ٠

٧٤٠ رايات المبرزين وغايات المميزين / ابن سعيد : علي بن موسى ابن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي ت (٦٨٥) هـ ، نشر وتحقيق غرسية غومس ٠ ـ مدريد : (د ٠ ن) ، ١٩٤٢ ٠

٧٥٠ الرد على ابن نغرالة اليهودي ورسائل أخرى / ابن حزم : ابو محمد علي بن أحمد ت (٤٥٦) هـ ، تحقيق احسان عباس ٠ ـ القاهرة : مكتبة العروبة ، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠م ٠ (سلسلة كنوز العرب ؛ ٣) ٠

٧٦٠ رسائل ابن باجة الالهية / ابن باجة : ابو بكر محمد بن الحسين ابن باجة بن الصائغ ت (٥٣٣) هـ ، تحقيق ماجد فخري ٠ ـ بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨ ٠ (سلسلة الدراسات والنصوص الفلسفية ؛ ١) ٠

٧٧٠ رسائل ابن حزم / ابن حزم : ابو محمد علي بن أحمد ت (٤٥٦) هـ ، تحقيق احسان عباس ٠ ـ بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١ ٠

٧٨٠ الروض المعطار في خبر الاقطار / الحميري : محمد بن عبد المنعم ت (٧٢٧) هـ ، تحقيق احسان عباس ٠ ـ بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥ ٠

٧٩• سراج الملوك / الطرطوشي : ابو بكر محمد بن الوليد الفهـــري ت (٥٢٠)هـ .— (د.م) : (د.ن)، ١٢٨٩هـ .

٨٠• سمط اللالي : ويحتوي على شرح الجزء الثاني من الامالي / البكـري : أبو عبيد البكري الاونبي ت (٤٨٧)هـ ،حققه عبد العزيـــز الميمني .— القاهرة : لجنة التأليف والترجمة ، ١٣٥٤هـ — ١٩٣٦م.

٨١• سنن أبي داود / أبو داود : سليمان بن الاشعث السجستانـــي الازدي ت (٢٧٥)هـ .— حمص : نشره محمد علي السيد ، ١٣٩١هـ — ١٩٧١م.

٨٢• شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (طبعة بالاوفست عن الطبعـة الاولى سنة ١٣٤٩هـ) / محمد بن محمد بن مخلوف .— بيروت : دار الكتاب العربي ، (د.ت).

٨٣• شذرات الذهب في اخبار من ذهب / ابن العماد الحنبلي : أبـو الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد ت (١٠٨٩)هـ .— ط ٢ .— بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.

٨٤• شرح المختار من لزوميات ابي العلاء / ابن السيد : ابو محمـد عبد الله بن محمد البطلـوسي (٤٤٤—٥٢١)هـ ، تحقيق حامـد عبد المجيد .— القاهرة : وزارة الثقافة — مركز تحقيق التـراث ، ١٩٧٠.

٨٥• شرح ديوان زهير بن أبي سلمى / زهير بن أبي سلمى : ربيعـة ابن رباح المزنـي ت (١٣)ق.هـ . ، صنعـة ابي العباس احمـد ابن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب .— القاهرة : الدار القوميـة للطباعة والنشر ، ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م.

٨٦• شعر ابن اللبانة الداني / ابن اللبانة : ابو بكر محمد بن عيسـى ابن محمد اللخمي ت (٥٠٧)هـ ، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد . — البصرة : جامعة البصرة ، ١٩٧٧.

٠٨٧ صبح الأعشى في صناعة الانشاء / القلشندى ؛ ابو العباس احمد بن علي ت (٨٢١)هـ . — القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٣٤٠هـ — ١٩٢٢م.

٠٨٨ الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية / الجوهرى ؛ ابو نصر اسماعيل بن حماد ت (٣٩٣)هـ ، تحقيق احمد عبد الغفور عطار. — ط ٢ . — بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

٠٨٩ صحيح البخارى بشرح الكرماني / البخارى : محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم بن المغيرة البخارى ت (٢٥٦)هـ . — (د.م) : (ملتزم طبع المصحف الشريف بمصر عبد الرحمن محمد)، ١٣٥٢هـ — ١٩٣٢م.

٠٩٠ صحيح مسلم / مسلم : ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت (٢٦١)هـ . — القاهرة : دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م.

٠٩١ صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار / الحميرى : محمد بن عبد المنعم ت (٧٢٧)هـ ، بعناية أ. ليفي بروفنسال. — القاهرة : (د.ن)، ١٩٣٧.

٠٩٢ صلة الصلة (وهو ذيل الصلة البشكوالية في تراجم اعلام الاندلس) / ابن الزبير : احمد بن ابراهيم الثقفي الغرناطي ت (٧٠٨)هـ . — بيروت : مكتبة خياط ، (د.ت) . (سلسلة روائع التراث العربي، دون رقم).

٠٩٣ الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم / ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك ت (٥٧٨)هـ . — القاهرة : عني بنشره وتصحيحه ومراجعته عزت العطار الحسيني، ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م.

٩٤. طبقات الأمم / صاعد الطليطلي : ابو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الطليطلي ت (٤٦٢)هـ. — بيروت : عني بنشره الأب لويس شيخو اليسوعي ، ١٩١٢.

٩٥. طبقات الحفاظ / السيوطي : جلال الدين بن عبد الرحمن ت (٩١١) هـ ، تحقيق علي محمد عمر. — القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٣.

٩٦. الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الأخيار / الشعراني : عبد الوهاب بن احمد بن علي الحنفي ت (٩٧٣)هـ. — (د. م) : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، (د. ت).

٩٧. طبقات فحول الشعراء / ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي (١٣٩ — ٢٣١)هـ ، قدم له وشرحه محمود محمد شاكر. — القاهرة : (د. ن) ، ١٩٧٤.

٩٨. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي / ابن العربي : ابو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي ت (٥٤٣)هـ. — (د. م) : دار العلم للجميع ، (د. ت).

٩٩. العبر في خبر من غبر / الذهبي : محمد بن عثمان ت (٧٤٨)هـ ، تحقيق فؤاد سيد. — الكويت : دار المطبوعات والنشر ، ١٩٦٠ — ١٩٦١.

١٠٠. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / ابن رشيق : أبو علي الحسن بن رشيق (٣٩٠ — ٤٥٦)هـ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. — ط ٣. — القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٣٨٣هـ — ١٩٦٤م.

١٠١. العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم / ابن العربي : ابو بكر محمد بن عبد الله ابن محمد المعافري الاشبيلي ت (٥٤٣)هـ ، تحقيق محب الدين الخطيب. — (د. م) : لجنة الشباب المسلم ، ١٣٧١هـ.

١٠٢ . عيون الاخبار / ابن قتيبة : ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ — ٢٧٦) هـ . — القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ .

١٠٣ . عيون الانباء في طبقات الاطباء / ابن أبي اصيبعة : موفق الدين ابو المعالي العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ت (٦٦٨) هـ ، شرح وتعليق نزار رضا . — بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ .

١٠٤ . الفتاوى الكبرى / ابن تيمية : أبو العباس تقي الدين احمد ابن عبد الحليم ت (٦٢٨) هـ . — (د . م) : دار الكتب الحديثة ، (د . ت) .

١٠٥ . فن الشعر : مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد / ارسطوطاليس ، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي . — (القاهرة) : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٣ .

١٠٦ . فهرس ابن عطية / ابن عطية : عبد الحق بن غالب بن عطية الاندلسي (٤٨١ — ٥٤٦) هـ ، تحقيق محمد ابو الاجفان ومحمد الزاهري . — بيروت : دار الغرب الاسلامي ، ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

١٠٧ . الفهرست / ابن النديم : ابو الفرج محمد بن اسحاق بن محمد ت (٤٣٨) هـ . — بيروت : مكتبة خياط ، (د . ت) .

١٠٨ . فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف / ابن خير : ابو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الاموي الاشبيلي (٥٠٢ — ٥٧٥) هـ ، بعناية فرنسشكه قداره زيدين وخليان ربارة طرغوه . — (د . م) : (د . ن) ، ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م .

١٠٩. فوات الوفيات والذيل عليها / الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد ابن عبد الرحمن ت (٧٦٤) هـ ، تحقيق احسان عباس . ـ بيروت : دار صادر ، (د . ت) .

١١٠. قلائد العقيان / ابن خاقان : ابو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ابن خاقان القيسي الاشبيلي (٤٨٠ ـ ٥٢٩) هـ . ـ القاهرة : (د . ن) ، ١٢٨٣هـ .

١١١. الكامل في التاريخ / ابن الاثير : علي بن محمد ت (٦٣٠) هـ . ـ بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م .

١١٢. كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر / العسكرى : أبو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل ت (٣٩٥) هـ ، تحقيق علي محمد البجاوى ومحمد أبي الفضل ابراهيم . ـ القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ .

١١٣. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون / حاجي خليفة : مصطفى ابن عبد الله ت (١٠٦٧) هـ . ـ ط٣ . ـ طهران : المكتبة الاسلامية ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .

١١٤. لامية العرب أو نشيد الصحراء لشاعر الازد / الشنفرى : عمرو ابن مالك الازدى ت (٧٠) ق . هـ ، شرحها وحققها محمد بديع شريف . ـ بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٤ .

١١٥. لسان العرب / ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصرى ت (٧١١) هـ . ـ بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

١١٦. لسان الميزان / ابن حجر : ابو الفضل شهاب الدين احمد بن علي ابن حجر العسقلاني ت (٨٥٢) هـ . ـ حيدر أباد الدكن : مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٣٢٩ ـ ١٣٣١هـ .

١١٧ . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر / ابن الأثير : أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي ت (٦٣٧) هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .— (القاهرة) : (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي) ١٣٥٨هـ — ١٩٣٩م .

١١٨ . مجمع الأمثال / الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم الميداني النيسابوري ت (٥١٨)هـ .— بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٢ .

١١٩ . مجموع أوله كتاب الانساب (مخطوط) / مؤلف مجهول .— الرباط : الخزانة العامة ، رقم ١٢٧٥هـ .

١٢٠ . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / ابن عطية : عبد الحق ابن غالب بن عطية الأندلسي (٤٨١ — ٥٤٦)هـ ، تحقيق المجلس العلمي بفاس .— فاس : المجلس العلمي ، ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م .

١٢١ . المحلّى / ابن حزم : ابو محمد علي بن أحمد ت (٤٥٦)هـ ، تحقيق عبد الرحمن الجريري .— القاهرة : ادارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٩هـ .

١٢٢ . المحمدون من الشعراء وأشعارهم / القفطي : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي ت (٦٤٦)هـ ، تحقيق حسن معمري ، اشراف شارل بللا ، راجعه حمد الجاسر .— الرياض : دار اليمامة ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠م .

١٢٣ . المخصص / ابن سيدة : أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي الأندلسي ت (٤٥٨)هـ .— بيروت : المكتب التجاري ، (د . ت) .

١٢٤ . مذكرات الأمير عبد الله : المسماة بكتاب التبيان / ابن بلقين : عبد الله بن بلقين بن زيري الصنهاجي ت (٤٨٣)هـ ، تحقيق أ . ليفي بروفنسال .— القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٥ . (سلسلة ذخائر العرب ، ١٨) .

١٢٥ . مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع / البغدادي : صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ت (٧٣٩) هـ ، تحقيق علي محمد البجاوي . ـ بيروت : دار المعرفة ، ١٩٥٥ .

١٢٦ . المسلسل في غريب لغة العرب / السرقسطي : أبو طاهر محمد بن يوسف بن عبدالله التميمي ت (٥٣٨) هـ ، تحقيق محمد عبد الجواد . ـ (د . م) : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، (د . ت) . (سلسلة اقرأ ، دون رقم) .

١٢٧ . المطرب من أشعار أهل المغرب / الداوودي : محمد بن علي المصري ت (٩٤٥) هـ . ـ القاهرة : (د . ن) ، ١٩٥٤ .

١٢٨ . مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس / ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله بن خاقان القيسي الاشبيلي (٤٨٠ ـ ٥٢٩) هـ ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة . ـ بيروت : مؤسسة الرسالة ودار عمار ، ١٩٨٣ .

١٢٩ . المعجب في تلخيص أخبار المغرب / المراكشي : عبد الواحد بن علي التميمي ت (٦٤٧) هـ ، تحقيق محمد العريان . ـ القاهرة : المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ـ لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣م .

١٣٠ . معجم البلدان / ياقوت : شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي ت (٦٢٦) هـ . ـ بيروت : دار بيروت ودار صادر ، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .

١٣١ . المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي / ابن الأبار : ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ت (٦٥٨) هـ . ـ القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م .

١٣٢ . المغرب في حلى المغرب / ابن سعيد : علي بن موسى بن محمد ابن عبد الملك بن سعيد المغربي ت (٦٨٥)هـ ، تحقيق شوقي ضيف . ط ٢ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ .

١٣٣ . المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك) / البكري أبو عبيد البكري الأونبي ت (٤٨٧)هـ . بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٥٧ .

١٣٤ . المقامات اللزومية / السرقسطي : ابو الطاهر محمد بن يوسف ابن عبد الله التميمي ت (٥٣٨)هـ ، تحقيق بدر أحمد ضيف ، تقديم محمد مصطفى هدارة . الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ .

١٣٥ . مقامع الصلبان / الخزرجي : احمد بن عبد الصمد (٥١٩ — ٥٨٢)هـ ، تحقيق عبد المجيد الشرقي . — تونس : (د . ن) ، (١٩٧٥) .

١٣٦ . المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات الشرعيات لأمهات مسائلها المشكلات / ابن رشد (الجد) : محمد بن احمد ت (٥٢٠)هـ . — بغداد : مكتبة المثنى ، (د . ت) .

١٣٧ . مقدمة ابن خلدون / ابن خلدون : ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت (٨٠٨)هـ ، تحقيق أ . م . كاترمير ، عن طبعة باريس سنة ١٨٥٨ . — بيروت مكتبة لبنان ، ١٩٧٠ .

١٣٨ . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد بن علي ت (٥٩٧)هـ . حيدر أباد الدكن : (د . ن) ، ١٣٥٩ هـ .

١٤٠ . الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري / الآمدي ، ابو القاسم الحسن بن بشر ت (٣٧٠)هـ ، تحقيق السيد احمد صقر . — القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١ .

١٤١ . المؤنس في أخبار أفريقية وتونس / ابن أبي دينار : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرعيني القيرواني (كان حيا حتى سنة ١٠٩٢) هـ ، تحقيق وتعليق محمد شمام .ـ ط ٣ .ـ تونس : المكتبة العتيقة ، ١٩٦٨ . (سلسلة تراثنا الاسلامي ، ٣) .

١٤٢ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف ت (٨٧٤) هـ .ـ القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥م .

١٤٣ . نزهة الألباء في طبقات الأدباء / ابن الانبارى : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت (٥٧٧) هـ ، تحقيق ابراهيم السامرائي .ـ بغداد : وزارة المعارف ، ١٩٥٩ .

١٤٤ . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق / الادريسي : الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد الحسيني (٤٩٣ — ٥٦٠) هـ ، تحقيق شيوليي .. (وآخرون) .ـ نابولي : بروستات أبود ، ١٩٧٠ .

١٤٥ . نسب الخيل في الجاهلية والاسلام وأخبارها / ابن الكلبي : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت (٢٠٦) هـ ، عني بنشره جرجس لوى دلا وبدا .ـ ليدن : (د . ن) ، ١٩٢٨ .

١٤٦ . نظم الجمان / ابن القطان : ابو الحسن علي بن محمد الكتامي ت (٦٢٨) هـ ، تحقيق محمود علي مكي .ـ الرباط : كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد الخامس ، (د . ت) .

١٤٧ . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب / المقّرى : احمد بن محمد التلمساني ت (١٠٤١) هـ ، تحقيق احسان عباس .ـ بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م .

١٤٨ . نقد الشعر / قدامة : أبو الفرج قدامة بن جعفر ت (٣٣٧) هـ ،

تحقيق كمال مصطفى .ـ القاهرة : مكتبة الخانجي ، بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٦٣ .

١٤٩ . نكت الهيمان في نكت العميان / الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك ت (٧٦٤) هـ ، وقف على طبعه احمد زكي بيك . ـ القاهرة : (د ٠ ن) ، ١٩١١ .

١٥٠ . نهاية الأرب في فنون الأدب (نسخه مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) / النويرى : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ـ ٧٣٢)هـ ، .ـ القاهرة : وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (د ٠ ت) .

١٥١ . هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين / اسماعيل باشا البغدادى .ـ بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٥١ .

١٥٢ . الوافي بالوفيات / الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك ت (٧٦٤) هـ .ـ الجزء الأول ، بعناية هلموت ريتر .ـ ط ٢ .ـ فيسبادن : فرانزشتاير ، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م .

١٥٣ . الوافي بالوفيات / الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك ت (٧٦٤) هـ .ـ الجزء الثالث ، بعناية س . ديدرينغ .ـ دمشق : النشريات الاسلامية ، ١٩٥٣ .

١٥٤ . الوساطة بين المتنبي وخصومه / الجرجاني : علي بن عبد العزيز (٢٩٠ ـ ٣٦٦) هـ ، تحقيق وشرح محمد ابي الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوى .ـ ط ٣ . ـ (القاهرة) : دار احياء الكتب العربية ، (د ٠ت) .

١٥٥ . وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان / ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر ت (٦٨١)هـ ، تحقيق احسان عباس .ـ بيروت : دار الثقافة ، (د ٠ت) .

١٥٦ ـ يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر / الثعالبي : ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ت (٤٢٩)هـ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .ـ (د . م) : دار الكتب العلمية ، ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩م .

المراجـــــــع :

١٥٧ ـ الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لاصول الاساليب الادبية / أحمد الشايب .ـ ط ٥ .ـ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ .

١٥٨ ـ اوروبا العصور الوسطى / سعيد عبد الفتاح عاشور .ـ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ — ١٩٦٤ .

١٥٩ ـ تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين .ـ / احسان عباس .ـ ط ٥ .ـ بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٨ .

١٦٠ ـ تاريخ الادب الجغرافي العربي / كراتشكوفسكي ، أغناطيوس يوليانوفتش ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .ـ (د . م) : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (د . ت) .

١٦١ ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي / حسن ابراهيم حسن .ـ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ .

١٦٢ ـ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين / اشباخ ، يوسف ، ترجمة محمد عبد الله عنان .ـ ط ٢ .ـ القاهرة : نشر بعناية مؤسسة الخانجي ، ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨م .

١٦٣ ـ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس / حسين مؤنس .ـ مدريد : معهد الدراسات الاسلامية ، ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٧م .

١٦٤ ـ تاريخ الفكر الاندلسي / بالنشيا ، آنخل جنثالث ، ترجمة حسن مؤنس .ـ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ .

١٦٥ . تاريخ الفلسفة الاسلامية / كوربان ، هنري بالتعاون مع حسين نصر وعثمان يحيى ، ترجمة نصير مروّة وحسين قبيسي ، مراجعة الامام موسى الصدر والأمير عارف تامر . ـ بيروت : منشورات عويدات ١٩٦٦ .

١٦٦ . تاريخ الفلسفة في الاسلام / دي بور ، ت ، ج ، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ط ٤ . ـ القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧م .

١٦٧ . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب / محمد العروسي المطوى . ـ تونس : دار الكتب الشرقية ، ١٣٧٤هـ — ١٩٥٤م .

١٦٨ . الشطرنج في التراث العربي / زهير احمد القيسي . ـ بغداد : منشورات وزارة الاعلام ، ١٩٧٧ . (سلسلة دراسات ، ١٢٩) .

١٦٩ . الشعر الأندلسي / غومس ، اميليو غرسيه ، ترجمة حسين مؤنس . ـ ط ٣ . ـ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٩ .

١٧٠ . الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس / محمد مجيد السعيد . ـ بغداد : دار الرشيد ، ١٩٨٠ . (سلسلة دراسات ، ١٦١) .

١٧١ . الشعر والتجربة / مكليش ، ارشيبالد ، ترجمة سلمى الخضرا الجيوسي ، مراجعة توفيق صايغ . ـ بيروت : دار اليقظة العربية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين بنيويورك ، ١٩٦٣ .

١٧٢ . صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني / محمود ابراهيم . ـ عمان : مكتبة الأقصى ، دمشق : المكتب الاسلامي ، ١٣٩١ هـ — ١٩٧١م .

١٧٣ . الصورة الأدبية / مصطفى ناصف . ـ ط ٢ . ـ بيروت : دار الأندلس ، ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

١٨٤ . الوثائق السياسية والادارية في الأندلس وشمال افريقية ٦٤–٨٩٧هـ = ٦٨٣–١٤٩٢م : دراسة ونصوص / محمد ماهر حمادة . – بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م . (سلسلة وثائق الاسلام ، ٧) .

١٨٥ . Geschichte Der Arabischen Litteratur / Brockelman . C. – Leiden : (E. J. Brill), 1937.

الدوريـــــات :

١٨٦ . الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ = ١١١٨م مع اربع وثائق جديدة / حسين مؤنس " مجلة كلية الآداب " . – القاهرة : كلية الآداب . – جامعة القاهرة ، نصف سنوية ، ١٩٤٩ . (المجلد الحادى عشر ، الجزء الثاني) ص ص / ٩١ – ١٤٣ .

١٨٧ . الجانب السياسي من رحلة ابن العربي الى المشرق / احسان عباس " مجلة الأبحاث " . بيروت – الجامعة الامريكية ؛ دار الكتب ، ١٩٦٣ . (السنة السادسة عشرة ، الجزء الأول / ص ص / ٢١٧ – ٢٣٦ .

١٨٨ . سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الاندلس / حسين مؤنس " صحيفة معهد الدراسات الاسلامية " . – مدريد : معهد الدراسات الاسلامية ، سنوية ، ١٩٥٤ . (المجلد الثاني ، العدد الأول – الثاني) ص ص / ٥٥ – ٨٤ .

١٨٩ . الفونسو السادس ومدرسة المترجمين بطليطلة / عبد اللطيف الخطيب مجلة " دعوة الحق " . – الرباط : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية ، شهرية ، ١٩٦٩ . (السنة

.. الثانية عشرة ، العدد السابع) ص ص / ٦٩ - ٧٠.

١٩٠. معاهد العلم الاسلامية في السودان الغربي في العصور الوسطى / نقولا زيادة مجلة " الفكر العربي " .- بيروت : معهد الانماء العربي ، تصدر مرة كل شهرين ، ١٩٨١ . (السنة الثالثة ، العدد العشرون ص ص / ٤٤ - ٦١.

١٩١. نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين / حسين مؤنس " صحيفة معهد الدراسات الاسلامية " .- مدريد : معهد الدراسات الاسلامية ، سنوية ، ١٩٥٥. (المجلد الثالث ، العدد الأول) ص ص / ٩٧ - ١٤٠.

١٩٢. نقط العروس في تاريخ الخلفاء / ابن حزم : ابو محمد علي ابن احمد ت (٤٥٦)هـ ، راوية الحميدي ، تحقيق شوقي ضيف " مجلة كلية الآداب " .- القاهرة : كلية الآداب - جامعة القاهرة ، نصف سنوية ، ١٩٥١. (المجلد الثالث عشر ، العدد الثاني) ص ص ٤١ - ٨٩.

١٩٣. نوازل ابن رشد / ابن رشد (الجد) : محمد بن احمد ت (٥٢٠) هـ ، دراسة احسان عباس " مجلة الأبحاث " .- بيروت : الجامعة الامريكية ، ١٩٦٩ . (السنة الثانية والعشرون ، الجزءان الثالث والرابع) ص ص / ٣ - ٦٣.

١٩٤. وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين / حسين مؤنس " صحيفة معهد الدراسات الاسلامية " .- مدريد : معهد الدراسات الاسلامية ، سنوية ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠. (المجلد السابع والثامن) ص ص / ١٠٩ - ١٩٦.

١٩٥. Trois etudes d'histoire de La medecine arabe en Occident (suite)/ by Renuad, H. P. J " Hesperis- Tumuda". (Volume 12. Number 1) PP/ 91- 105.

فهـــــرس الموضوعــــــات

رقم الصفحـــة

The University of Jordan

Faculty of Arts

Department of Arabic

"Literature of the Holy War (Jihad) in the Almoravid Era"

By

Hamid Kassab Aiyyat

Supervisor

Professor: ABDUL KARIM KALIFA

"This thesis has been submitted in partial fulfilment of the requirements for the degree of Master of Arts, in Arabic at Faculty of Arts, The University of Jordan.

1983

ABSTRACT

This thesis is a close treatment of the literature of Jihad (Holy War) in Andalusia in Almoravid era. It consists of six chapters, the first of which is a general survey, by way of introduction, of the political, social and intellectual features of the period. A special examination of the mental life, and the historical and scientific evidences that have come down to us show that the views describing the period as being one of a cultural and civilizational retreat are refutable.

The second chapter deals with the Almoravids' conception of Jihad and the attitudes of the Muslim men of law towards it. One may conclude from the historical and Judicial documents exhibited in this chapter, and from the role that the Andalusian jurists played in the conflict between Muslims and Christians in Andalusia, that the Almoravid dynasty was interested primarily in defending Islam and Muslims against Spanish agression.

The inflnence of the subject of Jihad upon both poetry and fine prose is examined in the third chapter. It appeared that such influences affected all literary genres and themes. Jihad had provided and enriched some literary subjects such as the appeals for help, the description of armies, weapons and battles, and other subjects.

The fourth chapter deals with those literary works pertaining to the major political events that occurred in the Almoravid era, with an attempt to examine how these literary writings reflected the Muslim feelings towards their victories and retreats.

The fifth chapter is an attempt to point out the ideal characteristics of the Muslim heroic ideal as well as the image of the enemies as reflected in this literature.

The last chapter outlines the technical characteristics of the literature of Jihad in this era and attempts to give an assessment of it.